

بلاغة النظم القرآنى

صنعة

أ.د/ سعد عبد العظيم

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي

والأدب المقارن

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

أ.د/ عبد الحميد هندأوى

رئيس قسم البلاغة والنقد الأدبي

والأدب المقارن

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

٢٠١٤ / ١٤٣٥ هـ

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	ز
الوحدة الأولى: إعجاز القرآن في التراث البلاغي والنقدي.....	١
الصدر الأول والإعجاز.....	٣
الجاحظ (٢٥٥هـ) وكتابه "نظم القرآن".....	٣
الخطابي (٣٨٨هـ) ورسالته "بيان إعجاز القرآن".....	١٣
الرماني (٣٨٤هـ) ورسالته "النكت في إعجاز القرآن".....	٢٣
الباقلاني (٤٠٣هـ) وكتابه "إعجاز القرآن".....	٣١
الوحدة الثانية : نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.....	٤٣
النظم قبل عبد القاهر.....	٤٤
نظرية النظم عند عبد القاهر.....	٤٥
أبواب النظم أو مباحث علم المعاني.....	٤٧
أسس نظرية النظم.....	٤٧
أ- الفصاحة في النظم وليست في الكلم المفردة ولا في المعاني.....	٤٧
ب- إعجاز القرآن يكمن في نظمه.....	٥٤
ج- أقسام الكلام الفصيح.....	٥٦
د - مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض.....	٥٧
هـ- اختلاف النظم معناه اختلاف المعاني والأغراض....	٥٨
و- أنواع المعاني: المعاني الأول والمعاني الثانوي....	٦٣
الوحدة الثالثة: بلاغة اللفظة القرآنية.....	٧١
تمهيد.....	٧٢
بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبه للسياق والمقام.....	٧٣

- ٨٠ اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي
- ٨٢ اتساع الدلالة من خلال المتواطئ
- ٨٥ اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز
- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي
- ٨٨
- ٩٩ الوحدة الرابعة: التنويع الأسلوبي
- ٩٩ التعريف بظاهرة التنويع الأسلوبي
- ١٠١ التنويع الأسلوبي بين الموروث البلاغي والأسلوبية الحديثة
- الوحدة الخامسة: بلاغة الصورة البيانية في القرآن الكريم بين التصوير الفني والتصوير البياني
- ١٤١
- ١٤١ مفهوم التصوير الفني
- ١٤٢ التفريق بين التصوير الفني والتصوير البياني المعهود
- ١٤٩ من نماذج التصوير البياني في القرآن الكريم
- ١٥٢ نماذج كلية للتصوير الفني والبياني في القرآن الكريم
- ١٦٥ السمات الأسلوبية العامة للحوار القرآني
- ١٧٩ الوحدة السادسة: بلاغة التناسب في القرآن الكريم
- ١٧٩ - قيمة علم المناسبة
- ١٨٠ - التناسب بين فواتح السور وموضوعاتها
- ١٩٥ - المناسبة بين الآيات
- ٢٠٠ - المناسبة بين الآيات وفواصلها
- ٢١٠ - المناسبة بين فواتح السور وخواتيمها
- ٢١٧ الوحدة السابعة: بلاغة ترتيب السور في القرآن الكريم
- ٢١٧ - مقدمة في ترتيب السور
- ٢٢١ - المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول
- ٢٢٦ - المناسبة بين السور حسب ترتيب المصحف العثماني
- ٢٣٥ - المناسبة بين الحواميم السبع

مُتَكَلِّمَةً بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الرحيم الرحمن، علم القرآن، وخلق الإنسان وعلمه البيان.

وأصلي وأسلم على أفصح الخلق لسانا، وأحسنهم بيانا، محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار، صلاة وسلاما دائمين ما بقي الليل والنهار.

وبعد:

تدور مادة هذا الكتاب بوحداته السبع حول بلاغة القرآن الكريم، ذلك الكلام المعجز المتعبد بتلاوته الذي تحدى الله تعالى ببلاغته ونظمه الإنس والجن؛ فقال عز من قائل: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فعجز الجميع من الإنس والجن أن يأتوا بمثله من وقت التحدي إلى زماننا هذا.

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا كذلك فقال عز من قائل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤]

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا كذلك فقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزِقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

ومهما قيل في اشتغال القرآن على إشارات علمية أو إخبارات غيبية أو أحكام تشريعية أو فضائل وقيم أخلاقية تصلح في الحقيقة أن تكون وجوها لإعجاز القرآن وتحدي الناس أن يأتوا بمثل هذه العلوم من مثل هذا الرجل

الأمي محمد - ﷺ - فإن أعظم وجوه إعجاز القرآن على الإطلاق هي في لغته الربانية التي عبرت عن كل هذه المعاني التي لا تنقضي عجائبها على مر الزمان.

إن سر إعجاز القرآن الذي لا يختلف عليه أحد من الدارسين إنما يرجع إلى بلاغته وفصاحته التي تحدى بها أرباب البلاغة والفصاحة فيما عبر عنه من المعاني والقيم، وإن كان - في رأينا - أن كل ما جاء به القرآن من معان وتشريعات وأخلاق وأخبار وإشارات علمية وغير ذلك هو جدير بأن يقوم به التحدي كذلك بأن يطلب الإتيان بشيء من ذلك من مثل محمد الأمي الذي علم العلماء بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كان أعظم وجوه الإعجاز القرآني يرجع إلى ذلك الإعجاز البياني البلاغي- الذي هو وعاء كل ما ذكره العلماء من وجوه إعجاز القرآن - فإن هذه المادة : مادة بلاغة النظم القرآني - هي العلم الذي يضطلع ببيان وجوه ذلك الإعجاز اللغوي الذي لا يقوم إلا بمراعاة فنون البلاغة والفصاحة المعهودة في كلام العرب في أعلى صورها دون خلل أو تفاوت في نظم هذا الكتاب المعجز من سورة لغيرها بل من آية لأخرى؛ ذلك الإعجاز الذي عبر عنه بعض علمائه فقال: " كتاب الله لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد."

ومن ثم تدور وحدات هذا الكتاب حول نظم القرآن ووجوه إعجازه وبلاغة ألفاظه وأساليبه وصوره وغير ذلك مما تشمله الوحدات التالية:

الوحدة الأولى: إعجاز القرآن في التراث البلاغي والنقدي.

الوحدة الثانية: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

الوحدة الثالثة: بلاغة اللفظة القرآنية.

الوحدة الرابعة: التنويع الأسلوبي.

الوحدة الخامسة: بلاغة الصورة البيانية في القرآن الكريم.

الوحدة السادسة: بلاغة التناسب في القرآن الكريم.

الوحدة السابعة: بلاغة ترتيب السور في القرآن الكريم.

هذا؛ وقد هدفنا في هذا الكتاب إلى إيقاف الدارسين على النماذج الجميلة الرائقة لبلاغة القرآن ، والارتقاء بذوقه لفهم تلك النماذج وأمثالها والقدرة على تحليلها، والتعبير عما فيها من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبلاغته. وبعد؛ فهذا ما قصدنا إليه؛ وعلى الله قصد السبيل.

المؤلفان



الوحدة الأولى

إعجاز القرآن في التراث البلاغي والنقدي

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- أ- الفرق بين معجزة القرآن وغيرها من المعجزات.
 - ب- معنى المعجزة.
 - ج- بيان مدى اهتمام الأوائل ببحث قضية إعجاز القرآن.
 - د- المحاولات الأولى لنشأة البحث البلاغي في إعجاز القرآن الكريم.
 - هـ- تعريف الدارس بوجوه الإعجاز، والوجه المختار منها.
 - و- تقوية الحس البلاغي للدارس بعرض بعض الأمثلة التي تناولها علماء الإعجاز.

العناصر:

- حال الصدر الأول مع بلاغة القرآن الكريم.
- أبرز المؤلفات الأولى في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وجهود مؤلفيها في بحث قضية الإعجاز، وهي:
 - الجاحظ وكتابه "نظم القرآن".
 - الخطابي ورسالته "بيان إعجاز القرآن".
 - الرماني ورسالته "النكت في إعجاز القرآن".
 - الباقلائي وكتابه "إعجاز القرآن".

إعجاز القرآن في التراث البلاغي والنقدي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد ﷺ وعلي آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو معجزة الرسول محمد ﷺ الخالدة الباقية إلى يوم القيامة، وقد ميز الله معجزة القرآن عن كل ما سبقها من المعجزات بأن جعلها عين المنهج؛ "ليظل المنهج محروساً بالمعجزة، وتظل المعجزة في المنهج" كما يقول الشعراوي في كتابه "معجزة القرآن" [ص ١٠]؛ فقد كان معجزة كل رسول قبل الرسول محمد ﷺ غير منهجه؛ فكانت معجزة خليل الله إبراهيم أن جعل الله النار برداً وسلاماً عليه، وأنجاه منها، وكان كتابه الصحف، وكان لموسى ﷺ معجزة العصا، ومعجزة فلق البحر، ومعجزة خروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء، وكان كتابه التوراة. وكان من معجزات عيسى ﷺ أنه ولد من أم بلا أب، وأنه تكلم في المهد، وأنه كان يرى الأكمه والأبرص بإذن الله، وأنه كان يحيي الموتى بإذن الله، وأنه كان ينبأ قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيها فكانت طيراً بإذن الله، وكان كتابه الإنجيل.

ومن هنا كانت الكتب السابقة للقرآن داخلية في نطاق التكليف؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى كان يكلف عباده بالمحافظة على الكتاب الذي أنزل عليهم، لكن الله خص القرآن دون غيره من الكتب بأنه هو الذي تكفل بحفظه كما يقول الشعراوي. فقال عز من قائل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) [الحجر: ٩]، وشهد له الله بالخلو من أي اختلاف بقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢) [الأنعام: ١٠٢]، وشهد له بالخلو من أي عوج فقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (٣) [الكهف: ١ و ٢] وعصمه من أن يأتيه الباطل من أي ناحية؛ فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤) [فصلت: ٤١-٤٢].

ومعجزة النبي ﷺ وهي القرآن صفة من صفات الله، وهي كلامه، أما المعجزات السابقة فهي فعل من أفعال الله، وفعل الله من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله الله، البحر انشق لموسى ثم عاد الى طبيعته. النار لم تحرق إبراهيم ولكنها عادت الى خاصيتها بعد ذلك. ومن ثم فمعجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن حادثة وقعت، وانتهت بانتهاء عصر من وقعت له من الأنبياء والمرسلين كسائر المعجزات قبل القرآن الكريم، بل هي معجزة قائمة تخاطب جميع الأجيال عبر جميع العصور، يراها الناس في كل عصر ويقرؤونها.

الصدر الأول والإعجاز:

أدرك سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم أجمعين - إعجاز القرآن، فقد كانوا عرباً خُلصاً، وكان البيان لهم طبعاً، ولم يشغلوا أنفسهم بمعرفة وجوهه وملاحمه، فقد بهرهم إعجاز القرآن، ومن ثم لم يؤلفوا الرسائل بله الكتب للحديث عنه، إنما نشأت الحاجة إلى معرفة وجوه الإعجاز حين ظهر الزنادقة والملاحدة وأهل الضلال ممن ينسبون إلى الإسلام من أمثال النظام وهشام الفوطي وعباد بن سليمان والذين طعنوا في القرآن الذين طعنوا في نظم القرآن وزعموا أنه نظم عادي وليس بحجة للرسول ﷺ، حينئذ شمر العلماء عن ساعد الجد بتأليف الكتب والرسائل للرد على هؤلاء جميعاً ولبين أن القرآن معجز وأنه حجة للنبي ﷺ ودلالة على نبوته، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الجاحظ وابن قتيبة والخطابي والقاضي عبد الجبار والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

ونبدأ حديثنا عن أبرز الكتب والرسائل التي ألفت في إعجاز القرآن:

الجاحظ (٢٥٥هـ) وكتابه "نظم القرآن":

يعد الجاحظ أول من ألف في إعجاز القرآن، واسم كتابه "الاحتجاج لنظم القرآن"، وقد ألف الجاحظ هذا الكتاب للرد على أستاذه النظام الذي طعن في نظم القرآن، وفي كونه معجزة للنبي ﷺ حين قال - كما ذكر البغدادي في الفرق بين الفرق: "إن نظم القرآن وتأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ ولا دلالة

على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وتأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف" [١٢٨]، وقال كما ذكر الأشعري في مقالات الإسلاميين: "فأما التأليف والنظم كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم". [١٧٩/١]

وقد ألف الجاحظ كتابه "الاحتجاج لنظم القرآن" للرد على الرافضة والملاحدة الذين طعنوا في إعجاز النظم القرآني، يبين الجاحظ ذلك في رسالته إلى الفتح بن خاقان بقوله: "فكتبت لك كتاباً، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان؛ فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة". [رسائل الجاحظ ٢٨٧/٣]

ويبين ابن الخياط في كتابه "الانتصار" قيمة كتاب «الاحتجاج لنظم القرآن» للجاحظ بقوله: «ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ». [١٥٤ و ١٥٥]

وكتاب الجاحظ للأسف الشديد لم يصل إلينا حتى الآن، لكن الجاحظ علامة موسوعي الثقافة يكرر نفسه في كثير من كتبه؛ لأنه يحرص على تثبيت ما يريده لدى قارئيه وتلاميذه، وقد أحسن صنعا بذلك؛ فقد أمكننا بتكراره هذا من التعرف على الغرض من تأليف كتابه وعلى منهجه وطريقة تأليفه.

وجوه الإعجاز عند الجاحظ:

الوجه الأول- عجز العرب عن معارضة القرآن:

يبدو أن الجاحظ قد بدأ كتابه بمقدمة تحدث فيها عن علم التفسير ومكانته والعلوم التي ينبغي للمفسر أن يكون عالماً بها، ثم أتبع ذلك بتمهيد للحديث عن إعجاز القرآن ملخصه أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله - ﷺ -

وأنه أعجوبة كأعجوبة إبراء الأكمة والأبرص وفلق البحر بالعصا. ويستدل الجاحظ على إعجاز القرآن الكريم بعجز العرب عن معارضة القرآن الكريم أو الإتيان بمثله، فيشير إلى أن العرب كان الكلام «كلامهم، وهو سيد علمهم، فقد فاض ببيانهم، وجاشت به صدورهم. وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخنافس والجعلان، والحمير والحمائم، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب، ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف، كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس، والأسجاع والمنثور» [الرسائل ٢٢٩/٣]. ولما كان العرب على هذا القدر من الكلام أنزل القرآن على رسول الله - ﷺ - بلسان عربي مبين ولم يؤمنوا بالرسول - ﷺ - وبالقرآن فتحداهم رسول الله - ﷺ - أن يأتوا بمثل القرآن فقال: «لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء، والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي»؛ فلما تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من اختلاف طبائعهم وشرائعهم، هجوه من كل جانب «وخاصموه في المواسم، وبأدروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم أثبت الناس حقاً، وأبعدهم مطلباً، وأذكهم لخير أو لشر، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوة، ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر». فمحال أن يكون العرب قادرين على المعارضة ثم يتركوا ذلك إلى ما فيه هلاكهم وتبديد أموالهم وقتل أنفسهم. ثم يستدل على كثرة المراجعة بما ورد في القرآن الكريم من قول الله عز وجل ﴿قُلْ فَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَتِي﴾ [هود: ١٣]، فدل ذلك على عجزهم عن المعارضة مع كثرة المراجعة من الرسول - ﷺ - ومن الله عز وجل.

إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه:

يرى الجاحظ أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه حيث يقول: «في كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله

العباد. مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به». ومن ثم ألف الجاحظ كتابه «في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه». وشرع يتحدث عن غريب تأليف القرآن وعن بلاغته وعن بعض الخصائص التي اختص بها النظم القرآني عن غيره من سائر الكلام بقوله: "ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج."، [البيان ١/٤١]، وبقوله: "وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس". [البيان ١/٤٢]

ومن أبرز خصائص النظم القرآني أنه لا يمكن ترجمته إلى لغات أخرى؛ فإذا كان الشعر العربي "لا يستطيع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب" لأن "الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم - أي الشاعر - على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، ومثل مؤلف الكتاب وواضعه" [الحيوان ١/٥٤]؛ فإذا كان هذا حال الشعر العربي وهو من وضع المخلوقين؛ فكيف بالقرآن وهو كلام الخالق المعجز "بنظمه

البدیع الذي لا یقدر على مثله العباد، ؟!!؟ لا شک أن ترجمة القرآن مستحيلة؛ لأن الله ليس كمثل شيء یقول الجاحظ: "وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه، ولحولوه عن وجوهه، وما ظنك بهم إذا ترجموا ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]... و﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء ١٦٤] و﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقد علم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة، وأعلم بوجه الكلام من اليهود ومتأولي الكتاب... فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيبهم، وقلة نظرهم وتقليدهم؟ وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسهم، وفصحاء أهل اللغة إذا غلطت قلوبها، وأخطأت عقولها، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها؟". [الرسائل ٣/ ٣٣٦]

ومن أبرز خصائص النظم القرآني أنه جاء بكثير من الألفاظ المحدثثة التي لم يكن العرب يعرفونها مثل "اسم منافق" لمن رأى بالإسلام واستسرّ بالكفر؛ أخذ ذلك من النافقاء، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمّم. قال الله تعالى ﴿فَتَيَسَّمْوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي تحرّوا ذلك وتوخّوه. وقال ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ فكثّر هذا في الكلام حتّى صار التيمّم هو المسح نفسه. وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملابستهم له. كما سمّوا رجيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر.

الوجه الثاني - الفنون البلاغية:

يشير الجاحظ إلى وجه آخر من وجوه إعجاز القرآن هو الفنون البلاغية كالإيجاز والاستعارة وغيرهما بقوله: "ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن- يعني كتاب "نظم القرآن"-؛ لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبت له في باب الإيجاز وترك الفضول؛ فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وهاتان

الكلمتان قد جمعنا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني ". [الحيوان ٤١/٣ و٤٢]

ومن أبرز أمثلة الإيجاز التي عرض لها الجاحظ قول الله تبارك وتعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] يوضح الجاحظ ما في هذه الآية من إيجاز بقوله: «وقد يتجه هذا الكلام في وجوه: أحدها أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس... أو يكون الله عز وجل إنما عنى أنه خلق أسباباً ووهب عللاً، وجعل ذلك رفداً لما يظهر لنا ونظاماً، وكان بعض المفسرين يقول من أراد أن يعرف معنى قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] فليوقد ناراً في وسط غيضة أو في صحراء برية ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق والحشرات والهمج فإنه سيرى صوراً، ويتعرف خلقاً لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم. ويعلم أن الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواقع الغياض والبحار والجبال، ويعلم أن ما لم يبلغه أكثر وأعجب وما أرد هذا التأويل، وإنه ليدخل عندي في جملة ما تدل عليه الآية ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربه ولم يتفقه في دينه». [الحيوان ٣٠٩/٢ و٣١٠]

فتعبير الجاحظ عما سبق من تفسير بأنه «يدخل في جملة ما تدل عليه الآية» يشير إلى أن الآية موجزة إيجازاً بليغاً أو أنها تحتل كل ما يقال في ذكر مخلوقات الله التي لم يكن يعلمها أحد وراها الناس، أو علموا بها.

الوجه الثالث- الصرفة مع العناية التامة بإعجاز النظم:

من وجوه الإعجاز عند الجاحظ الصرفة مع العناية التامة بإعجاز النظم القرآني وكونه معجزة للرسول ﷺ؛ فقد ذهب الجاحظ إلى أن الله صرف نفوس العرب عن معارضة القرآن، بعد أن تحادهم الرسول ﷺ بنظمه كما صرف سليمان عليه السلام عن موقع ملكة سبأ وأطلع عليه الهدد، وصرف الله يعقوب عن موضع ابنه يوسف، وصرف أو هام بني إسرائيل عن الخروج من التيه، وكان

من ملاعبهم ومنتزهاتهم، ولذلك" لم نجد أحدًا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكفّه، ولو تكلف بعضهم ذلك؛ فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، وكثر القيل والقال... فكان لله ذلك التدبير، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له. "وصرف الله" أو هام العرب عن محاولة معارضة القرآن؛ فلم يأتوا به مضطرباً ولا ملفقاً ولا مستكرهاً؛ حتى لا يكون لأهل الشغب متعلق في ذلك". [الحيوان ٣٠٦/٤]

وقد بين الجاحظ أنه اضطر إلى القول بالصرف في المواضع التي سبق ذكرها بقوله: "فبهذا وأشباهه من الأمور نحن إلى الإقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية؛ فليس لخصومنا حيلة إلا أن يوافقونا، وينظروا في العلة التي اضطررنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحة فالصحيح لا يوجب إلا الصحيح. وإن كانت سقيمة علمنا أن ما أتينا من تأويلنا". [الحيوان ٣٠٦/٤]

ومن أبرز أفكار «نظم القرآن» للجاحظ رده على الطاعنين والمشككين في بعض الآيات القرآنية، وهي سنة ابتدئها الجاحظ وتأثر بها معظم من ألفوا في إعجاز القرآن بعده كالخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار وغيرهم. وقد ذكر لنا الجاحظ في كتبه كثيراً من ذلك؛ نذكر بعضه:

❖ طعن أهل الضلال والزيغ في قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] وقالوا: «فهل حرمتم اللحم بالكتاب وحرمت ما سواه بالخبر الذي لا يدفع، فإن بقيت خصلة أو خصلتان مما لم تصيبوا ذكره في كتاب منزل، وفي أثر لا يدفع رددتموه إلى جهة العقل». أي أنهم يفهمون أن الآية القرآنية لم تحرم من الخنزير إلا اللحم فقط بدليل أنها لم تذكر سائر الأجزاء فيما يتعلق بالخنزير، وبدليل أنها عمت الحديث في الدم والميتة وما أهل لغير الله به. فيرد الجاحظ عليهم بقوله: «قد يقول الرجل لو كيله اشتر لي بهذا الدينار لحماً أو بهذه الدراهم فيأتيه باللحم فيه الشحم والعظم،

والعرق والعصب والغضروف، والفؤاد والطحال والرئة، وبيعض أسقاط الشاة وحشو البطن. والرأس لحم والسماك أيضا لحم وقال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] فإن كان الرسول ذهب إلى المستعمل من ذلك وترك بعض ما يقع عليه اسم لحم، فقد أخذ بما عليه صاحبه. فإذا قال حرمت عليكم لحما، فكأنه قال: لحم الشاة، والبقرة والجوزور، ولو أن رجلاً قال: أكلت لحما، وإنما أكل رأسا أو كبدا أو سمكا. لم يكن كاذبا. للناس أن يضعوا كلامهم حيث أحبوا إذا كان لها مجاز إلا في المعاملات». [الحيوان ٢٩٧/٤]

فالجاحظ يرد على الطاعنين بما عرف في كلامهم وكلام العرب من أنهم يطلقون اللحم على كثير مما يؤكل من الحيوانات، ويعتبرن السمك لحما أيضا، ثم يذكر سبب ذكر اللحم دون سائر أجزاء الخنزير؛ «بأنه لما كان اللحم هو العمود الذي إليه يقصد، وصار في أعظم الأجزاء قدرا، دخل سائر تلك الأجزاء في اسمه، ولو كان الشحم معتزلاً من اللحم ومفرداً في جميع الشحوم كشحوم الكلى والتروب لم يجر ذلك... فلما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتُهُ وَالْأَذْمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] وكانت هذه الأشياء المشبهة باللحم تدخل في باب العموم في اسم اللحم، كان القول واقعاً على الجميع». ومن البين أن الجاحظ يفهم الآية على أنها مجاز مرسل حيث ذكر اللحم وأريد جميع الخنزير.

✽ وطعن الدهرية في ملك سليمان وقالوا «زعمتم أن سليمان سأل ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] وأن الله تعالى أعطاه ذلك، ثم زعمتم - وهو إما بالشام وإما بسواد العراق أنه لا يعرف باليمن ملكة هذه صفتها. وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة، ولا يخفي عليهم صاحب الخرز ولا صاحب الروم ولا صاحب الترك ولا صاحب النوبة. وكيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة مع قرب دارها واتصال بلادها». يرد الجاحظ عليهم بأن ذلك من حكم الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه يصرف ما يشاء عن

يشاء، ولم يكن هذا خاصاً بسليمان عليه السلام، بل صرف الله بعض الأمور عن أنبيائه مثل يعقوب ويوسف وموسى ومحمد عليهم صلوات الله أجمعين، فيعقوب نبي وابن نبي وعلى الرغم من ذلك لم يكن يعلم بمكان يوسف، وكان يوسف وزير ملك مصر من النباهة بالموضع الذي لا يدفع وله البرد وإليه يرجع جواب الأخبار، ومع ذلك لم يعلم مكان والده دهرًا من الدهور مع النباهة والقدرة واتصال الدار".
[الحيوان ٣٠٣/٤ و ٣٠٤]

❖ وطعن ناس من الملحدّين، وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسّع العرب في لغتها، وفهم بعضها عن بعض، بالإشارة والوحي في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ [النحل: ٦٨] فقالوا: "قد علمنا أن الشمع شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر فتبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها، كما يسقط الثرنجبين، والممن، وغير ذلك. إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفي. وكذلك العسل أخفى وأقل؛ فليس العسل بقيء ولا رجع، ولا دخل للنحلة في بطن قطّ" [الحيوان ٢٢٦/٥]؛ فيرد عليهم الجاحظ بقوله: "العسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابًا، أو بالماء نبيذًا؛ فسماه كما ترى شرابًا، إذ كان يجيء منه الشراب.... ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها... وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت. وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة، وهذيل، وضواحي كنانة. وهؤلاء أصحاب العسل والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الحجة؟!" [الحيوان ٢٢٦/٥ و ٢٢٧]

❖ وطعنوا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى﴾ [طه: ٢٠] وقالوا: "المشي لا يكون إلا برجل، كما أنّ العض لا يكون إلا بفم، والرمح لا

يكون إلّا بحافر"؛ فيرد عليهم الجاحظ بأن ذلك جهل منهم بكلام العرب؛ لأن من جعل للحيات مشياً من الشعراء، أكثر من أن نقف عليهم. ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسيابها مشياً وسعيًا، لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل، وأن قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه؛ فمن عادة العرب أن تشبه به في حالات كثيرة"، ولأن "الأعراب تزعم - وكذلك قال ناس من الحوائين والرقائين - أن للحية حزوزا في بطنه، فإذا مشى قامت حزوزه، وإذا ترك المشي تراجعت إلى مكانها، وعادت تلك المواضع ملسًا، ولم توجد بعين ولا لمس، ولا يبلغها إلا كل حواء دقيق الحس". [الحيوان ٣٩٤/٤]

✱ وطعنوا في قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] وقالوا: "كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فتوهّمه، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق. ومخرج الكلام يدلّ على التخويف بتلك الصّورة، والتفريع منها. وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزّجر من ذلك لذكره. فكيف يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلّا من شيء هائل شنيع، قد عاينوه، أو صوّره لهم واصف صدوق اللسان، بليغ في الوصف. ونحن لم نعاينها، ولا صوّرها لنا صادق. وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش أهل الكتابين وحملّة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهّمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه. فكيف يكون ذلك وعيدًا عامًّا؟ [الحيوان ٤٢٥/٦] فيرد عليهم الجاحظ بقوله: " قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطانًا قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان، حتّى صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان". والوجه الآخر أن يسمّى الجميل شيطانًا، على جهة التطيّر له، كما تسمّى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صماء، وقرناء، وخنساء، وجرباء وأشباه

ذلك، على جهة التطير له؛ ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح. والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبیت". [الحيوان ٤٢٦/٦]

الخطابي (٣٨٨هـ) ورسالته "بيان إعجاز القرآن":

ألف الخطابي رسالته "بيان إعجاز القرآن"، وبدأها بذكر ما قيل في وجوه الإعجاز قبله، ويبين رأيه في كل منها على النحو الآتي:

ذهب قوم إلى أن من وجوه إعجاز القرآن عجز العرب قاطبة وهم الفصحاء البلغاء عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه على الرغم من تحدي النبي ﷺ لهم طوال حياته، وعلى الرغم من مرور تطاول الزمان من بعثة الرسول إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه". [ثلاث رسائل ١٩]

وبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: "وهذا أبينها دلالة وأيسر مؤونة، وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه" [ثلاث رسائل ١٩].

وذكر مذهب الصرفة وهو أن الله صرف الهمم عن معارضة القرآن وإن كان مقدورًا عليها وعلق عليه بقوله: "وهذا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة؛ فدل على أن المراد غيرها".

وذكر أن طائفة زعمت "أن إعجازه إنما فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان كقوله تعالى ﴿لَمَّا غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ① ﴿فَإِذَا دُفِنُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ② ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سِكَيْبُوتٌ﴾ ③ ﴿فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾ [الروم: ١- ٤] وغيره من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها. ". [ثلاث رسائل ٢١]

وبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بأن هذا "وما أشبهه من أخبار نوع من أنواع الإعجاز، لكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن،

وقد جعل الله في صفة كل سورة أن تكون معجزة في نفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها؛ فقال ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] من غير تعيين". [ثلاث رسائل ٢١]

وذكر أن هناك من زعموا "أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيتها يعرض الإشكال، وقد جرى عامة أهل هذه المقالة على نوع من التقليد وغلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن قالوا: لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر...، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده... وقالوا: وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به". [ثلاث رسائل ٢٢]

ويبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: "وهذا لا يُتَّع في مثل هذا العلم، ولا يُشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل به على إيهام". [ثلاث رسائل ٢٣].

❖ وجوه إعجاز القرآن عند الخطابي:

الوجه الأول: بعد أن رفض الخطابي مقولة "اللاتعليل" لأسرار الإعجاز، حاول تحديد أسباب العلة في الإعجاز؛ فرأى أن إعجاز القرآن يكمن في أنه "جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"، وقد توصل إلى ذلك بعد أن رأى أن "أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودراجتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها: البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائر الطلق الرسل".، وأن "هذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم؛ الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة. فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه".، وأن بلاغات القرآن حازت "من كل قسم من هذه الأقسام حصّة وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبية؛ فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام يجمع صفتي

الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما بالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة؛ فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما عن الآخر فضيلةً خُصَّ بها القرآن؛ يسرّها الله بلطيف قدرته من أمره؛ ليكون آيةً لنبيه، ودلالةً له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه". [ثلاث رسائل ٢٣ و٢٤]

وبين الخطابي أن الكلام يقوم بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم ثم يقول: "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة؛ حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاوفاً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها. وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه؛ فلم توجد إلا في كلام العلام القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً." [ثلاث رسائل ٢٤]

وبين الخطابي وجه إعجاز القرآن بقوله: "فتفهم واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته وبيان منهج عبادته... واضحاً كل شيء موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه". [ثلاث رسائل ٢٣]

وبين أن عمود بلاغة النظم القرآني "التي تجمع هذه الصفات أنه وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليه فصول الكلام في موضعه الأخص به الذي إذا بدل مكانه جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يسبب فساد الكلام أو ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة". [ثلاث رسائل ٢٦]

ومن أبرز مظاهر ذلك التفرقة الدقيقة بين الألفاظ المترادفة كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، والنعمة والصفة. وكقولك: أقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن ونحوهما من الأسماء والصفات؛ فالفرق بين الحمد والشكر أن الحمد ابتداء بمعنى الثناء، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ويكون فعلاً كقوله عز وجل ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ : ١٣]، والحمد ضده الذم، والشكر ضده الكفران، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب، وأن الفرق بين أقعد وجلس أن قعد" عن قيام وجلس عن ضجعة واستلقاء". [ثلاث رسائل ٢٨]

والفرق بين بلى ونعم أن بلى "جواب عن الاستفهام بحرف النفي... كقوله عز وجل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف ١٧٢]، وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل كقوله سبحانه ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف ٤٤]. والفرق بين ذاك وذلك أن "الإشارة بذاك إنما تقع إلى الشيء القريب منك، وذلك إنما يستعمل فيما كان متراخياً عنك". [ثلاث رسائل ٢٩]

الوجه الثاني- الأثر النفسي للقرآن: ختم الخطابي رسالته بذكر وجه آخر من وجوه إعجاز القرآن "ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم؛ وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس؛ فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها "ويضرب أمثلة لذلك منها: " خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ ويعمد لقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن...

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. [ثلاث رسائل ٧٠ و ٧١]

الخطابي والرد على الطاعنين في القرآن الكريم:

قام الخطابي بذكر طائفة من اعتراضات الطاعنين في بلاغة القرآن ورد عليها على النحو الآتي :

❖ زعم الطاعنون "أن الغريب المشكل من القرآن بالنسبة إلى الكثير من واضحه قليل، وأن عدد الفقر والغرر من ألفاظه إلى مباله ومراسيله عدد يسير؛ فرد عليهم الخطابي بأن ما بينه من أوصاف بلاغة القرآن وما ذكره من شرائطها ما يسقط هذا السؤال، وأن الغرابة ليست مما شرطه في حدود البلاغة، وأنه "يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ولا يعرفون تقطيع الكلام وتزييله والتخير له".

❖ وزعموا أن العبارات الواقعة في القرآن ليست في أفصح وجوه البيان وأحسنها لوجود أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله [فَأَكَلَهُ الذُّنْبُ] [يوسف: ١٧]، وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً، يقال: اقترسه السبع هذا هو المختار الفصيح في معناها... وكقوله: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦] ولو قيل: بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن"، وكقوله ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلَاطِينِي﴾ [الحاقة: ٢٩] وإنما يستعمل لفظ الإهلاك في الأعيان... وكقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وأنت لا تسمع فصيحاً يقول: أنا شديد الحب لزيد، وإنما وضع الكلام أن يقال: أنا شديد الحب لزيد والمال ونحوه، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] ولا يقول أحد من الناس: فَعَلَ الزَّكَاةَ؛ إنما يقال: زَكَّى الرجل ماله، وأدى زكاة ماله...

وكقوله سبحانه: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢] إنما هو ردفه يردفه من غير إدخال اللام". [ثلاث رسائل ٣٤]

فرد عليهم الخطابي بقوله "إن وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني الآيات على ما تأولوه...؛ فأما قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾؛ فإن الافتراض معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعو على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه؛ فلم يترك مفصلاً ولا عظماً... والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى؛ فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل" [ثلاث رسائل ٣٧]. وأما قوله: ﴿إِنْ أَنْشَأُوا ضِرَافًا عَلَى الْهَيْكَلِ﴾ المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى، وذلك لأنها إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول، وذلك أشبه بالثبات والصبر الأمور به. " [ثلاث رسائل ٣٩ و ٤٠]

وأما قوله سبحانه: ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ فإن الهلاك في الأعيان وفي غيرها على سبيل الاستعارة، "وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة" كما في هذه الآية [ثلاث رسائل ٤٠]، "وأما قوله سبحانه سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فالشديد هاهنا معناه البخل. ويقال: رجل شديد ومتشدد، أي بخل... واللام في قوله سبحانه: ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ بمعنى لأجل حب الخير وهو المال لبخل" [ثلاث رسائل ٤٠ و ٤١]. "وأما قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ فمعنى الكلام مراد المبالغة في أداء الزكاة والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم؛ فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم، مضافاً إليهم يُعرفون به، فهم له فاعلون. وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة، فهي إذاً أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى"، "... "وأما قوله سبحانه: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ فإنهما لغتان فصيحتان: ردفه وردف له، كما تقول: نصحته ونصحت له" [ثلاث رسائل ٤١].

❖ وعابوا ما في القرآن من التكرار المضاعف كقوله في سورة الرحمن:

﴿فَأَيُّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾، وفي سورة المرسلات ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ
الْمُكْذِبِينَ﴾؛ فرد عليهم الخطابي بأن تكرار الكلام على ضربين: "أحدهما: مذموم: وهو ما كان مُستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى
لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنهم حينئذ يكون فضلا من القول ولغوًا،
وليس في القرآن شيء من هذا النوع. [ثلاث ٤٨]

والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة... وإنما يُحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويُخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها، والاستهانة بقدرها، وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل: "عجل عجل، وإرم إرم"، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب "مهم مهم مهم" ونحوها من الأمور. [ثلاث رسائل ٤٧ و٤٨]

ويبين الخطابي أن الله أخبر بالسبب الذي من أجله كرر الأفاضل والأخبار في القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] وقوله ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، وأن التكرار في سورة الرحمن سببه أن الله كلما ذكر نعمة من النعم على الإنس والجن جدد إقرارهم بها واقتضاهم الشكر عليها. وأن التكرار في سورة المرسلات سببه أن الله كلما ذكر حالا من أحوال يوم القيامة وأهوالها جدد الوعيد عنده؛ ليكون أبلغ وأؤكد لإقامة الحجة والإعذار.

❖ وزعموا أن سور القرآن لو رتبت حسب الأبواب والموضوعات؛ فتكون أخبار الأمم وأفاضلهم في سورة، والمواعظ والأمثال في سورة، والأحكام في سورة لكان ذلك أحسن في الترتيب، وأعون على الحفظ وأدل على المراد؛ فيرد عليهم الخطابي بقوله: "إنما أنزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء كثيرة مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائده وأعم، ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر

عائده فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد.. وقد أحب الله أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم في جمع المتفرق منه وفي تنزيله وترتيبه، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أوتوا العلم درجات". [ثلاث رسائل ٤٩ و ٥٠]

❖ وزعموا أن العرب لم يعارضوا القرآن؛ لأنهم كرهوا التطويل وأرادوا معاجلة النبي ﷺ بالهلاك، وقالوا كيف يتوهم العجز عليهم وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام، فلو كانوا أرادوه لسهل عليهم؛ فيرد عليهم الخطابي بأن القوم لم يعارضوه؛ لأنهم ليس في مقدورهم ولا وسعهم، ولو كان في وسعهم ما تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل؛ فهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب؛ فقد كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد يؤدهم ويتصدهم منه؛ لأنهم كانوا بطباعهم يتبينون مواضع إعجاز القرآن وهي أنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني، ويعرفون ما يلزمهم من شروط المعارضة ومن العُهدَة فيها، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها، فتركوها لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة بجهلهم». ولما عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه أو معارضته صاروا يقولون عن القرآن مرة إنه شعر لما رأوه كلاماً منظوماً، ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ولذا قال قائلهم: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان ٥]: مع علمهم أن صاحبه أُمِّي وليس بحضرته من يملئ أو يكتب، وقد حكى الله عن بعض مردتهم وشياطينهم - الوليد بن المغيرة - أنه لما طال فكره في أمر القرآن وكثر ضجره منه وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس لم يقدر على أكثر من قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا

قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿[المدثر: ٢٥]، عنادًا للحق وجهلاً به، وذهاباً عن الحجة وانقطاعاً دونها. وقد وصف ذلك من حاله وشدة حيرته؛ فقال سبحانه ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴿٢٣﴾ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهِمْ يُرِيدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر]. [ثلاث ٢٥ و ٢٦]

ثم يبين الخطابي أن جميع البشر يتعذر عليهم الإتيان بمثل القرآن لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبألفاظها التي هي ظروف تلك المعاني والحوامل لها، ولا تُدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون انتلافها وارتباط بعضها ببعض؛ فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله". [ثلاث ٢٦ و ٢٧]

✽ وزعموا أن العرب عارضوا القرآن، لكنه لم ينقل إلينا، وكتم خبره لما اتسع الإسلام، فانقطع رسمه ومحي أثره عن الخلائق؛ فيرد عليهم الخطابي بقوله: " [ثلاث ٥٠] هذا سؤال ساقط، والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس، وكيف يجوز عليهم في مثل هذا الأمر العظيم؟! " ثم يذكر الخطابي أن أخبار المعارضة معلومة، وأن من هذه المعارضات الفجة قول مسيلمة: "يا ضفدع نقي كم تنقن لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين"، [ثلاث ٥٠] وقول آخر: " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين شراسيف وحشا". وقول ثالث: "الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له مشفر طويل وذنب أثيل وما ذاك من خلق ربنا بقليل" [ثلاث ٥٠ و ٥١]، ثم يقول عما قال مسيلمة: "فمعلوم أنه كلام خال من الفائدة لا لفظه صحيح ولا معناه مستقيم.. وإنما تكلف هذا الكلام الغث؛ لأجل ما فيه من السجع ولخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر رضي الله عنه حين طرق سمعه: أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال" [ثلاث ٥١]، ثم يذكر أن رسول

الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمره ثم، قال عمرو: " فأقبلت حتى مررت على مسيلمة، فأعطاني الأمان، ثم قال لي: إن محمدًا أرسل في جسيم الأمر، وأرسلت أنا في المحقرات. فقلت: اعرض علي شيئاً مما تقول؟ فقال: يا ضفدع نقي، فإنك نعم ما تنقن، لا واردا تنفرين، ولا ماء تكدرين. ثم قال: يا دبر يا دبر، يدان وصدرا، وسائر خلقه حفر ونفر. ثم أتاه أناس يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض، فتسجى بقطيفة، ثم كشف رأسه، وقال: والليل الأدهم، والذنب الأضخم، ما جانبوا أبا مسلم من محرم. ثم تسجى، فقال: والليل الدامس، والذنب الهامس، ما حرمته رطباً إلا كحرمته يابس. قوموا فما أرى عليكم فيما صنعتم شيئاً. قال: قال عمرو فقلت: أما والله إنك لتعلم أنك من الكاذبين. قال: فتوعدني". [ثلاث ٥٢]

ثم يقول الخطابي عن قول صاحب الفيل وصاحب الحبل: "إن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور رأيه وقصر معانيه خالٍ من أوصاف المعارضات وشروطها، وإنما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه" ثم يقول لصاحب الفيل: "أين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به، وأين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت به من جهلك وضلالك افتتحت قولك "الفيل وما الفيل ما أدراك ما الفيل" فهولت وروعت وصعدت وصوبت ثم أخلفت ما وعدت وعلى ذكر الذنب والمشفّر اقتصرت... أما علمت أن مثل هذه الفاتحة تجعل لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهي الغاية كقول الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣﴾ فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة التي أسلفها وصدر الخطبة بها.. وأنت علفت هذا القول على دابة يدركها البصر في مدى اللحظة، ويحيط بها العلم في اليسير من مدة الفكر، ثم اقتصرت على عظيم ما فيه من العجب

على ذكر المشفر والذنب". [ثلاث ٦١]

ثم يقول الخطابي عن صاحب الحبلى "إن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام في موضع كلمة الإنعام حين قال: "ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى" وإنما تستعمل هذه اللفظة في العقوبات ونحوها كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].. وأما قوله: "أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى" فإنما تعاطى استراقاً من قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [يخرج من بين الصليب والتراب] [الطارق] ثم يقول: "فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجاً من بين الشراسيف والحشى حيث إن بين الرحم والشراسيف مسافة تمثلاً بقوله ﷺ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [٧] فغلط في الوصف وأخطأ في المعنى كما أبطل الدعوى". [ثلاث رسائل ٦٣ و٦٤]

✽ وعابوا ما في القرآن من الإيجاز ووصفوه بأنه مشكل مثل قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾؛ فيرد عليهم الخطابي بان الإيجاز في موضعه وحذف ما يستغنى عنه من الكلام من أنواع البلاغة؛ فقد حُذف الجواب لأن المذكور يدل عليه؛ فالمراد لكان هذا القرآن أو مثل هذا القرآن ونحوه، وأن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب في الحذف كل مبلغ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر". [ثلاث رسائل ٤٧]

✽ الرماني (٣٨٤هـ) ورسالته "النكت في إعجاز القرآن":

بدأ الرماني كتابه "النكت في إعجاز القرآن" ببيان وجوه إعجاز القرآن، فقال: إنها تظهر من سبع جهات وهى: ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة، والتحدى للكافة والصرفة، والبلاغة، والاخبار الصادقة عن الامور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة. [ثلاث رسائل ٦٩]

ثم قسم البلاغة إلى ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوساطة بين هاتين الطبقتين. وما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وعرف البلاغة بأنها إيصال

المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن. ثم قسم البلاغة إلى عشرة أقسام، وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل والتجانس والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان. ثم فسرهما بآبًا بآبًا نذكر حديثه عن بعضها: [ثلاث رسائل ٦٩]

قال عن الإيجاز: "الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة فالألفاظ القليلة إيجاز. والإيجاز على وجهين: حذف وقصر؛ **فالحذف** إسقاط كلمة للجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف"؛ فمن الحذف قوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ في الذكر، وما جاء في القرآن منه كثير كقوله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾؛ كأنه قيل: لكان هذا القرآن.

وأما **الإيجاز بالقصر** دون الحذف فهو أغمض من الحذف، وإن كان الحذف غامضاً للحاجة إلى العلم بالمواضع التي تصلح من المواضع التي لا تصلح "فمن ذلك: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ومنه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]... وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير. وقد استحسّن الناس من الإيجاز قولهم: القتل أنفى للقتل. وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز. وذلك يظهر من أربعة أوجه: أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة. أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة: منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله به، وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذي هو نظير: القتل أنفى للقتل - قوله تعالى: ﴿الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ والأول أربعة عشر حرفاً، والثاني عشرة حروف. وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة، فإن في قولهم: القتل أنفى للقتل تكريراً غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير

كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة. [ثلاث رسائل ٧٠: ٧٢]

وقال عن التشبيه: "التشبيه: التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل.

وذكر أن للتشبيه عدة وظائف هي:

١- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا يُقَعَرُ بِحَسْبِهِ الْظُّمَأُنْ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قيل: يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قد رأى لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لان الظمان أشد حرصا عليه، وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الابد في النار، نعوذ بالله من هذه الحال. وتشبيه أعمال الكفر بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة".

٢- إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَلَّ قَوْفَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة. وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدرات الله تعالى عند مشاهداته لذلك أو علمه به، ليطلب الفوز من قبله، ونيل المنافع بطاعته".

٣- إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها مثل قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا عَرِضَهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ففي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الامور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة.

٤- إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها؛ كقوله عز وجل:

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة فيها. وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم. وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الاقطار البعيدة فيها ".
[ثلاث رسائل ٧٤: ٧٨ بتصرف]

وقال عن الاستعارة: "الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة...، ولا بد في الاستعارة من مستعار ومستعار له، ومستعار منه. وكل استعارة لا بد لها من حقيقة، ومما جاء في القرآن من الاستعارة قوله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان] حقيقة قدمنا هنا: عمدنا. وقدمنا أبلغ منه؛ لأنهدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر؛ لأنهم أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرأهم على خلاف ما أمرهم. وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال. والمعنى الذي يجمعهما العدل؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل. القدوم أبلغ لما بينا. وأما هباء منثورا فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه حاسة إلى ما تقع عليه حاسة"، وقال عز وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر] حقيقة: بلغ ما تؤمر به. والاستعارة أبلغ من الحقيقة؛ لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاج. والتبليغ قد يضعف حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعهما الايصال، إلا أن الايصال الذي له تأثير كصدع الزجاج أبلغ. [ثلاث رسائل ٧٩ و ٨٠] وذكر أن الفرق بين التشبيه والاستعارة هو أن التشبيه على أصل الكلام، أما الاستعارة فهي على إخراج الكلام عن أصله في اللغة. [ثلاث رسائل ٧٩].

وقال عن التلاؤم: "التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف. والتأليف على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا؛ فالمتنافر كقول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قربَ قبرٍ حربٍ قبرُ

وذكروا أن هذا من أشعار الجن، لأنهما يتهايا لآحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتبع. وإنما السبب في ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف " وذكروا أن هذا من شعر الجن! وحروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده ثلاث مرات إلا بتتبع فيه!

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى- وهو من أحسنها -كقول الشاعر:

رمتني وسئُرُ الله بيني وبينها عشيةً أرامِ الناسَ رمي

والملائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بين لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف، على نحو الفرق بين المتلائم والمتنافر في الطبقة الوسطى. وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والاختلاف.

والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً " والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليه من حسن الصورة وطريق الدلالة. ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والظرف، وقراءته في أقبح ما يكون من الظرف والخط، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة... والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولة على اللسان، وحسنه في الاسماع، وتقبله في الطباع. فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات - ظهر الإعجاز للجيد الطباع، البصير بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما " . [ثلاث رسائل ٨٧ و ٨٨]

"وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد، أو القرب

الشديد، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال ولذلك وقع في الكلام الادغام والابدال". [ثلاث رسائل ٨٨]

وقال عن الفواصل: "الفواصل هي حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلته إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة، ومثله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً! وقبح ذلك وعييه بين لمن له أدنى فهم... وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إظهار المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها. [ثلاث رسائل ٨٩ و ٩٠]

وذكر الرماني أن الفواصل قد تقع على حروف متجانسة، كقوله تعالى: ﴿طه﴾ ^(١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ^(٢) إِلَّا نَذْكُرَ لِمَنْ يَخْشَى ^(٣) [طه: ١ - ٣] كما قد تقع على حروف متقاربة، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ^(٤) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ^(٥) [الفاتحة: ٣، ٤] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَجِيدَ﴾ ^(٦) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ^(٧) [ق: ١، ٢] [ثلاث رسائل: ٩٠].

وقال: "وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة لأنها تكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة. وأما القوافي فلا تحتل ذلك، لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة. وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافي، فلو بطل أحد الشئين خرج عن ذلك المنهاج، وبطل ذلك الحسن الذي له في الاسماع،

ونقصت رتبته في الأفهام. والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وإدائها في الآي بالنظائر بلاغة. [ثلاث رسائل ٩٠ و ٩١]

وقال عن التجانس: "التجانس هو بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة. وهو على وجهين: مزاجية، ومناسبة؛ فالمزاجية تقع في الجزاء كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاجية الكلام لحسن البيان". [ثلاث رسائل ٩١]

وقال عن المبالغة: "المبالغة هي الدلالة على كبر المعنى عتي جهة التغيير عن أصل اللغة. والمبالغة على وجوه: منها المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية، وذلك على أبنية كثيرة: منها فعلان وفعال وفعل، ومفعل ومفعال كرحمان " عدل عن راحم للمبالغة، ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل، لأنهيديل على معنى لا يكون إلا له، وهو معنى وسعت رحمته كل شيء". [٩٦]

الضرب الثاني: المبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة، كقوله ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

الضرب الثالث: إخراج الكلام مخرج الأخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقوله: ﴿فَأَنَّىٰ اللَّهُ بُنِيَٰ لَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] أي أتاهاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتيانا له على المبالغة". [ثلاث رسائل ٩٦]

الضرب الرابع: وهو إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة كقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

الضرب الخامس: وهو إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل، والمظاهرة في الحجاج. كقوله: ﴿وَلِئَا أُولِيَاكُمْ لَعَلَّ هٰذِي أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] [ثلاث رسائل ٩٧].

الضرب السادس: حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفِقُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧] وقوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص] كأنه قيل: لجاء الحق، أو لعظم الامر، أو لجاء بالصدق. كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفتيح. والحذف أبلغ من الذكر، لأن الذكر يقصر على وجهه، والحذف يذهب بالوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم، لما قد تضمنه من التفتيح ". [ثلاث رسائل ٩٧]

وبعد أن فرغ الرماني من تفسير أبواب البلاغة العشر، عاد إلى البيان عن الوجوه السبعة التي ذكرها في أول الكتاب، وهي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدى للكافة والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة. فقال: "وأما توفر الدواعي فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة، في واحد كان أو جماعة والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب الماء بحضرته، من جهة عطشه واستحسانه لشربه، وكل داع يدعو إلى مثله، وهو مع ذلك ممكن له، فلا يجوز أن لا يقع شربه منه حتى يموت عطشا لتوفر الدواعي على ما بينا. فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه، فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها. وأما التحدي للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إليها. وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة. وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة. وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول. وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية؛ فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دل على أنها من عند علام الغيوب؛ فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْجُونَ﴾ [الروم] وقوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر].... وأما نقض العادة... فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة في الحسن تفوق به كل طريقة... وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه

الجهة ؛ إذ كان سبيل فلق البحر، وقلب العصا حية، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلا واحداً في الإعجاز". [ثلاث رسائل ١٠٢ و ١٠٣]

وختم الرماني كتابه بالإجابة عن سؤال أورده، فقال: "فإن قيل: فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين، وهو عندكم معجز للجميع، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير؟ قيل له: لأن العرب كانت تقيم الاوزان والاعراب بالطباع، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الاوزان بالطباع، والعرب على البلاغة أقدر لما بينا من فطنتهم لما لم يفتن له المولدون من إقامة الاعراب بالطباع. فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز". [ثلاث رسائل ١٠٤]

الباقلائي (٤٠٣ هـ) وكتابه "إعجاز القرآن":

بدأ الباقلائي كتابه "إعجاز القرآن" ببيان أن الله تعالى حين ابتعث محمداً جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه في سور كثيرة وآيات منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١] فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة. وقوله ﷺ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه. ولا يكون حجة إلا وهو معجزة. [ص ٩]

وبين الباقلائي أن النبي ﷺ تحادهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طوال ثلاثة وعشرين عاما؛ فلم يأتوا بذلك. وقد ورد ما يدل على ذلك في القرآن في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ [فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ۝٢٤] [البقرة]... فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه، ودليلاً على وحدانيته... ومن ذلك

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعْتَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]...

فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله. "ويستدل على عجز العرب بمثل ما قاله الجاحظ من أحوال العرب؛ فقد تركوا السهل اليسير، وركبوا الصعب العسير؛ فبذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم. " ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله، وتفريق جمعه، وتشتيت أسبابه، وكان من صدق به يرجع على أعقابهم، ويعود في مذهب أصحابه. فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك، مع طول المدة، ووقوع الفسحة، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً، ويعلو شيئاً فشيئاً، وهم على العجز عن القدر في آيته، والطعن بما يؤثر في دلالة - علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرّون على معارضته، ولا على توهين حجته". [ص ٢١]

❖ وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني:

بعد أن ذكر الباقلاني بعض الطعون التي وجهت إلى النظم القرآني ورد عليها شرع في ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم بقوله: " ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز:

الوجه الأول: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣] ففعل ذلك. وكان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه. ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه". [ص ٣٣]

والوجه الثاني: أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من

كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبيائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه؛ فذكر في الكتاب، الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه. وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة. ثم جملاً من أمر ولده وأحواله وتوبته، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم. كذلك أمر إبراهيم عليه السلام إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين في القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء، صلوات الله عليهم. ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه، إلا عن تعلم، وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه - علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآتَابَ الْمُبْطِلِينَ﴾ [العنكبوت ٤٨]. [ص ٣٤]

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه. "وقد ذكر أن العلماء ذكروا هذا الوجه على هذه الجملة، ولم يفصلوا القول فيه، ومن ثم قام بتفصيله بعض التفصيل، ونكشف الجملة التي أطلقوها. وحرص حرصاً شديداً على بيان أن القرآن ليس من جنس كلام العرب رداً على من زعموا أنه "لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى.. وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد" [ص ٣١] وذكر عشرة وجوه أو معان للإعجاز منها :

المعنى الأول: "أن نظم القرآن على تصرف وجوه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. [ص ٣٥]

المعنى الثاني: "أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة،

والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة. والتشابه في البراعة، على هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف، والتجوز والتعسف. وقد حصل القرآن على كثرتة وطوله متناسباً في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشُورُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر ٢٣] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَيَذَرُوهَا كَعَجْفُونَ﴾ [النساء ٨٢] فأخبر سبحانه أن كلام الأديمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال". [ص: ٣٥]

المعنى الثالث: "وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة. وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع - يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور؛ فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأيين، ومنهم من يجود في التأيين دون التقريظ... [ص ٣٥]

المعنى الرابع: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما

ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع... وأن القرآن - على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف". [ص ٣٨]

المعنى الخامس: وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً. وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة. [الصحيح أنها تسع وعشرون سورة] وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً. ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم". [ص ٣٨]

وبين الباقلاني رأيه في كون البديع (البلاغة) وجهاً من وجوه الإعجاز بقوله: "وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه. وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمها. والوجوه التي تقول: إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال. ويبين ما قلنا: أن كثيراً من المحدثين قد تصنع لأبواب الصنعة، حتى حشى جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع أبو تمام في لاميته"، وبقوله: "لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه

بالتعلم والتدرب به والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحدق في البلاغة. وله طريق يسلك، ووجه يقصد، وسلم يرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه...". [ص: ١٠٧ و ١٠٨]

وذكر الباقلائي وجوه البلاغة العشرة التي اعتبرها- الرماني دون ذكر اسمه - من وجوه الإعجاز وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمنين، والمبالغة، وحسن البيان. ثم بين رأيه فيها؛ فرأى أن "منها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بالتعلم؛ فما كان كذلك؛ فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات؛ فذلك هو الذي يدل على إعجازه". [ص: ٢٧٥]

ثم يبين رأيه في كل منها واحدًا واحدًا؛ فقال عن التشبيه وموقعه من الإعجاز: "إن قلنا: ما وقع من التشبيه في القرآن معجز، عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار ما لا يخفى عليك، وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر، وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره، واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء". [ص: ٢٧٥]

وقال عن حسن البيان وموقعه من الإعجاز: "ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس، ولذلك قال: ﴿هَذَا يَأْتِي النَّاسَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿بَيْنَنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فكرر في مواضع جل ذكره: أنه مبين؛ فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهد". [ص: ٢٧٦]



ملخص الوحدة الأولى

عرضت الوحدة الأولى لبيان حال الصدر الأول مع بلاغة القرآن الكريم. ولبيان أسباب التأليف في إعجاز القرآن، وعرضت لأهم المؤلفات الأولى في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وبيان جهود مؤلفيها في بحث قضية الإعجاز، وهي:

- الجاحظ وكتابه "نظم القرآن" ..
- الخطابي ورسالته "بيان إعجاز القرآن".
- الرمانى ورسالته "النكت في إعجاز القرآن".
- الباقلاني وكتابه "إعجاز القرآن".

أسئلة على الوحدة الأولى



س١: اذكر أبرز الوجوه التي ذكرها الخطابي لإعجاز القرآن مبيّناً رأيه فيها.

س٢: اذكر ثلاثة من الكتب الأولى التي ألفت في إعجاز القرآن.

س٣: اذكر أبرز الوجوه التي ذكرها الرمانى لإعجاز القرآن.

س٤: اذكر أبرز وجوه إعجاز القرآن عند الجاحظ مع الحديث عن إحداها بالتفصيل.

س٥: اذكر أربعة مما ذكره الخطابي عن الطاعنين في القرآن مع ذكر رده عليها.

س٦: ما أسباب التأليف في إعجاز القرآن ؟



نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول:

وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها الخطابي وبين رأيه فيها:

❖ ذهب قوم إلى أن من وجوه إعجاز القرآن عجز العرب قاطبة وهم الفصحاء البلغاء عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه على الرغم من تحدي النبي ﷺ لهم طوال حياته، وعلى الرغم من مرور تطاول الزمان من بعثة الرسول إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه.

وبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: "وهذا أبينها دلالة وأيسر مؤونة، وهو مقتع لمن لم تتازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه".

❖ وذكر مذهب الصرفة وهو أن الله صرف الهمم عن معارضة القرآن وإن كان مقدورًا عليها وعلق عليه بقوله: "وهذا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء] فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة؛ فدل على أن المراد غيرها".

❖ وذكر أن طائفة زعمت "أن إعجازه إنما فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَاذِبُونَ﴾ [الروم] وغيره من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوها".

وبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بأن هذا "وما أشبهه من أخبار نوع من أنواع الإعجاز، لكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل الله في صفة كل سورة أن تكون معجزة في نفسها لا يقدر أحد من

الخلق أن يأتي بمثلها؛ فقال ﴿قَاتُوا سُورَةَ مِّن مِّنْهُ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة] من غير تعيين".

❖ وذكر أن هناك من زعموا "أن إعجازه من جهة البلاغة، وهمم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كلفتها يعرض الإشكال، وقد جرى عامة أهل هذه المقالة على نوع من التقليد وغلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن قالوا: لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر...، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده... وقالوا: وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به".

ويبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: "وهذا لا يُقنع في مثل هذا العلم، ولا يُشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل به على إبهام".

مصادر الوحدة الأولى

- أبو الحسن الأشعري- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق: نعيم زرزور- المكتبة العصرية، ٢٠٠٥.
- الباقلائي - إعجاز القرآن - تحقيق: السيد أحمد صقر- دار المعارف - مصر ١٩٩٧.
- عبد القاهر البغدادي - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية - دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٧.
- الجاحظ: البيان والتبيين - دار ومكتبة الهلال بيروت ٢٠٠٣.
- الحيوان - دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٤.
- رسائل الجاحظ - تحقيق: عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٤.
- أبو الحسين الخياط: الانتصار في الرد على ابن الراوندي الملحد- تحقيق: نيرج - الدار العربية ١٩٩٣.
- الخطابي - بيان إعجاز القرآن.
- الرماني - النكت في إعجاز القرآن.
- نُشر هذان المصدران في "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" تحقيق: د/ محمد خلف الله ود/ محمد زغلول سلام -طبعة دار المعارف د. ت
- الشعراوي- معجزة القرآن- المختار الإسلامي القاهرة ١٩٧٨، وقد ذكرنا أرقام الصفحات بعد كل نص نقلناه حتى لا نثقل البحث بالهوامش.



الوحدة الثانية

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلى:
- أ- تعريف الدارس بأهم نظرية في التراث البلاغي ألا هي نظرية النظم.
 - ب- تعريف الدارس بأن أساس بلاغة القرآن الكريم وسر إعجازه يكمن في نظمه.
 - ج- تقوية الحس البلاغي لدى الدارس عن طريق عرض تحليلي لبعض الآيات القرآنية والشواهد الشعرية، التي تتجلى فيها بلاغة النظم.

العناصر:

- ١- النظم قبل عبد القاهر.
 - ٢- مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني.
 - ٣- أبواب النظم.
 - ٤- أهم أسس نظرية النظم عند عبد القاهر:
 - أ- الفصاحة للنظم وليست للكلم المفردة أو المعاني.
 - ب- إعجاز القرآن يكمن في نظمه.
 - ج- أقسام الكلام الفصيح.
 - د- مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض.
 - هـ- اختلاف النظم معناه اختلاف المعاني والأغراض.
 - و- أنواع الكلام أو المعاني.
- مع التمثيل لبعض القضايا بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي.

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

النظم قبل عبد القاهر:

المنتبع لتراثنا البلاغي يجد أن مصطلح النظم من الصطلحات التي شاعت في القرن الثالث والرابع الهجريين خاصة عند علماء الكلام؛ ويجد أن هذا المصطلح جاء في عناوين عدة كتب منها: "الاحتجاج لنظم القرآن" للجاحظ، و"نظم القرآن" لعبد الله السجستاني، و"إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" لمحمد بن يزيد الواسطي، وكتاب "نظم القرآن" لكل من ابن أبي داود وابن الأخشيد وأبي زيد البلخي.

ويجد أن مصطلح النظم قد ورد عند كل من: ابن قتيبة، والخطابي وأبي هلال العسكري، والباقلاني، والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر البغدادي.

وإذا كان مصطلح النظم فيما يتعلق بالقرآن قد شاع قبل عبد القاهر شيوعاً كبيراً فإن القليل من العلماء جداً من عرض لببيان المراد منه، ومن أوائل هؤلاء الرماني حين قال في رسالته "النكت": "دلالة الأسماء والصفات متناهية، أما دلالة التأليف = النظم فليس لها نهاية ولهذا صح التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة - أي معجزة القرآن -، ولو قال قائل: قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن لأحد أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قبل - لكان ذلك باطلاً؛ لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يقف عندها".

ومنهم الخطابي الذي بين حين قال في رسالته "بيان إعجاز القرآن" أن الكلام يقوم "بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم" وقال "وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني، فبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه مع بعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان" [٢٤] فالنظم هو الرباط الذي يربط بين الألفاظ والمعاني.

ومنهم القاضي عبد الجبار الذي بين في كتابه المغني ج ١٦ (تحقيق أمين الخولي- وزارة الثقافة) أن النظم هو الطريقة التي يؤلف بها الكلام بقوله: "وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، ومختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة". [١٩٧]

وحين قال: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها". [١٩٩]

نظرية النظم عند عبد القاهر:

يعد عبد القاهر مؤسس نظرية النظم في البلاغة العربية، ولا غرو فقد أفاض عبد القاهر في بيان مفهوم النظم، وفي بيان الأسس التي يقوم عليها من خلال حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه الشهير "دلائل الإعجاز".

اطلع عبد القاهر على ما قاله القاضي عبد الجبار؛ فلم يشف له غلة، ولم يعجبه كثير منه، ولم يشأ التصريح باسم القاضي وأتباعه؛ فذكر في كتابه أن ما قاله العلماء في معنى "الفصاحة" وتفسير المراد بها، كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، "، ولذلك يقول في كتابه "دلائل الإعجاز" (تحقيق: محمود شاكر- دار المدني جدة) عن كلام القاضي السابق ذكره: "هذا صحيح كما قلتم، ولكن بقي أن تعلمونا مكان المزية في الكلام، وتصفوها لنا، وتذكروها ذكرا كما

ينص الشيء ويعين، ويكشف عن وجهه ويبين، ولا يكفي أن تقولوا: "إنه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض"، حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها، وتذكروها لها أمثلة، وتقولوا: "مثل كيت وكيت"،... ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة: "إنها خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها الفائدة، أو ما أشبه ذلك من القول المجمل، كافيًا في معرفتها، ومغنيًا في العلم بها، لكفى مثله في معرفة الصناعات كلها. فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير أن تعلم أنه ترتيب للغزل على وجه مخصوص، وضم لطايات الأبريسم بعضها إلى بعض على طرق شتى. وذلك ما لا يقوله عاقل". [٣٦]

يؤكد عبد القاهر على أن الفصاحة لا تكون إلا في النظم، الذي أطبق العلماء على تعظيم شأنه، وتفضيم قدره، والتنويه بذكره، "وأجمعوا" على أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ وبتهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال". [٨٠]

ثم يبين عبد القاهر المقصود بالنظم بقوله: "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها". وبقوله: "واعلم.. أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس". [٨١]

والمقصود بمعاني النحو عند عبد القاهر هو ما يسميه علماء اللغة المعاصرون المعاني الوظيفية؛ فمعاني النحو تشمل المعاني أو الوظائف النحوية والمعاني أو الوظائف الصرفية؛ أي وظائف الصيغ أو الأدوات أو ما إلى ذلك.

أبواب النظم أو مباحث علم المعاني:

بين عبد القاهر أبوابه النظم أو مباحث علم المعاني بقوله: "وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق"، و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد"، و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" و "زيد هو المنطلق"، و زيد هو منطلق". وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج" و "إن خرجت خرجت" و "إن تخرج فأنا خارج" و "أنا خارج إن خرجت" و "أنا إن خرجت خارج". وفي "الحال" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، و "جاءني يسرع"، و "جاءني وهو مسرع" أو "وهو يسرع" و "جاءني قد أسرع" و "جاءني وقد أسرع". فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، و بـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجملة" التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" ومن موضع "ثم"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل". ويتصرف في التعريف والتذكير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له". [٨١ و ٨٢]

أسس نظرية النظم:

قامت نظرية النظم عند عبد القاهر على عدة أسس أو ركائز من أبرزها:

أ - الفصاحة في النظم وليست في الكلم المفردة ولا في المعاني:

يبين عبد القاهر أن الفصاحة لا تكون إلا في النظم، الذي أطبق العلماء على تعظيم شأنه، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، "وأجمعوا" على أن لا فضل

مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ وبتهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به، وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال". [٨٠]

ويبين أن الكلمة المفردة لا قيمة لها في ذاتها بقوله "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة"، فقولهم "بالضم"، لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنييهما ؛ لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة، لكان ينبغي إذا قيل: "ضحك، خرج" أن يحدث في ضم "خرج" إلى "ضحك" فصاحة! وإذا بطل ذلك، لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توخي معنى من معاني النحو فيما بينهما. وقولهم: "على طريقة مخصوصة" يوجب ذلك أيضًا؛ وذلك أنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى. ويبين عبد القاهر أن "الألفاظ المفردة التي هو أوضاع اللغة، لم توضح لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد. وهذا علم شريف، وأصل عظيم". [٣٩٤]

ويستدل على ذلك بقوله: "هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبته على ما هي موسومة به، حتى يقال إن "رجلا" أدل على معناه من "فرس" على ما سمي به وحتى يتصور في الاسمين يوضعان لشيء واحد، أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر، فيكون "الليث" مثلا أدل على السبع المعلوم من "الأسد" وحتى إذا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية، ساغ لنا أن نجعل لفظة "رجل" أدل على الأدمي الذكر من نظيره في الفارسية؟

وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها

أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحدا يقول: "هذه اللفظة فصيحة"، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟". [٤٤]

ويؤكد عبد القاهر وجهة نظره بقوله: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتونسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليता وأخدعا

وبيت البحتري:

واني وإن بلغني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهر قوم من أخدعك فقد أضجبت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التبغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة. "ثم يقول: "فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحققت المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت غما أن تحسن أبدا، ولا تحسن أبدا". [٤٤: ٤٧]

ويبين عبد القاهر الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم بأن "نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب"، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى

فساد، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تتقي في نظمها آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيراً للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح. [٤٩]

ويذكر عبد القاهر ما يدل على بطلان أن تكون "الفصاحة" صفة للفظ غير ما سبق بقوله: "لا تخلو" الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب. فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة، لأنها لو كانت كذلك، لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً. وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة، فإننا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس، إلا دلالاته على معنى، وإذا كان كذلك، لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة، وصف له من جهة معناه، لا من جهة نفسه، وهذا ما لا يبقى لعاقل معه عذر في الشك" وقوله: "وهو أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] فإنه لا يجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره؛ فلو كانت "الفصاحة" "صفة للفظ" "اشتعل"، لكان ينبغي أن يحسها القارئ فيه حال نطقه به. فمحال أن تكون للشيء صفة، ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه. ومن ذا رأى صفة يعرى موصوفها عنها في حال وجوده، حتى إذا عدم صارت موجودة فيه؟ وهل سمع السامعون، في قديم الدهر وحديثه، بصفة شرط حصولها لموصوفها أن يعدم الموصوف؟ فإن قالوا: إن الفصاحة التي ادعيناها للفظ "اشتعل" تكون فيه في حال نطقنا به، إلا أنا لا نعلم في تلك الحال أنها فيه، فإذا بلغنا آخر الكلام علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين نطقنا به. قبل: هذا فن آخر من العجب، وهو أن تكون ههنا صفة موجودة في شيء، ثم لا يكون في الإمكان

ولا يسع في الجواز، أن يعلم وجود تلك الصفة في ذلك الشيء إلا من بعد أن يعدم، ويكون العلم بها وبكونها فيه محجوباً عنها حتى يعدم، فإذا عدم علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين كان. [٤٠٧ و ٤٠٨]

ويزيد عبد القاهر القضية تأكيداً بقوله: "وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة"، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لخواصها؟ وهل قالوا: "اللفظة متمكنة، ومقبولة"، وفي خلافه: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناه، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظة للتالية في مؤادها؟ وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود]؛ فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقرها إلى آخرها وأن الفضل نتائج ما بينها، وحصل من مجموعها؟

إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي"، واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ "يا" دون "أي"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة "الماء" إلى "الكاف"، بأن يقال: "ابلعي ماءك"، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يخصها، ثم أن قيل: ﴿وَفُضِيَ الْمَاءُ﴾ فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يغض إلا

بأمر أمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو ﴿وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم إضمار "السفينة" قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلاقتها، في ملازمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ. [٤٤ : ٤٦]

الفصاحة ليست في المعاني:

إذا كان عبد القاهر قد حمل على أنصار اللفظ حملة شعواء فقد حمل على أنصار المعنى حملة كبيرة فقال: "واعلم أن الداء الدوي، والذي أعيأ أمره في هذا الباب، غلط من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى يقول: "ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟". فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن مال إلى اللفظ شيئاً، ورأى أن ينحله بعض الفضيلة، لم يعرف غير "الاستعارة"، ثم لا ينظر في حال تلك "الاستعارة" أحسنت بمجرد كونها استعارة، أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين؟ لا يحفل بهذا وشبهه، قد قنع بظواهر الأمور، وبالجمل، وبأن يكون كمن يجلب المتاع للبيع، إنما همه أن يروج عنه". [٢٥١ و ٢٥٢]

وذكر عبد القاهر أنه لم ير "متقدماً في علم البلاغة، مبرزاً في شأوها، إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه، ويزري على القائل به ويغض منه". [٢٥٢] ومن ثم يقول: "واعلم أنك لست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة، وكلام جاء عن القدماء، إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب، ورأيهم يتشددون في إنكاره وعيبه والعيب

به. وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ، ويتشدد غاية التشدد، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركاً، وسوى فيه بين الخاصة والعامة فقال: "ورأيت ناساً يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في رواية غير بصير بجوهر ما يروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان. وأنا سمعت أبا عمرو الشيباني، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد الجامع يوم الجمعة، أن كلف رجلاً حتى أحضره قرطاساً ودواة حتى كتبهما. قال الجاحظ: وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخل في الحكومة بعض الغيب، لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أيضاً، وهما قوله:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت، ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

ثم قال: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير". فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني، وأبى أن يجب لها فضل فقال: "هي مطروحة في الطريق"، ثم قال: "وأنا أزعم أن ابن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً" فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه، لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة. وأعاد طرفاً من هذا الحديث في "البيان" فقال: "ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذكر، وربما خيل إلي أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً جيداً، لمكان أعرافهم من أولئك الآباء" ثم قال: "ولولا أن أكون عياباً، ثم للعلماء خاصة، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة". [٢٥٥: ٢٥٧]

ثم ذكر عبد القاهر ما يدل على بطلان كون الفصاحة للمعاني بقوله: "واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدي من حيث لا يشعر. وذلك أنه إن كان العمل على ما يذهبون إليه، من أن لا يجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدباً، واستخرج معنى غريباً أو تشبيها نادراً، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة، وفي شأن النظم والتأليف، وبطل أن يجب بالنظم فضل، وأن تدخله المزية، وأن تتفاوت فيه المنازل. وإذا بطل ذلك، فقد بطل أن يكون في الكلام معجز، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب، ودخل في مثل تلك الجهالات، ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار". [٢٥٧]

ب- إعجاز القرآن يكمن في نظمه:

يبين عبد القاهر أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه الذي أعجز العرب حين سماعه، وحين تحدوا إلى معارضته، فرازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريباً منه ؛ لأنهم لم يسمعوا كلاماً قط مثله، وأن ما أعجزهم من القرآن "مزايًا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرًا عشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتناماً، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول". [٣٩]

ويؤكد عبد القاهر على أن الوصف الذي تحدى به الرسول ﷺ العرب لا يجوز أن يكون إلا في النظم، وعلى أن الإعجاز لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في مذاقة حروفها وأصداها أوصاف لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها أقبل السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن. [٣٨٦]

ولا يجوز أن يكون الإعجاز في "معاني الكلم المفردة"، "التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى "الحمد" و"الرب"، ومعنى "العالمين" و"الملك" و"اليوم" و"الذين"، وهكذا، وصف لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من الحال وأشنع لكان إياه. ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في "ترتيب الحركات والسكنات"، حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به: القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في: "إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر"، "والطاحنات طحناً". [٣٨٦ و٣٨٧]

ولا يجوز أن يكون الإعجاز في المقاطع والفواصل؛ "لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن. وإنما الفواصل في الآي كالفوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي، لم يعوزهم ذلك، ولم يتعذر عليهم. وقد خيل إلى بعضهم إن كانت الحكاية صحيحة شيء من هذا، حتى وضع على ما زعموا فصول كلام أواخرها كأواخر الآي، مثل "يعلمون" و "يؤمنون" وأشباه ذلك." ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللسان. [٣٨٧]. ولا يمكن أن تجعل "الاستعارة" الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة. [٣٩١]

ولا يجوز أن يكون الإعجاز في غريب اللغة؛ لأنه "لا يخلو إذا وقع التحدي به من أن يتحدى من له علم بأمثاله من الغريب، أو من لا علم له بذلك. فلو تحدي به من يعلم أمثاله، لم يتعذر عليه أن يعارضه بمثله. ألا ترى أنه لا يتعذر عليك إذا أنت عرفت ما جاء من الغريب في معنى "الطويل" أن تعارض من يقول: "الشوقب"، بأن تقول أنت "الشوذب"، وإذا قال: "الأمق" أن تقول: "الأشق"؟. وعلى هذا السبيل. ولو تحدى به من لا علم له بأمثال ما فيه من الغريب، كان ذلك بمنزلة أن يتحدى العرب إلى أن يتكلموا بلسان الترك. ثم يقول: "كيف يدخل الغريب في باب الفضيلة؟! وقد ثبت عنهم أنهم كانوا يرون الفضيلة في ترك استعماله وتجنبه؟ أفلا ترى إلى قول عمر رضي الله عنه في زهير: "إنه كان لا يعاقل بين القول، ولا يتتبع حوشي الكلام"؟ فقرن تتبع "الحوشي" وهو الغريب من غير شبهة إلى "المعاظلة" التي هي التعقيد. وقال الجاحظ في "كتاب البيان والتبيين" بعد أن ذكر بعض الألفاظ الغريبة من رسالة يحيى بن يعمر على لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج: "وإن كانوا إنما قد رروا هذا الكلام لكي يدل على فصاحة وبلاغة؛ فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة". [٣٩٧ و ٣٩٨]

ج - أقسام الكلام الفصيح:

قسم عبد القاهر الكلام الفصيح قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم؛ فالقسم الأول: "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل الكائن على حد الاستعارة"، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي، أوجب الفضل والمزية. فإذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، كان له موقع وحظ من القبول لا يكون إذا قلت: "هو كثير القرى والضيافة"... وكذا إذا قلت: "رأيت أسدا"، كان له مزية لا تكون إذا قلت: "رأيت رجلا يشبه الأسد ويساويه في الشجاعة".... وكذلك إذا قلت: "ألقى حبله على غاربه"، كان له مأخذ من القلب لا يكون إذا قلت: "هو كالبعير الذي يلقي

حبله على غاربه حتى يرعى كيف يشاء ويذهب حيث يريد". لا يجهل المزية فيه إلا عديم الحس ميت النفس، وإلا من لا يكلم، لأنه من مبادئ المعرفة التي من عدمها لم يكن للكلام معه معنى". [٤٢٩ و ٤٣٠]

والقسم الثاني: وهو الذي تكون فصاحته في النظم، وذلك أن "النظم"، كما بينا، إنما هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله، وليست معاني النحو معاني ألفاظ، فيتصور أن يكون لها تفسير. وجملة الأمر، أن "النظم" إنما هو أن "الحمد" من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّحَمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مبتدأ، و"الله" خبره، و"رب" صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى "العالمين" و"العالمين" مضاف إليه، و﴿الرُّحَمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفتان كالرب، و"مالك" من قول: ﴿تِلْكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ صفة أيضاً، ومضاف إلى يوم. و"يَوْمٍ" مضاف إلى "الدين"، و﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير اسم الله تعالى، وهو ضمير يقع موقع الاسم إذا كان الاسم منصوباً، معنى ذلك أنك لو ذكرت اسم الله مكانه لقلت: "الله تعبد"، ثم إن ﴿تَعْبُدُ﴾ هو المقتضي معنى النصب فيه، وكذلك حكم ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معطوف بالواو على جملة ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ و﴿الضَّرِطَّ﴾ مفعول، و﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ صفة للضراط، و﴿صِرَطَ الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الضَّرِطَّ﴾ الْمُسْتَقِيمَ و﴿أَنْفَعَتِ عَلَيْهِمْ﴾ صلة الذين ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ صفة ﴿الَّذِينَ﴾ ﴿الضَّالِّينَ﴾ معطوف على ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ فانظر الآن هل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون "الحمد" مبتدأ معنى لفظ "الحمد"؟ أم يكون كون "رب" صفة وكونه مضافاً إلى "العالمين" معنى لفظ "الرب"؟". [٤٥٢]

د- مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض:

يبين عبد القاهر أن وإذ قد عرفت أن مزايا النظم "ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض،

واستعمال بعضها مع بعض. تفسير هذا: أنه ليس إذا راقك التذكير في "سودد" من قوله؛ أي البحتري: "تنقل في خلقي سودد" وفي "دهر" من قوله؛ أي إبراهيم بن العباس: "قلو إذ نبا دهر"، فإنه يجب أن يروك أبدأ وفي كل شيء ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يسم فاعله في قوله "وأنكر صاحب"، فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك ههنا بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم. وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفاس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم". [٨٧ و ٨٨]

وبيين عبد القاهر أن النمط العالي والباب الأعظم من النظم، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه، "هو ما تتحد أجزاءه حتى يوضع وضعًا واحدًا، ويذكر أن مما ندر منه ولطف مأخذه، ودق نظر واضعه، وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق، وغاية يعيى من قبلها المذاكي الفرح الأبيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين، كبيت امرئ القيس: [٩٥]

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها الغناب والحشف البالي

هـ - اختلاف النظم معناه اختلاف المعاني والأغراض:

ذهب عبد القاهر إلى أن الاتحاد في الأشياء المادية ممكن، لكنه غير ممكن في الكلام؛ "لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر، أو فصل من النثر، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور. ولا يغرّنك قول الناس: "قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على

وجهه"، فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول، حتى لا تعقل وهنا إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشنفين ففي غاية الإحالة، وظن يفضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة، وهي أن تكون الألفاظ مختلفة المعاني إذا فرقت، ومتفقتا إذا جمعت وألف منها كلام. وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو "قعد" و "جلس"، ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر، نحو أن تنتظر في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة ١٧٩]، وقول الناس: "قتل البعض إحياء للجميع"، فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا: "إنهما عبارتان معبرهما واحد"، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر". [٢٦١]

ومن ثم عقد عبد القاهر فصلاً لبيان الفرق بين الخبر الذي هو جزء من الجملة، والخبر الذي ليس بجزء من الجملة، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له، كالحال والصفة. وفصلاً لبيان الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل، وفصلاً لبيان الفرق بين الخبر إذا كان صفة مشبهة، وإذا كان فعلاً، وفصلاً لبيان الفرق بين الخبر إذا كان فعلاً، وبينه إذا كان اسماً. وفصلاً لبيان الفروق بين الحال، وفصلاً لبيان الفرق بين إنما وما وإلا، ووازن بين العبارات المتشابهة في مبحث القصر.

يقول عبد القاهر في بيان الفرق بين الخبر إذا كان بالاسم، وإذا كان بالفعل: "موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد شيئاً بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء". فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك:

"زيد طويل"، و "عمرو قصير": فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه. وإن شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلفظ، فتأمل هذا البيت:

لا يألف الدرهم المضروب خرقتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: "لكن يمر عليها وهو ينطلق"، لم يحسن. وإذا أردت أن تعتبره حيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه"، لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئا فشيئا. ولا فرق بين "وكلبهم باسط"، وبين أن يقول: "وكلبهم واحد" مثلا، في أنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب. [١٧٤ و ١٧٥]

وبين عبد القاهر الفرق بين "زيد منطلق" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد"، بقوله: "اعلم أنك إذا قلت: "زيد منطلق"، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيد ذلك ابتداء. وإذا قلت: "زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره. والنكتة أنك تثبت في الأول الذي هو قولك: "زيد منطلق" فعلا لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وتثبت في الثاني الذي هو "زيد المنطلق" فعلا قد علم السامع أنه كان، ولكنه لم يعلمه

لزيد، فأفدته ذلك. فقد وافق الأول في المعنى الذي له كان الخبر خبرا، وهو إثبات المعنى للشيء. وليس يقدر في ذلك أنك كنت قد علمت أن انطلاقا كان من أحد الرجلين، لأنك إذا لم تصل إلى القطع على أنه كان من زيد دون عمرو، وكان حالك في الحاجة إلى من يثبت زيدا، كحالك إذا لم تعلم أنه كان من أصله". [١٧٧]

وبيّن عبد القاهر الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر ٢٨] وما إذا قيل: إنما يخشى العلماء الله، بقوله: "في تقديم اسم الله عز وجل معنى خلاف ما يكون لو آخر، وإنما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في "ما" و "إلا"، وحصلت الفرق بين أن تقول: "ما ضرب زيدا إلا عمرو"، وبين قولك: "ما ضرب عمرو إلا زيدا". والفرق بينهما أنك إذا قلت: "ما ضرب زيدا إلا عمرو"، فقدمت المنصوب، كان الغرض بيان الضارب من هو، والإخبار بأنه عمرو خاصة دون غيره وإذا قلت: "ما ضرب عمرو إلا زيدا"، فقدمت المرفوع، كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه "زيد" خاصة دون غيره. وإذا قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية، وإذا اعتبرت بها علمت أن تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو آخر ذكر اسم الله وقدم "العلماء" ففيل: "إنما يخشى العلماء الله"، لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضا، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى". [٣٣٩]

ويروي عبد القاهر عن ابن الأنباري "أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في

أي وضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: "عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل وقوله: "إن عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال: فما أحرار المتفلسف جواباً. وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض، فما ظنك بالعامّة، ومن هو في عداد العامّة، ممن لا يخطر شبه هذا بباله؟" [٣١٥]

ثم يبين عبد القاهر الفرق بين دخول (إن) وعدم دخولها بقوله: "واعلم أن ههنا دقانق لو أن الكندي استقرى وتصفح وتتبع مواقع "إن"، ثم ألطف النظر وأكثر التدبر، لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل. أول ذلك وأعجبه ما قدمت لك ذكره في بيت بشار:

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النِّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

وما أنشدته معه من قول بعض العرب:

فَغَنَّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحَدَاءُ

وذلك أنه هل شيء أبين في الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل، أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحداً، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر؟

هذه هي الصورة، حتى إذا جئت إلى "إن" فأسقطتها، رأيت الثاني منهما قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيت أنه لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل، حتى تجيء "بالفاء" فتقول: "بكرًا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير"، و "غناها وهي لك الفداء، فغناء الإبل الحداء"، ثم لا ترى "الفاء" تعيد الجملتين إل ما كانتا عليه من الألفة، ولا ترد عليك الذي كنت تجد "بإن" من

المعنى. وهذا الضرب كثير في التنزيل جدًّا، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ٣١٥ و ٣١٦]. وبقوله: "ومن خصائصها- أي إن- أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللفظ ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠]... ومن ذلك قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦] وأجاز أبو الحسن فيها وجهًا آخر وهو أن يكون الضمير في "إنها" للأبصار، أضمرت قبل الذكر على شريطة التفسير. والحاجة في هذا الوجه أيضا إلى "أن" قائمة، كما كانت في الوجه الأول فإنه لا يقال: "هي لا تعمي الأبصار" كما لا يقال: "هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع". [٣١٧]

و- أنواع المعاني: المعاني الأول والمعاني الثواني:

قسم عبد القاهر الكلام إلى ضربين: "ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن "زيد" مثلا بالخروج على الحقيقة، فقلت: "خرج زيد"، وبالانطلاق عن "عمرو" فقلت: "عمرو منطلق"، وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"... أو لا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، أو قلت: "طويل النجاد"، أو قلت في المرأة: "نؤوم الضحى"، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيًا هو غرضك، كمعرفتك من "كثير رماد القدر" أنه مضيف، ومن "طويل النجاد" أنه طويل القامة، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها. وكذا إذا قال: "رأيت أسدا"، وذلك الحال على أنه لم يرد

السبع، علمت أنه أراد التشبيه، إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الأسد في شجاعته. كذلك تعلم من قوله: "بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"، أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه، على ما مضى الشرح فيه. وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و "بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسرت لك.؛ "فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي والحلي وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تكسى تلك المعارض، وتزين بذلك الوشي والحلي". [٢٦٢: ٢٦٤]

وقد عقد عبد القاهر فصلاً بعنوان: "في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره" جاء فيه قوله: "اعلم أن لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: "الكناية" و "المجاز". والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد"، يريدون طويل القامة "وكثير رماد القدر" يعنون كثير القرى وفي المرأة: "نؤوم الضحى"، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها [٢]، فقد أرادوا في هذا كله، كما ترى، معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثرت القرى كثرت رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى.

وأما "المجاز"، فقد عول الناس في حده على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو "مجاز"، والكلام في ذلك يطول، وقد ذكرت ما هو الصحيح

من ذلك في موضع آخر، وأنا أقتصر ههنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر. والاسم والشهرة فيه لشيئين: "الاستعارة" و "التمثيل". وإنما يكون "التمثيل" مجازا إذا جاء على حد "الاستعارة". فالاستعارة: أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجريه عليه. تريد أن تقول: رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: "رأيت أسدا". وضرب آخر من "الاستعارة"، وهو ما كان نحو قوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

هذا الضرب، وإن كان الناس يضمونه إلى الأول حيث يذكرون الاستعارة، فليسا سواء. وذلك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء ليس به، وفي الثاني للشيء الشيء ليس له. تفسير هذا: أنك إذا قلت: "رأيت أسدا"، فقد ادعيت في إنسان أنه أسد، وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدا. وإذا قلت: "إذا أصبحت بيد الشمال زمامها"، فقد ادعيت أن للشمال يدا، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد.

"وأما "التمثيل" الذي يكون مجازا لمجئك به على حد الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: "أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى" فالأصل في هذا: أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام، وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة، كما كان الأصل في قولك: "رأيت أسدا" رأيت رجلا كالأسد، ثم جعل كأنه الأسد على الحقيقة. وكذلك تقول للرجل يعمل في غير معمل: "أراك تتفخ في غير فحم، وتخط على الماء"، فتجعله في ظاهر الأمر كأنه ينفخ ويخط، والمعنى على ذلك أنك في فعلك كمن يفعل ذلك، وتقول للرجل يعمل الحيلة حتى يميل صاحبه إلى الشيء قد كان يأباه ويمتنع منه: "ما زال يقتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد"، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه قتل في ذروة وغارب، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء إلى البعير

الصعب فيحكه ويفتل الشعر في ذروته وغاربه، حتى يسكن ويستأنس، وهو في المعنى نظير قولهم: "فلان يقرد فلانا" يعنى به أن يتطلف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذه ذلك، فيسكن ويثبت في مكانه حتى يتمكن من أخذه، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحووا فيه نحو التمثيل، ثم لم يفصحوا بذلك، وأخرجوا اللفظ مخرجه إذا لم يريدوا تمثيلاً". [٦٦ : ٦٩]



ملخص الوحدة الثانية

تحدثت هذه الوحدة عن أهم نظرية ظهرت فى الفكر البلاغى، وهى نظرية النظم، التى تحددت فى ضوءها زاوية الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم، متناولة المهاد الزمانى الذى نشأت فيه، ثم تمامها عند عبد القاهر الجرجانى وقد جاء العرض لهذه النظرية بتقديم مفهومها، وأسسها عند عبد القاهر وهى:

- أ - الفصاحة للنظم وليست للكلم المفردة أو المعاني.
 - ب- إعجاز القرآن يكمن في نظمه.
 - ج- أقسام الكلام الفصيح.
 - د - مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض.
 - هـ - اختلاف النظم معناه اختلاف المعاني والأغراض.
 - و - أنواع الكلام أو المعاني.
- مع التمثيل لبعض القضايا بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي.



أسئلة على الوحدة الثانية

- س١: تحدث عن مصطلح النظم لدي العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني.
- س٢: الفصاحة ليست في اللفظة المفردة إنما هي في النظم.
- ما الأدلة التي ذكرها عبد القاهر لبيان ذلك؟
- س٣: رفض عبد القاهر أن يكون إعجاز القرآن في غير النظم؛ فما الوجوه التي ذكرها وما أسباب رفضه لها ؟
- س٤: بين المقصود بمصطلح النظم لدى عبد القاهر مع التمثيل لما تقول.
- س٥: اختلاف النظم يؤدي إلى اخلاف المعاني والأغراض.
- اشرح هذه العبارة مع التمثيل لما تقول.
- س٦: يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَلْبَعَى مَاءُكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَعَى وَغِيضَ أَلْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود]
- بين تحليل عبد القاهر لهذه الآية في ضوء نظرية النظم.



نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول:

بين عبد القاهر المقصود بالنظم بقوله: "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها". وبقوله: "واعلم.. أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس".

والمقصود بمعاني النحو عند عبد القاهر هو ما يسميه علماء اللغة المعاصرون المعاني الوظيفية؛ فمعاني النحو تشمل المعاني أو الوظائف النحوية والمعاني أو الوظائف الصرفية؛ أي وظائف الصيغ أو الأدوات أو ما إلى ذلك. وبين عبد القاهر أبوابه النظم أو مباحث علم المعاني بقوله: "وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق"، و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد"، و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" و "زيد هو المنطلق"، وزيد هو منطلق". وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج" و "إن خرجت خرجت" و "إن تخرج فأنا خارج" و "أنا خارج إن خرجت" و "أنا إن خرجت خارج". وفي "الحال" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، و "جاءني يسرع"، و "جاءني وهو مسرع" أو "وهو يسرع" و "جاءني قد أسرع" و "جاءني وقد أسرع". فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك خاص معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، و بـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا

يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجمل" التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" ومن موضع "ثم"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل". ويتصرف في التعريف والتذكير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.



الوحدة الثالثة بلاغة اللفظة القرآنية

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- ١- الإيقاف على بلاغة اللفظ و قيمته الفنية في القرآن الكريم وبيان إعجازه واتساع دلالاته.
 - ٢- الإيقاف على:
 - بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام.
 - بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المشترك اللفظي.
 - بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المتواطئ .
 - بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين الحقيقة أو المجاز.
 - بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.
 - ٣- تقوية الحس البلاغي لدى الدارس بتحليل عدد من الألفاظ القرآنية المشتملة على المعاني الثرة المطابقة لمقامها وسياقها.

العناصر:

- ١- تمهيد عن بلاغة اللفظ القرآني.
- ٢- بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام.

- ٣- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المشترك اللفظي.
- ٤- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المتواطئ.
- ٥- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز.
- ٦- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.

تمهيد:

لعل هذا النوع من الإعجاز يعد أبرز أنواع الإعجاز على الإطلاق؛ ولذا فقد توفرت عليه الدراسات حول إعجاز القرآن الكريم – في القديم والحديث. ونقصد به: دقة اختيار القرآن الكريم لألفاظه ذات الدلالة المعجمية المطابقة لسياقها ومقامها أتم المطابقة؛ بحيث لا يصلح أن تحل كلمة مكان تلك الكلمة القرآنية المختارة لسياقها.

ومن ثم يقرر أحد العارفين بإعجاز اللفظ القرآني أن " كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد".^(١)

ومن أهم مظاهره:

- بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسباته للسياق والمقام.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المشترك اللفظي.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المتواطئ.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.

وسوف أعرض هنا لكل واحدة من هذه الظواهر بشيء من التفصيل:
بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبتها
للسياق والمقام:

فمن ذلك المفاضلة بين كلمتي: (تستأنسوا - تستأذنوا):
فقد وردت كلمة تستأنسوا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا
بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحمل من المعاني والظلال المناسبة لهذا
السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو - على الأصح
- مقاربة لها، مثل: (تستأذنوا) التي فسرها بها جمع من المفسرين.
"قال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى
تستأذنوا" (٢).

وقال الألوسي: "﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي تستأذنوا من يملك الإذن من
أصحابها" (٣).

وقال مجاهد: "﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: تتحنوا - أو تتخّموا" (٤).
غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكنتا الكلمتين (تستأنسوا -
تستأذنوا) - أو الكلمات الأخرى التي فسرت بها الكلمة باعتبارها من لوازم
الاستئناس - تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دونها.

قال الزمخشري: "﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه وجهان:
أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي
يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من
خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس، فالمعنى: حتى يؤذن لكم
كقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٣]
وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأنّ هذا النوع من الاستئناس
يردّف الإذن. فوضع موضع الإذن.

والثاني: أن يكون من الاستثناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً. والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً، أي: تعرفت واستعلمت..

وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: قلنا: يا رسول الله، ما الاستثناس؟ قال: " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحج: يؤذن أهل البيت. والتسليم أن يقول: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلا رجع " (٥) .

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالاً كثيرة ، وأنها لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحج والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأُنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت، وأنها تحقق الأُنس والائتناس بين الطرفين (الزائر والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا ۚ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾ [النور: ٢٨].

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له: ارجع. "إن الاستثناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلاً: (استأنس الشرطيُّ، أو جابي الضرائب، أو الدائن) إنما هو الاستئذان، ليس منه حسُّ إيناس، كما لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق، أو سماع هزيم رعد، وزئير وحش) (٦).

ومن ذلك الفرق بين الإيمان والتصديق:

وذلك كما في إثبات كلمة مؤمن على نظائرها مثل موقن ومصديق ونحوهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]؛ حيث تفيد من المعنى ما لا تفيد لو قال: (بمصدق لنا ولو كنا صادقين)، وذلك لأن قوله: (بمؤمن لنا)، أي: لست مصدقاً لنا تصديق يقين واطمئنان وركون لما نقول حتى لو علمت أن كلامنا يوافق الواقع، فلو أنه جاء بلفظة (بمصدق) بدل لفظة (بمؤمن)؛ لذهب هذا المعنى، مع أن اللفظتين تشتركان في معنى التصديق. فمن ثم نلاحظ أن المعنى هنا يتركب من عدة أجزاء هي مفردات الدلالة الكلية لهذه الكلمة؛ ومن ثم فإن دلالة هذه الكلمة (مؤمن) تتركب من هذه المفردات: [مصدق - موقن - مطمئن - راكن] فليس إذا ثمة تعدد حقيقي للمعنى؛ إذ إن معنى الكلمة لا يصدق على كل واحد من هذه المفردات؛ بل لا يصدق إلا على مجموعها، أي: يصدق عليها مجتمعة لا منفردة.

ومن ثم فإن ما يبدو من مثل هذا النوع على أنه من تعدد المعنى ليس تعدداً في الحقيقة، وإنما هذه المفردات المذكورة إنما هي أجزاء المعنى المتركب من تلك الأجزاء؛ فلأجل ذلك سميته باتساع المعنى أو بالتعدد الشكلي في مقابل التعدد الحقيقي.

ومن ذلك كلمة العرف ونظائرها من الحق والخير والخلق الحسن وكريم الخصال... الخ.

قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فكلمة (العرف) مثلاً هي من جوامع الكلم التي لا نستطيع أن نفاضل بينها وبين غيرها من الكلم، ولا نجد كلمة تسد مسدها في عموم معانيها؛ وذلك لأنها تتواطأ وتتوارد على كثير من المعاني؛ فهي من المتواطئ الذي يحمل على العديد من المعاني؛ ولذا قال أبو جعفر بعد تعداد طائفة من تفسير العلماء لبعض ما تشتمل عليه من المعاني:

"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالعرف - وهو المعروف في كلام العرب - مصدر في معنى: "المعروف".

يقال: "أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: "المعروف".

فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض" (٧).

ومن ذلك الفارق بين: الضعف والضعف والوهن والاستكانة:

يقول أبو هلال العسكري في "الفروق":

" ٣١٦ - الفرق بين الضعف والضعف: أن الضعف بالضم يكون في الجسد خاصة وهو من قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] والضعف بالفتح يكون في الجسد والرأي والعقل يقال في رأيه ضعف ولا يقال فيه ضعف كما يقال في جسمه ضعف وضعف.

٣١٧ - الفرق بين الضعف والوهن: أن الضعف ضد القوة وهو من فعل الله تعالى كما أن القوة من فعل الله تقول خلقه الله ضعيفا أو خلقه قويا، وفي القرآن ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] والوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف تقول وهن في الأمر يهن وهنا وهو واهن إذا أخذ فيه أخذ الضعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوياء على ما تطلبونه بتدليل الله إياه لكم، ويدل على صحة ما قلنا أنه لا يقال: خلقه الله واهنا كما يقال: خلقه الله ضعيفا، وقد يستعمل الضعف مكان الوهن مجازا في مثل قوله تعالى:

﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] أي لم يفعلوا فعل الضعيف، ويجوز أن يقال إن الوهن هو انكسار الحد والخوف ونحوه، والضعف نقصان القوة.

وأما الاستكانة فقليل هي إظهار الضعف قال الله تعالى ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ أي لم يضعفوا بنقصان القوة ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة، قال الخليل: إن الوهن: الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم ونحوه" (٨).

ومن خلال ما سبق نقله عن أبي هلال نتبين أن الضعف يكون في الجسد والعقل والرأي، أما الضعف بالضم فلا يكون إلا في الجسد، ومن هنا جاءت القراءات بالفتح والضم (خلقكم من ضعف) (وضُعف).

أما الوهن فيفهم من كلام أبي هلال في قوله يفعل فعل الضعيف وأنه انكسار الحد والخوف ونحوه؛ فهذا يدلنا على أن الوهن إنما يراد به ضعف العزم لا ضعف الجسد، فهو انكسار في النفس يتبعه ضعف في الهمة والعمل. أما الاستكانة: فهي إظهار الضعف والركون إليه والميل إلى الدعة والتخاذل.

ومن ثم نستطيع أن ندرك الفروق بين هذه الألفاظ القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

كما نستطيع أن نفهم كذلك بلاغة القرآن في نظم هذه الألفاظ وترتيبها؛ حيث بدأ بنفي الوهن وهو ما يرجع إلى ضعف النفس والعزيمة، ويتسبب عنه الضعف عن العمل، ثم أتبعه نفي الضعف وهو ضعف الجسد الظاهر عن العمل الناتج عن وهن العزائم، ثم أتبعه نفي الاستكانة والمراد منه بيان قوة التحمل وعدم إظهار ما ألم بهم من أذى العدو مما يسبب ضعف قوتهم فتحاملوا على أنفسهم ولم يبدوا شيئاً من أمارات الضعف أو الوهن، ولا ركنوا لما نزل بهم من

الهزيمة ولا رضوا به ولا استكانوا إليه؛ بل أظهروا خلاف ذلك قوة وجلدا وصبرا في النزال والقتال؛ فاستحقوا لذلك محبة الله والله يحب الصابرين.

ومن ذلك أيضا: سبل - فجاج:

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَ سُبُلًا لَلْعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) وَعَلَّمَنِي وَيَالْتَجِمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ [النحل: ١٥ - ١٦].

وقال أيضا ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣١) [الأنبياء: ٣١].

وقال أيضا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠) [الزخرف: ١٠].

وقال أيضا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩) لَيْسَلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ [نوح: ١٩ - ٢٠].

وقال أيضا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٤﴾ [طه: ٥٣ - ٥٤].

قوله: سُبُلًا تدل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي أسلك فيها سبلاً، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض، أي داخله فيها، أي متخللة. وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض.

والمراد بالسبل: كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل الناس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابع الناس السير فيها ^(٩).

قال القرطبي: "السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين" ^(١٠).

قال الزمخشري في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ

تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ [الأنبياء: ٣١] [فجاجاً] الفج: الطريق الواسع. فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿٢٠﴾ [نوح: ٢٠] قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً كقوله:

لِعَزَّةٍ مُّوحِشًا طَلًّا قَدِيمٌ... فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة "(١١).

ومن خلال ما سبق نتبين أن السبل وهي جمع سبيل هي طريق ممتد ممهد وهو مظنة اهتداء السالك له إلى حيث يقصد إذا قصد إلى سواء السبيل ولم يتعوج يمينا وشمالا، وهي حيث وردت مفردة في القرآن وردت في سياق مظنة الهدى فهي كثيرا ما تضاف إلى الله تعالى في القرآن فيقال: سبيل الله.

ويرشح لما قلنا ويؤكد اقترانها بالهداية في المواضع السابقة كما في الآيات الثلاثة الأولى.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمْنَا وِبَالَتَجِيمٍ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ [النحل: ١٦].
﴿فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [الأنبياء: ٣١].
﴿وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [الزخرف: ١٠].

فالآيات الثلاثة الأولى ترشح إلى أن السبيل حينما يتعين للشخص يكون مظنة الاهتداء، ولا يكون الضلال إلا حينما يقف على عدة سبل متحيرا أيها يسلك، أو يسلك هذه تارة وتلك تارة أخرى، ولذا أمر الله تعالى في سورة الأنعام باتباع سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم، ونهى عن اتباع السبل المتفرقة؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالأيات الثلاثة الأولى تعطي مظنة الاهتداء بها، والآيتان بعدها تعطيان مظنة تهيئتها لسلوك الناس عليها وانتفاعهم واهتدائهم بها، ويفهم ذلك من قوله:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا ۖ لَّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٩ - ٢٠].

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

فامتثانه تعالى بأنه قد سلك في الأرض هذه السبل يشير إلى تمهيده إياها وتهيئتها لانتفاع الناس بها.

أما الفجاج، فهي وإن اشتركت مع السبل في معنى الطريق فإنها تختص بها بسملة الاتساع؛ ومن ثم يختص السبيل بالتمهد والاستواء، وتختص الفجاج بالاتساع.

وبهذا تجتمع المعاني، وتظهر النكتة في تقديم السبل تارة في مقام دعوة نوح قومه ممتنا عليهم بنعمة تمهيدها وتهيئتها حتى صارت كالبساط لهم؛ فحيث ذكر وصف الأرض بالبساط الدال على تمام التمهيد أتبعه بذكر السبل التي تكون ممهدة مهيئة، ثم أتبع ذلك بنعمة كونها فجاجا متسعة من باب التتميم للنعم.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ [الأنبياء: ٣١].

فقدم الفجاج وهي من صفة الأرض؛ حيث السياق هنا سياق بيان عجائب الخلق، وما أودع في الأرض من الجبال الرواسي والفجاج الواسعة وغير ذلك؛ ثم أتبع ذلك بنعمة كونها سبلا ممهدة يهتدى بها من باب التتميم للنعم.

والذي يراجع سياق السورة يتبين له ذلك^(١٢).

- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي:

الاشتراك بين الألفاظ واقع في لغة العرب بما لا ينكره من له أدنى اطلاع على لغتهم، وذلك كما في لفظ (العين - الجون - الشفق - القراء - عسعر... إلخ).

"وإذا عرف وقوع الاشتراك لغة فهو أيضاً واقع في كلام الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: "والليل إذا عسعس" (التكوير: ١٧) فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره وهما ضدان هكذا ذكره صاحب الصحاح.

وقد يوتى باللفظ المشترك لغرض بلاغي أو نكتة جمالية:

فمن ذلك كلمة (عسعس)، و(قسورة)، و(ريع)، و (آية)... إلخ ونحو ذلك.

- **فكلمة (عسعس)** في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ [التكوير: ١٧] تأتي بمعنى الإقبال والإدبار، "عن مجاهد قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾ قال: إقباله، ويقال: إدباره" (١٣).

ولا شك أن كلا من إقبال الليل وإدباره ساعتان شريقتان، وآيتان عظيمتان دالتان على قدرة الله تعالى؛ فلذا فقد أقسم الله بهما تنويها بشأنهما، وتعظيم النبي - صلى الله عليه وسلم - لهاتين الساعتين بالذكر والصلاة والتسبيح ثابت بنصوص كثيرة ليس هنا محل ذكرها؛ لذا فلا يبعد أن يراد بالقسم كلا من هاتين الساعتين الشريقتين، وسياق الكلام يساعده ولا يعارضه.

- **وكذلك لفظ (قسورة)** في قوله تعالى: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥١].

ذكر ابن جرير الاختلاف فيها؛ فمنهم من قال: الرماة ومنهم من قال هو الأسد (١٤).

والسياق لا ينفي أحد المعنيين بل يحتملها جميعاً؛ فالحمر بلا شك تفر من الرماة كما تفر من الأسد؛ فقد أثبت لها الفرار من كل من يشمل اسم القسورة، ويؤيد ذلك مجيء قسورة منكراً.

ولا شك أن ذلك مما يزداد به المعنى جمالاً وقوة فهذه الحمر المضروبة مثلاً للكافر المعرض تفر من كل من تعرض لها أشد الفرار؛ إذ تستشعر فيه خطراً داهماً عليها؛ وكذلك هؤلاء الكافرون المعرضون يحسبون كل متعرض

لهم بالدعوة إلى الله خطرا داهما، وشرًّا محدقا، وذلك لكون ما يأتي به من الهدى معارضا أهواءهم أتم المعارضة.

وسواء بدا ذلك الداعي لهم شديدا كالأسد، أم تلطف لأخذهم للهداية - كما يتلطف الصائد الرامي لصيده - فإن ذلك كله لا يجدي معهم شيئا.

• ومن ذلك (كلمتي: ريع - آية) في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

عن مجاهد: "قال: "شرف ومنظر"... وعن قتادة.. قال: "بكلّ طريق" (١٥). فعلى ذلك فكلمة (ريع) من المشترك اللفظي؛ إذ تعني الطريق أو الشرف وهو الموضع العالي أو المنظر، ولا مانع من اجتماع تلك المعاني جميعا؛ حيث لا ياباها السياق، وهذه هي العادة في اتخاذ الآيات التي يتباهى بها أصحاب الحضارات؛ إذ يتخبرون لها موضعا مستشرفا للأعين، ذا منظر حسن، في طريق الناس حتى تقع الأعين على تلك الآية التي يتباهون بها.

وكذلك كلمة {آيَةً} قيل: "أي: معلما ببناء مشهورا".

وقيل: "الآية هي الدلالة والعلامة" (١٦).

فعلى ذلك فهي من المشترك اللفظي كذلك، والسياق محتمل لهذه المعاني جميعها؛ فهم يتخذون ذلك الأثر لكي يكون دلالة على قوتهم، وعلامة على حضارتهم، أو على مدينتهم؛ بحيث تعرف به وتعلم به وتشهر به، فيجتمع فيه كلُّ هذه المعاني أنه معلم وبناء مشهور ودلالة وعلامة.

وفي هذا كله تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني بوسائل وطرق شتى.

- اتساع الدلالة من خلال المتواطئ:

يفرق الأصوليون بين المشترك والمتواطئ وذلك أن "اللفظ المشترك هو اللفظ الواحد الموضوع لعدة معان وضعا أولا" (١٧).

أما المتواطئ: فهو لفظ يطلق على أشياء متغايرة ولكنها متفقة في المعنى الذي وضع اللفظ له مثل لفظ "لون" فالسواد لون، والبياض لون، والحمرة لون.

ومثل لفظ "رجل" التي تطلق على: زيد وعمرو ومحمد و...

ومثل لفظ "جسم" فهي تطلق على السماء والأرض، والإنسان، والحيوان، وعلى كل شيء له ثقل ويشغل حيزاً.

فقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

ورد فيه لفظ متواطئ يدل على العموم وهو لفظ "ما" فإنها تعني الإنسان، والملائكة والحيوان والجماد... فاللفظ المتواطئ من ألفاظ العموم.

فمثال المتواطئ ما نُقِلَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]

فَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ يَتَنَاوَلُ أَصْنَافًا كَثِيرَةً، الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهَكَ لِلْمَحْرَمَاتِ.

وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمَحْرَمَاتِ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ.. (١٨).

وترجع قيمته الجمالية - في الغالب - إلى ما فيه من إيجاز بالإجمال المغني عن التفصيل بذكر أفراد ما أجمل لشيوع العلم بها.

فمن أمثلته أيضا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] قَدْ تَضَمَّنَ الْأَمْرَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرُنَا إِيَّاهُ عَلَى وَجْهِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ أَقَاوِيلُ عَنِ السَّلَفِ، قِيلَ فِيهِ: أَذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي"، وَقِيلَ فِيهِ: "أَذْكُرُونِي بِالثَّنَاءِ بِالنِّعْمَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّنَاءِ بِالطَّاعَةِ" وَقِيلَ: أَذْكُرُونِي بِالشُّكْرِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ" وَقِيلَ فِيهِ: "أَذْكُرُونِي بِالدُّعَاءِ أَذْكُرْكُمْ بِالْإِجَابَةِ".

وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي، وَجَمِيعُهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى لِشُمُولِ اللَّفْظِ وَاحْتِمَالِهِ إِيَّاهُ. ^(١٩)

ولا شك أن استخدام لفظ الذكر ونحوه مجملاً فيما يعرف تفصيله بالتفكر والتأمل - ولا يرتاب في معرفته - فيه من الإيجاز واختصار الكلام ما هو بأعلى المنازل من البلاغة والفصاحة، حتى قالوا: "البلاغة الإيجاز".

ونحوه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

فقد ورد فيه أربعة تأويلات:

أحدها: يعني عُمَل بهن عملٌ مثل عملها، فيحشر العامل بالخير مع العامل بالخير إلى الجنة، ويحشر العامل بالشر مع العامل بالشر إلى النار، قاله عطية العوفي: حين يكون الناس أزواجاً ثلاثه.

الثاني: يزوج كل رجل نظيره من النساء فإن من أهل الجنة زوج بامرأة من أهل الجنة، وإن كان من أهل النار زوج بامرأة من أهل النار، قاله عمر بن الخطاب، ثم قرأ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢].

الثالث: معناه ردت الأرواح إلى الأجساد، فزوجت بها أي صارت لها زوجاً، قاله عكرمة والشعبي.

الرابع: أنه قرن كل غاو بمن أغواه من شيطان أو إنسان، حكاه ابن عيسى. ويحتمل **خامساً:** زوجت بأن أضيف إلى كل نفس جزاء عملها، فصار لاختصاصها به كالتزويج ^(٢٠).

وهذه المعاني كلها تنتسب إلى الكلمة بنسبة واحدة؛ إذ إن كل ذلك يعد تزويجاً؛ فهي إذا من المتواطئ، وحمل الكلمة على كل هذه المعاني لا يأباه السياق بل يؤيده ويقويه، والكلمة بهذه المعاني كشجرة ذات ظلال وأغصان وارفة كلها تمت إليها بصلة ونسبة واحدة.

- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز:

من الوجوه التي تتعدد بها الدلالة وتتسع تردد الكلمة بين الحمل على الحقيقة والمجاز؛ وذلك قد يؤتى به لإرادة الحمل على كلا المعنيين الحقيقي والمجازي طلباً للاتساع في المعنى إذا ما اقتضاه السياق.

وأمثله عديدة في كتاب الله تعالى، فمن ذلك:

كلمة: الثياب في قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

من المفسرين من حملها على الحقيقة ومنهم من حملها على المجاز، ومنهم من جوز الجمع بينهما:

فقد رجح أبو حيان الحقيقة رغم حكايته للأقوال المرجحة للمجاز^(٢١).

واختار أبو حيان أن "الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي"^(٢٢).

ومال الألوسي إلى المجاز فقال: "﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤] تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تدم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه....

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة. وقيل كني بها عن الجسم كما في قول ليلى وقد ذكرت إبلاً ركبها قوم وذهبوا بها:

رموها بأثواب خفاف فلا نرى لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدم. ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه.

وقيل: على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة العملية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه ، وقيل إنه أمر له بالتخلق بالأخلاق الحسنة... وقيل الثياب كناية عن النساء " (٢٣).

ومع ميل الألوسي للمجاز فإن ظاهر كلامه في الآية التالية عدم استبعاد الحقيقة وكأنه يجوز الجمع بينهما قال: "والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجر الجفاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]

حيث حمل ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ على تطهير الظاهر، ولا شك أن أول ما يدخل فيه تطهير الثياب.

أما ابن كثير فقد حكى الأقوال السابقة ثم رجح الجمع بين الحقيقة والمجاز، فذكر من ذهب إلى المجاز كقول القائل: " لا تلبسها على معصية ولا على غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبِسْتُ وَلَا مِنْ عُدْرَةِ اتَّقَعُ

وقال الشاعر:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّوْمِ عَرْضَهُ فَكُلَّ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية...

ثم ذكر قول من ذهب إلى الحقيقة فقال:

"وقال محمد بن سيرين: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه.

وهذا القول اختاره ابن جرير.

ثم قال: "وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أَفَاطَمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ هَجْرِي فَأَجْمَلِي
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاعَتِكَ مِنْي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِي

وقال سعيد بن جبیر: ﴿ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقلبك ونيتك فطهر.

والذي نراه أن السياق في هذه السورة الكريمة لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازاً؛ وذلك لأن الداعي إلى الله؛ بله أكرم الرسل ينبغي أن يجتمع له صلاح الظاهر والباطن المشتمل على حسن المظهر والمخبر، فيجمع بين حسن السمات المشتمل على أكمل الهيئات التي ترغب في الإقبال عليه وتحول دون النفرة منه، مع صلاح الباطن واستقامة الخلق بحيث لا يعثر له على هفوة تكون حجة عليه وعلى دعوته.

ومجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكر مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز، وكونه من لدن حكيم حميد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

حيث جعل الزاد جنساً يشمل كلا النوعين الحقيقي الحسي المعهود، أو المجازي المعنوي وهو تقوى الله تعالى؛ فحمل الزاد على معنويه الحقيقي والمجازي لما في ذلك من اتساع في المعنى يقتضيه السياق والمقام؛ فإن المقصود هو الاعتدال في الجمع بين الدنيا والآخرة.

- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي:

ذهب ابن كثير كذلك في أكثر من موضع إلى جواز الجمع بين المعنى اللغوي العام والمعنى الشرعي الخاص ما دام السياق محتملاً لهما، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] قال: "الأكثر من على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال (أي: المعنى الشرعي)، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية:

﴿وَمَا آتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا (المعنى اللغوي العام) وهو: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [١] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا [١٠] [الشمس: ٩ - ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [٦] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [فُصِّلَتْ: ٦ - ٧]، على أحد القولين في تفسيرها".

فقد حكى أقوال المفسرين هنا في معنى الزكاة، وهي لا تخرج عن معنيين:

- **المعنى الشرعي:** وهو الزكاة الشرعية (بمعنى إخراج قدر محدود من المال إلى مستحقيها بشروطها)، وهي إما المفروضة على القول المرجوح؛ لعدم فرضيتها في زمان نزول النص، وإما بمعنى الصدقة وقد كانت مشروعة آن ذاك.

- **المعنى اللغوي:** وهو يرجع في أصله إلى معان منها الطهر والنماء والصلاح، فكأن المقصود هنا هو تطهير النفس وإصلاحها وتنمية جوانب الخير فيها، على نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [١٢] [الأعلى: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [١] [الشمس: ٩].

وبعد حكايته للقولين الواردين في هذا الموضع قرر مذهبه في جواز الجمع بين كلا المعنيين اللغوي والشرعي بشرط احتمال السياق لهما فقال: "وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛

فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم. (الأعلى: ١٤)

وقد حكى نحو هذين القولين في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ الَّذِينَ لَا يُوْنُوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ﴾ [فصلت: ٩ - ٧].

والذي ذهب إليه ابن كثير في هذا الموضع من جواز الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي لا غبار عليه؛ إذ السياق يؤيده لاحتماله كلا المعنيين؛ وذلك لأن السياق سياق ذكر لجملة من الخصال الحميدة التي اتصف بها المؤمنون، واستحقوا بها المدح والثناء من الله تعالى، ووعدهم عليها بالفلاح في مطلع تعداد تلك الصفات حيث بدأ الله تعالى السياق بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١].

ولا شك أن كلتا الصفتين هما من صفات المؤمنين اللتين لا يتحقق فلاحهم إلا بهما؛ بل إن المتأمل لهاتين الصفتين يلحظ تكاملهما وترابطهما بحيث لا يتصور إحداهما دون الأخرى؛ وإلا فكيف يتصف بزكاة النفس وصلاحها وطهرها من قسا قلبه فلا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، وكيف يرق القلب لإنفاق المال وبذله للغير دون مقابل دنيوي ما لم يكن قلبا زاكيا صالحاً؟!

ولذا فقد ذم الله تعالى المشركين في الآية الأخرى وتوعدهم بالويل بسبب أنهم ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وقد سوغ ابن كثير حملها على المعنيين كذلك، وهو صحيح لما ذكرناه؛ فإذا كان المعنيان المذكوران هما سبب فلاح المؤمنين فلا جرم يكونان سبب خسران المشركين والكافرين كذلك، وقد جمع الله تعالى في وصفهم بين هاتين الصفتين (زكاة النفس وبذل الصدقة) وبين ترابطهما فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ إِلَى الْيَمِّ ۚ وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

ومما يستشهد به في هذا المقام كذلك لجواز الحمل على المعنيين اللغوي والشرعي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

فقد أورد ابن جرير الأقوال في معنى الآية وحاصلها:

- قسم حمل الصلاة على المعنى اللغوي وهو الدعاء.
- وقسم حملها على المعنى الشرعي المعروف بما تشتمل عليه من قراءة وذكر.
- وقسم حملها على بعض أجزاء المعنى الشرعي وهو القراءة؛ فكأنه جعلها من المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية (٢٤).

فمما أورده ابن جرير من أقوال السلف في تفسيرها ما ورد "عن عطاء، قال: يقول ناس إنها في الصلاة، ويقول آخرون إنها في الدعاء." (٢٥) وبعد استقصائه جميع الأقوال فسرّها بقوله: "ولا تجهري يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾".

فنلاحظ أن ابن جرير قد سلك منهجاً صائباً حيث احتكم إلى دلالة السياق فرأى أن السياق لا يأبى شيئاً من الأقوال الأنفة فجمع بينها جميعاً في عبارته السابقة.



ملخص الوحدة الثالثة

عرضت هذه الوحدة لبلاغة القرآن الكريم في استعمال الألفاظ المفردة ذات الدلالات الثرة الواسعة التي تناسب سياقها ومقامها أتم المناسبة؛ بحيث لا تقوم لفظة مقامها مما يكشف عن إعجاز هذا الكتاب الخالد.

وقد عرضت لذلك من خلال النقاط التالية:

- تمهيد عن بلاغة اللفظ القرآني
- بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسباته للسياق والمقام.
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المشترك اللفظي
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال المتواطئ
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين الحقيقة والمجاز
- بلاغة اللفظ القرآني واتساع دلالاته من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي.



أسئلة على الوحدة الثالثة

س١: بين كيف تكون بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسبته للسياق والمقام مع التمثيل.

س٢: بين سر جمال كل لفظة من هذه الألفاظ القرآنية في سياقها.

تستأنسوا - وهنوا - ضعفوا - استكانوا - العرف - سبلا - فجاجا.



نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول:

بلاغة اللفظ القرآني بمراعاة فروق الدلالة المعجمية الدقيقة في مناسباته للسياق والمقام:

فمن ذلك المفاضلة بين كلمتي: تستأنسوا - تستأذنوا

فقد وردت كلمة تستأنسوا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فنلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحمل من المعاني والظلال المناسبة لهذا السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو - على الأصح - مقاربة لها، مثل: (تستأذنوا) التي فسرها بها جمع من المفسرين.

"قال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا" (٢٦).

وقال الألوسي: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها " (٢٧)

وقال مجاهد: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: تتنحوا -أو تَتَخَمُوا" (٢٨).

غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكلتا الكلمتين (تستأنسوا - تستأذنوا) - أو الكلمات الأخرى التي فسرت بها الكلمة باعتبارها من لوازم الاستئناس - تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دونها.

قال الزمخشري: "﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من

خفاء الحال عليه، فإذا أذن له استأنس، فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأنَّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن. فوضع موضع الإذن.

والثاني: أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً. والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً، أي: تعرفت واستعلمت..

وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: قلنا: يا رسول الله، ما الاستئناس؟ قال: " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبير والتحميدة ويتنحج: يؤذن أهل البيت. والتسليم أن يقول: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلا رجع " (٢٩).

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالاً كثيرة، وأنها لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحج والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأُنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت، وأنها تحقق الأُنس والانتناس بين الطرفين (الزائر والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له: ارجع. إن الاستئناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله، ولا يسوغ في ذوق

العربية أن يقال مثلاً: (استأنس الشرطي، أو جابي الضرائب، أو الدائن) إنما هو الاستئذان، ليس منه حسُّ إيناس، كما لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق، أو سماع هزيم رعد، وزئير وحش^(٣٠).

ومن ذلك كلمة العرف ونظائرها من الحق والخير والخلق الحسن وكريم الخصال...الخ.

قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ فكلمة (العرف) مثلاً هي من جوامع الكلم التي لا نستطيع أن نفاضل بينها وبين غيرها من الكلم، ولا نجد كلمة تسد مسدها في عموم معانيها؛ وذلك لأنها تتواطأ وتتوارد على كثير من المعاني؛ فهي من المتواطئ الذي يحمل على العديد من المعاني؛ ولذا قال أبو جعفر بعد تعداد طائفة من تفسير العلماء لبعض ما تشتمل عليه من المعاني: " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالعرف - وهو المعروف في كلام العرب- مصدر في معنى: "المعروف". يقال: "أوليته عُرْفًا، وعارفاً، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: "المعروف".

فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض^(٣١).

هوامش الوحدة الثالثة

- (١) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١ / ٥٢).
- (٢) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٣) تفسير الألوسي ٣٩٥/١٣.
- (٤) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٥) تفسير الكشاف ٣٩٦/٤.
- (٦) الإعجاز البياني لبنى الشاطي ص ٢٠١.
- (٧) تفسير الطبري - جامع البيان ت شاکر (١٣ / ٣٣١).
- (٨) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٣٣٠.
- (٩) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤).
- (١٠) تفسير القرطبي - (ج ١٨ / ص ٣٠٦).
- (١١) الكشاف - (ج ٤ / ص ٢١٨).
- (١٢) قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهِنَّ سُبُلًا لِّمَن يَشَاءُ حَتَّىٰ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّمَن يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ خُلُقًا أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠ - ٣٤].
- (١٣) انظر تفسير الطبري للآية.
- (١٤) انظر تفسير الطبري للآية.
- (١٥) انظر تفسير الطبري للآية.
- (١٦) انظر تفسير الطبري للآية.

- (١٧) انظر المحصول للرازي: ٣٥٩.
- (١٨) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٣٢-٣٣ بتصرف.
- (١٩) السابق.
- (٢٠) النكت والعيون ٣/٤٨٨-٤٨٩.
- (٢١) البحر المحيط ١٠/٣٧٨.
- (٢٢) السابق.
- (٢٣) تفسير الألوسي ٢١/٣٩٩.
- (٢٤) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٢٥) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٢٦) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٢٧) تفسير الألوسي ١٣/٣٩٥.
- (٢٨) انظر تفسير الطبري للآية.
- (٢٩) تفسير الكشاف ٤/٣٩٦.
- (٣٠) الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص ٢٠١.
- (٣١) تفسير الطبري - جامع البيان ت شاكر (١٣ / ٣٣١).



الوحدة الرابعة

التنوع الأسلوبي

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- أ- التعريف بظاهرة التنوع الأسلوبي، والمصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.
 - ب- الإيقاف على مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن.
 - ج- تقوية الحس البلاغي للدارس بتحليل العديد من الآيات التي وظفت فيها هذه الظاهرة، ومدى بلاغتها.

العناصر:

- التعريف بظاهرة التنوع الأسلوبي، وعرض أهم المصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.
- عرض مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن الكريم، وهي: مجال الصيغ - مجال العدد- مجال الضمائر - مجال الأدوات- مجال البناء النحوي.
- تحليل عدد من الآيات من خلال تلك المجالات، والوقوف على سر التنوع الأسلوبي فيها.

التعريف بظاهرة التنوع الأسلوبي:

- تعد هذه الظاهرة من أهم وأكثر الظواهر البارزة في بلاغة النظم القرآني.
- ويقصد بالتنوع الأسلوبي: أن تتنوع اختيارات المبدع بين البدائل اللغوية المشتركة في أداء أصل المعنى طلباً للتعبير الأكثر ملاءمة للسياق والمقام.

ولننظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًّا وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. نجد أن لفظة (صافات - ويقبضن) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة مثل: (صافات قابضات) أو (يصففن ويقبضن) فالنمط الأول: (صافات قابضات) تكرر فيه اسم الفاعل. والنمط الثاني: (يصففن ويقبضن) تكرر فيه الفعل المضارع. وأي من النمطين جاء على أسلوب واحد هو صيغة اسم الفاعل في الأول، وصيغة الفعل المضارع في الثاني دون تنويع في الأسلوب.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل الدال على الثبات للتعبير عن الحدث في اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد للتعبير عن الحدث في اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

قال الزمخشري: "فإن قلت: لم قيل (ويقبضن، ولم يقل قابضات) (قلت) لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به (أي الاستعانة) على التحرك فجاء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح" (١).

فكان الآية قد رمزت بذلك - فضلاً عن إثبات حدثي الصف والقبض - إلى أن الصف هو غالب فعل الطير فى جو السماء وأن القبض يكون عارضاً، وهذا المعنى وإن لم يكن مقصوداً بالأصالة من الكلام، فإن اختيار الآية لهاتين الصيغتين قد شمل هاتين الداليتين دون أن يزيد فى لفظ الكلام بل عبر عن المعنى بهيئة اللفظ نفسه وليس بلفظ آخر، ولو خولفت تلك الصياغة، وأريد التعبير عن تلك المعانى، لقيل (يصففن غالباً ويقبضن أحياناً) وفيه من الركاقة والتطويل ما فيه، فضلاً عن أن المعنى الذي أضافته هاتان الصيغتان فى الآية

ليس مقصودا من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة وتمام الحكمة، فكان تضمينه في هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظ جديد يخصه.

والمقصد هنا أن نبين أن أصل المعنى يمكن الدلالة عليه بأكثر من صيغة. فأصل المعنى في الآية لفت الأنظار إلى قدرة الله في حفظ الطير وتسخيره في جو السماء في حالتى القبض والبسط، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل أو المضارع لكن الآية قد اختارت للمعنى الأول اسم الفاعل، وللثاني صيغة المضارع من باب التنويع الأسلوبى للدلالة على معنى أخص وأدق من أصل المعنى وهو مجرد التعبير عن الصف والقبض.

التنويع الأسلوبى بين الموروث البلاغى والأسلوبية الحديثة:

استخدمت لهذه الظاهرة في تراثنا البلاغى عدة مصطلحات لا تكاد تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الأسلوبية الحديثة نحو: (الاختيار - العدول - الالتفات - شجاعة العربية - مخالفة مقتضى الظاهر.. الخ) وعرفت في الأسلوبية الحديثة بمصطلحات مقاربة لتلك نحو: (الاختيار - الانحراف - الانزياح - العدول - المجاوزة.. الخ) وهذا ما تكشف عنه تعريفات الأسلوبيين للأسلوب؛ حيث عرفه بعضهم بأنه اختيار، وبعضهم بأنه انحراف.. الخ^(٢).

وتتسم هذه الظاهرة بتنوع مجالاتها بين الصيغ الصرفية والأعداد والضمائر والأدوات والبناء النحوي على نحو ما نرى في الصفحات التالية.

أولا- التنويع الأسلوبى في مجال الصيغ:

التنويع بين اسم الفاعل والمضارع:

فمن ذلك ما علق به عبد القاهر على قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

فلو قيل: "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد^(٣) وذلك أن المقصود في الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك

المعنى الأصلي باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن في التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيد التعبير باسم الفاعل.

التنوع بين صيغة الماضي وصيغة اسم الفاعل:

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٥] حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التي عبرت بها في حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم في حق النبي ﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفياً لينفي عن النبي ﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتي للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفياً لأدنى احتمال في انتساب النبي ﷺ لمتابعة الكتاب، وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَبْدٌ مِمَّا عَبْدْتُمْ﴾ (٤) ولذا قال الألوسي: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ أي لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون "وقال الزمخشري" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم (٥) هذا فضلاً عن أن الإخبار باسم الفاعل في هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيداً ومبالغة في النفي المؤكد بالباء (٦).

وقد استشف صاحب الظلال تلك المعاني السابقة جميعاً فعبّر عنها في عبارة واحدة فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه هذا الأمر (٧).

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفي الحاسم لتأييس أهل الكتاب من أطماعهم في اتباع النبي ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم في دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبي ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

التنويح الأسلوبى بين الاسم وفعل الأمر:

عرض ابن الأثير أمثلة هذا النوع من التنويح: "كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وكان تقدير الكلام: أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قال ﷺ "الأعمال بالنيات" (٨).

التنويح الأسلوبى بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة:

ومن أمثلة ذلك ما ورد فى سورة الشعراء فى قصة موسى على لسان فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ سِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) [الشعراء: ٣٤-٣٧].

حيث جاء التعبير بصيغة المبالغة سَحَار فى هذا الموضع دالا على مقابلة المأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيد على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم (بسحره) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكل سحر عليم يفوق سحره سحر موسى.

وتتضح هذه النكتة حينما نقف على سياق القصة المشابهة فى سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى على لسان المأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (١١٢) [الأعراف: ١٠٩-١١٢].

وقد علل بعضهم مجيء صيغة المبالغة فى الشعراء دون الأعراف بأن المبالغة فى الشعراء مناسبة لقول فرعون ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) (٩).

ولكن يضعف من هذا التعليل أن المأل قد وصف موسى كذلك في الشعراء بأنه (ساحر عليم) وأرى أنه لم تأت المبالغة (سحار) في سورة الأعراف؛ لأنه لم ينص على أن المحذور - وهو إخراج موسى لهم من أرضهم - إنما يقع (بسحره) فلم تذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف، ومن ثم لم تقابل بصيغة المبالغة (سحار) في وصف السحرة، فكأن المأل في هذا الموضع لم يتصور أن ما جاء به موسى - وهو ما وصفوه بكونه سحرا - يكون له من القوة والتأثير أن يخرجهم من أرضهم، فمن ثم لا يحتاج إبطال سحره إلى الإتيان بمهرة السحرة. أما في سورة الشعراء فإن الكلام فيها على لسان فرعون - لا المأل - وهو يؤكد لهم أن معجزة موسى - عليه السلام - والتي سماها فرعون سحرا - تبلغ من القوة والتأثير أن يخرجهم موسى من أرضهم بها. ومن ثم بالغوا له في وصف السحرة الذين يؤتى بهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام. ويمكن أن يقال إنه لما كان الواصف لموسى عليه السلام في هذا الموضع بالسحر هو فرعون؛ لذا "جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه" (١٠).

التنوع في صيغ المصدر: بين (الحياة - الحيوان):

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِذَٰلِكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

حيث جاء اختيار المصدر (الحياة) للتعبير عن الحياة في الدنيا، وجاء اختيار المصدر (الحيوان) على صيغة (الفعالن) للتعبير عن الحياة في الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك في مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

ولذا قال الزمخشري "وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعالن من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان

واللهيان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيؤه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة^(١١).

التنوين بين المصدر واسم المرة:

وذلك كما في قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١٢) قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) [الأعراف: ٦٠-٦١] ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول في الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة).

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملاء من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بأن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له في ضلال مبين بما يفيد لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (في) من معنى الإحاطة والانغماس في الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح في نفى هذا الاتهام مسلكا أكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعها نكرة في سياق النفي لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفي أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بي شيء من الضلال)^(١٤) أو (ليس بي نوع من الضلال البتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب)^(١٥) وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفي الأدنى من نفى الأكثر^(١٦) (فيرجع حاصل المعنى ليس بي أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين)^(١٧)، ولذا قال الطيبي: (أى ضلالة نذرة)^(١٨) ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة في سياق النفي فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

التنوين الأسلوبى بين صيغة (فعل - افتعل):

يأتى التعبير بصيغة افتعل لأغراض ومعان فنية، منها من ذلك ما جاء في

القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] حيث نلاحظ أن الآية اختارت (كسبت) على وزن (فعل) في الدلالة على فعل الخير، بينما أثرت (اكتسبت) على (كسبت) في الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل على صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتي لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة في معنى الفعل^(١٧).

قال سيبويه: "وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"^(١٨) ومن ثم فقد عدلت الآية في التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف والاجتهاد والتعمل والاضطراب والتصرف لأجل تحصيل المعصية ويناسب ذلك ما في المعصية من مخالفة للأعراف والفطر السليمة، مما يدعو العاصي إلى الاحتيال فيها. قال جماعة من العلماء "افتعل يدل على شدة الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"^(١٩). وقال الزمخشري: "فإن قلت: لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأمرة به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن في باب الخير كذلك وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"^(٢٠).

فالتفت الزمخشري هنا إلى ما تدل عليه الصيغة من المبالغة في الفعل ومناسبة ذلك لغلبة الشر على الطباع، واجتهاد الإنسان فيما فيه هواه، ومضيه قدما في سبيل الفجور، كما قال تعالى ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرًا أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] قال الطبري: "يريد أن يمضي أمامه قدما في معاصي الله لا يثنيه عنها شيء"^(٢١) وقال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يريد من الحسنات ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يريد من السيئات، قاله السدي وجماعة من المفسرين لا خلاف في ذلك والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها

فتضاف إلى ملكه، وجاءت فى السيئات بـ (عليها) من حيث هى أوزار وأثقال ومتحولات صعبة... وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام. كما قال: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمُ رُؤُوسُهُمْ﴾ [الطلاق: ١٧] هذا وجه.

والذى يظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه إليها فيحسن فى الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى^(٢٢).

التنوع فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضى: وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] فالأصل الذى يقتضيه السياق هنا هو (فأثارت) وعدل عنه لغرض بلاغى وعلى هذا ورد قول تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجـران^(٢٣)

فأصله: (فضربتها).

وعليه ورد قوله تعالى أيضاً: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَعَمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّيحَ مِنَ الْأَوْتَنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ] [الحج: ٣١-٣٢] فقال أولاً: "خر من السماء" بلفظ الماضى، ثم عطف عليه المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به^(٢٤). وتقرير الأصل السياقى فيه (فخطفته الطير أو هوت به الريح) وهكذا فى سائر الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير.

ثانيا- التنويع الأسلوبي في مجال العدد:

التنويع بين صيغتي الإفراد والجمع:

من الأمثلة البليغة التي تحققت فيها المزاجية بين صيغتي الإفراد والجمع: قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِمٌ ١٤﴾ [النساء: ١٣-١٤]، فقد جمع "خالدين" في وصف ثواب الطائعين، وأفرده في وصف عقاب "العاصين" (٢٥) وهنا لا يكاد يشك صاحب الذوق الرفيع أن لإفراد العاصي هنا فيه من معاني الإذلال والتعذيب بالوحشة والانفراد ما فيه.

وقد التفت إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود حيث قال: "ولعل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة" (٢٦).

وجدير بالذكر أن هذه المزاجية المذكورة في هذا الموضع هي طريقة القرآن ونهجه في التعبير عن عذاب الكافر، ونعيم المتقين، حيث يطرد الإفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه في المثال التالي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْيَتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ ٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨﴾ [الدخان: ٤٣-٤٩] حيث نلمح في هذه الآيات إفراد الأثيم في مقابل جمع المتقين في الآيات التالية في المشهد التالي من السورة نفسها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ٥٥﴾ [الدخان: ٥١-٥٥] وهنا تؤدي صيغة

الفرد دورها فى إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم فى مقابل انتناس المؤمن بصحبته ورفاقه فى جنات النعيم، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف. وبهذا تؤدى صيغة المفرد فى مثل هذا السياق معنى الوحشة والوحدة ومعاناة ألم الغربة والافتراق.

العدول إلى المفرد:

من الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨-٩] فالحرس والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشري: " والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقليل شدادا، والرصد مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله^(٢٧).

وقال الطيبي: " وقوله تعالى: (شهابا رصدا) نزل الواحد وهو الموصوف منزلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... "معى جياعا" جعل كل مكان من أمكنة المعا بمنزلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع^(٢٨).

وقد ذهب الزمخشري وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا^(٢٩). والسر فى هذا العدول - فى رأى - يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن أفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعده. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رسدا مفعولا لأجله.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعاً فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صورته فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ﴾ ١١ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ﴾ ١٢ ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ﴾ ١٣ ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢] ففى هذا الموضع يتضح للقارئ والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفراداً وجمعاً، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالانتفات إلى سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] قال أبو حيان: "جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد" (٣٠).

"وقال الألوسى: "أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال" (٣١).

وقال ابن القيم "والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شىء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات^(٣٢).

ويلمح الألوسى وجها فى أفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق" أو أن الأول (أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة^(٣٣).

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن مواضع العدول إلى المفرد لتحقيق غرض بلاغى، ما جاء فى القرآن الكريم من أفراد لفظ النعمة فى سياقات عديدة، أريد التعبير فيها عن كثرة النعم؛ ومع ذلك فقد جاءت الصيغة مفردة فى تلك المواضع؛ حتى بلغ عددها سبعة وأربعين موضعا، ولم ترد مجموعة إلا فى مواضع ثلاثة.

ومما يتعلق بذلك:

العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة:

وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] فعلى الرغم من كثرة نعم الله التى كفرت بها تلك القرية فقد عدلت الآية عن التعبير بجمع الكثرة (نعم) إلى جمع القلة (أنعم) لغرض بلاغى يكشف عنه العلامة أبو السعود حيث يقول "وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة" ^(٣٤).

هذا الذي نبه عليه العلامة أبو السعود هو ما يناسب مقام التخويف لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعم الله تعالى عليهم، ولهذه الطريقة نظائر في كتاب الله تعالى فمنها في غير جانب الصيغ قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو في مقام تخويفه عذاب الله تعالى له: ﴿يَكَاَبَتْ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥] حيث عبر بـ (يمسك) بدلا من يصيبك، وبـ (الرحمن) بدلا من (الجبار) كأنه يخوفه العذاب الأدنى لو عامله الله برحمته، فكيف لو عامله بشدته وجبروته. وعلى هذا النحو جاء التخويف في الآية السابقة من جحد قليل النعم فضلا عن كثيرها، وهذا أشد مبالغة في التخويف.

ويتعلق به كذلك:

العدول عن صيغة جمع القلة إلى جمع الكثرة:

من أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] حيث كان الأصل أن توصف السبع بجمع القلة سنبلات كما قال الله تعالى في سورة يوسف ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣] إلا أن الآية هنا قد عدلت عن القلة المناسبة للسبع إلى الكثرة لغرض بلاغي لا للاتساع في اللغة أو لتعاور الأبنية كما ذهب إليه الزمخشري فيما نرى.

وهذا الغرض البلاغي فيما نرى إنما هو مناسبة سياق الآيات الدال على التكثير والمباركة من الله تعالى لهذه الصدقة، وإلا فقد استغرب التمثيل بسنبلة تنبت مائة حبة واستشكلوا إمكان وقوع ذلك.

والمقصود أنه مقام تكثير وبركة من الله تعالى، وجزاء واسع غير محدود ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] فهي "زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له".

ثالثا- التنويع الأسلوبي في مجال الضمائر:

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فيه ما يعرف في البلاغة بالالتفات^(٣٥).

وذلك أن الخطاب في سورة الفاتحة قد بدأ بصيغة الغائب ثم تحول إلى الخطاب؛ حيث جاء الحديث عنه سبحانه بصيغة الغائب؛ فقيل: الحمد لله على أنه غائب عن العبد، ولم يقل الحمد لك يا رب على الخطاب، واستمر على ذلك في الآيات بعدها على الغيبة، ثم التفت أي انتقل إلى صيغة أخرى هي صيغة الخطاب، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والسر في ذلك هو مراعاة حال العبد؛ حيث يكون غافلاً في أول القراءة فكأن الله غائب عنه - بالنسبة له، وهو لا يزال يتعرف عليه شيئاً فشيئاً، فيقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ فيعرفه بربوبيته العامة الشاملة لجميع خلقه، ثم يقرأ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعرفه برحمته العامة والخاصة في الدنيا والآخرة، ثم يقرأ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فيعرف أن إليه المرجع والمصير، ويبدء الجزء وحده، فيتعلق قلبه به رغبة ورهبة، فلا يملك إلا أن يتوجه إليه مخاطباً إياه مقراً بعبوديته ووحدانيته مفرداً إياه بالاستعانة حيث لا ملجأ منه إلا إليه؛ فيقول داعياً إياه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ أهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧. ﴿

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥

وفي اختيار الضمائر الدالة على الجمع في: نعبد، واهدنا: لمحة تدل على قيمة الجماعة، وهضم الذات أمام الملك، وأن العبد لا يغتر بسعيه، بل يتوجه إلى مولاه مستشفعاً بمن هو معهم من زمرة الصالحين - لا سيما إن كان في صلاة الجماعة.

ومما جاء من التنويع في الضمائر كذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَدِئَهُمُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنْ شَهِدَ اللَّهُ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤﴾ [هود: ٥٤]؛ فإنه إنما قال "أشهد الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له لأن إشهداه الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهداهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة

على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: "أشهد على أنى أحبك" تهكما به واستهانة بحاله (٣٦).

فالعَدول هنا في كلام ابن الأثير قد وظف توظيفاً صحيحاً لأنه عدول عن الأصل السياقي؛ وذلك لأن السياق يقتضى (وأشهدكم) بصيغة المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقي للنكتة التي بينها ابن الأثير.

رابعاً- التنويع الأسلوبى في مجال الأدوات:

التنويع في حروف التوكيد:

- من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾.

فإن هؤلاء الرسل حين ووجهوا بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا: (إنا إليكم مرسلون) وهو أسلوب خبرى فيه من وسائل التوكيد (إن) واسمية الجملة، فلما بالغ أصحاب القرية فى التكذيب، ولجؤا فى الإنكار كرر عليهم الرسل الخبر الأول مضافاً إليه ألواناً جديدة من التوكيد حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾ فجاء الأسلوب كما ترى مؤكداً بالقسم فى صدره و(إن) واللام واسمية الجملة، فضلاً عن التكرار الذى هو فى حد ذاته وسيلة أخرى من وسائل التوكيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ أكد إثبات الموت تأكيداً - وإن كان مما لا ينكر - لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت، لتماديهم فى الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل: "ميتون" دون "تموتون"... وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً - وإن كان مما ينكر - لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن

ينكر، بل إما يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبين منزلة المترددين، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته، وحثاً على النظرة فيها، ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل" وينقل الطيبي ذلك الكلام السابق للقزوينى فى التبيان مع تصرف يسير فيه، ثم يتبعه بقوله: هذا الذى يقتضيه النظم الأنيق، وتكرير كلمة التراخى فى الرتبة المستدعية للترقى فى الأطوار من لدن قوله: ﴿مُرُّ خَلْقَنَا النُّتْفَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مُرُّ إِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦) أن تحمل إن على مجرد التوكيد بسطاً، فعل المؤمن فى جواره: (ربنا آمنا) ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يسان منه بقوله: (﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) أكد ذلك التوكيد، وضم مع كلمة التراخى لفظة بعد ذلك.

وكذلك فى قول المنافقين: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ إِئْمَانُكُمْ مُّسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِئْمَانُكُمْ مُّسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بان؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أو حديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعد على إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهرانى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: "ربنا إنا آمنا"، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد".

وعلق الطيبي على قول الزمخشري السابق في حاشيته على الكشف فقال: "قوله: ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ربنا إنا آمنة استئناف، وحاصله أن معنى التوكيد الذي تعطيه (إن) هاهنا ليس راجعاً إلى المخاطب في إزالة تردده أو نفى شكه بل إلى المتكلم في إظهار نشاطه، ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق بالإطناب، وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلاماً بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى إليه".

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

ذكر يعقوب - عليه السلام - سببين يمنعانه من إرسال أخيهم معهم؛ حزنه لفراقه، وخوفه عليه من أكل الذئب له، وكأنه لا يُسلم لهم بالسبب الذي ذكروه؛ وهو أنه لا يأمنهم عليه، وإن كان لم ينكر ذلك صراحة؛ فحاله حال نبي يريد ألا يكذب، ويريد في الوقت ذاته أن يصرفهم بلطف عما ذهبوا إليه؛ فعدد لهم ما يدفعه إلى منعه عنهم. وهو بالطبع قد راعى حالهم؛ فلم يصارحهم بالسبب الرئيسي، محاولاً التخفيف من تأجج نار الحقد والغل والحسد ليوسف عليه السلام، ولكن جاء الكلام مع ذلك دالاً على حاله كاشفاً عنه.

فالتوكيد في قوله: "إني ليحزنني" توكيد بأن واللام ليس مقصوداً به المخاطب بلا شك، فأبناءؤه متيقنون من شدة محبته ليوسف وأنه لا يصبر على فراقه طرفة عين، ولولا ذلك لما أقدموا على ما هم مقدمون عليه، ورعاية حال المخاطب تقتضي من هذا النبي الحكيم ألا يؤكد ذلك الأمر وألا يظهره لأبنائه لكيلا يزيد اشتعال الحقد في قلوبهم، ولا يزكى نار العداوة فيها، ولكن جاء هذا التوكيد فلتة من فلتات لسانه كتعبير شعور تلقائي يفيض به قلبه الذي يكاد ينفطر لمجرد تصور الفراق ولو لساعة يسيرة، فيأتي هذا الكلام المؤكد بأكثر من وسيلة من وسائل التوكيد كاشفاً عن تلك الحال ومبيناً لها أتم التبیین.

وبدل لذلك أيضاً تعبيره بالفعل دون الاسم فعبّر بـ "أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ" بدلاً من "تذهبكم به" فأتى الكلام كاشفاً عن حال المتكلم بذلك، وهو أن الحزن المؤكد

يلم به لمجرد وجود فعل الذهاب ومجرد تصور الحدث، بله ما تحدثه نفسه به - وهو صاحب النفس الملهمة - من ذهاب بلا رجعة مريية، فلذلك جاء التعبير بالفعل الدال على مجرد الحدث دون الاسم الدال على الثبوت والدوام.

التنوين بين حروف الجر:

وذلك كما في قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦٠-٦١) [الأعراف: ٦٠-٦١] ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك التنوين في الآية بين الحرف (في) وحرف (الباء). ومعلوم أن (في) تفيد الظرفية والانغماس بالكلية في الشيء أما الباء فهي تأتي للملابسة.

وسر هذا التنوين يرجع إلى أن الملاء من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بأن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له في ضلال مبين بما يفيد لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (في) من معنى الإحاطة والانغماس في الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح في نفي هذا الاتهام مسلكا أكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعها نكرة في سياق النفي لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفي أدنى ملابسة له بالضلالة. فكانه قال (ليس بي شيء من الضلال) (٣٧) أو (ليس بي نوع من الضلال ألبتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب) (٣٨).

ومن ذلك التعبير بـ (في) بدلا من (على) في قوله تعالى: "أَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ" (طه: ٧١) لتتأمل الجمال في التعبير بـ (في) الدالة على الظرفية لما تعطيه هنا من الدلالية على تمام الإيثاق، وإحكام القيد، ومن ثم شدة التعذيب. فالآية قد ضمنت الفعل (أَصْلَبْنَكُمْ) معنى (أَجْعَلْنَكُمْ) فجمعت لنا معنى الفعلين معا في فعل واحد عن طريق النيابة في الحرف.

ومثل هذا يعرف بظاهرة التضمن، ويجري على التضمنين بهذه الدلالة

كثير من أفعال القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

يقول الدكتور: محمد نديم فاضل: "فتضمن الرِفْث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفشاء، والمتعدى بـ " إلى "، يمنح العلاقة بين الزوجين لمسة إنسانية تترفع بها عن عالم الحيوان، لمسة حانية، فيها من الرفق والنداوة والشفافية مثلما فيها من سمو المشاعر، وتحسر (إلى) هذه عن مسافر وجهها الجميل لتحكي ما اشتملت عليه المشاعر حين جمعت الرِفْث إلى الإفشاء فيما أحل الله للزوجين في شهر الصيام لتتأى بهما عن عرام الجسد، والحبس في الرغبات المكبوتة في اللحم والدم بعد أن تستتبّع خلفها معنى الستر يتدثر به كل من الزوجين، وتتصل بأفق أرفع من الأرض وبغاية أسمى من اللذة، ترقّ وترقى إلى معارج عليا.... وحسب التضمين أنه جعل في لفظ الرِفْث نداوة يخضر بها، ويرمي ظلاله، ولمسة رفاقة تتأى عن عرام الجسد تبتغي الإعفاف والإنجاب، وتوقظ معنى الستر في هذا الحرف " إلى "، فجمع من صنوف البيان ما ذاع صيته على كل لسان" (٣٩).

يقول ابن جني: " اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بأخر فإن العرب قد تنتسج فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه. وذلك كقول الله عز اسمه: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة وإنما تقول: رفثت بها، أو معها؛ لكنه لما كان الرِفْث هنا في معنى الإفشاء؛ وكنت تعدي أفضيت بآلى كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بآلى مع الرِفْث؛ إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه... (٤٠) ".

خامسا- التنويع الأسلوبي في مجال البناء النحوي:

نماذج التقديم والتأخير في متشابه القرآن:

فما ورد من ذلك في كتاب الله: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى

قَالَ يَمْؤُودُ إِنَّكَ أَمْلَأُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
[القصص: ٢٠].

مع قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ آتِيعُوا
الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [يس: ٢٠].

وقد أجاب الإسكافي عن سبب هذا التقديم والتأخير فقال: "إن الفاعل في
الموضعين لما كان نكرة فالمعنى: جاء جاء، وقد دل الفعل على جاء، ولا يكون
الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلاً، وكان الذي يفاد المخاطب
أن يعلم أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية، وحيث لا يقرب من
محاري القصة، ولا يحضر موضع الدعوة، ومشهد المعجزة، فقدم ما تبكيت
القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر؛ فقال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ ينصح
لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر
جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فبعثهم على اتباع
الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد: جاء من لا يعرفه
موسى من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم
به، فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه، فقدم ما أصله التقديم، وهو
الفاعل؛ إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصى المدينة كما كان ذلك
في الآية المتقدمة" (٤١).

علل الإسكافي تقدم الجار والمجرور في سورة يس بأهمية إبراز البعد
المكاني، ولعله يلمح إلى بيان أثر هذا البعد في إظهار المفارقة بين من يسعى
لإجابة الرسل من أقصى المدينة، وبين من أعرضوا عن دعوة الرسل الذين
أتوهم في ديارهم ومحالهم دون كلفة عليهم ولا عناء، ونلاحظ أن الإسكافي قد
علل هنا للآية التي تقدم فيها الجار والمجرور على الفاعل الذي هو ركن
الجملة، أي اكتفى بالتعليل لما خرج عن الأصل، ولم ير داعياً لتعليل ما وافق
الأصل، وهو آية القصص التي تقدم فيها الفاعل.

أما ابن جماعة فقد ألمح إلى فائدة أخرى في تقديم الجار والمجرور - من أقصى المدينة - وهي انتفاء التواطؤ بينه وبين الرسل، أما الآية الأخرى فلم يعلل لتقدم الفاعل فيها باعتباره "جاء على الأصل في تقديم الفاعل على المفعول الفضلة" (٤٢).

وبنحو التعليل السابق لتقدم الجار والمجرور جاء كلام الألويسي موضحاً ما ألمح إليه الإسكافي من المفارقة التي أشرنا إليها؛ فقال: "وجاء {من أقصى المدينة} هنا مقدماً على {رَجُل} عكس ما جاء في القصص، وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة.

وقال الخفاجي: قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بياناً لفضله إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم، وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وإن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد، وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين" (٤٣).

وقد زاد الطاهر بن عاشور فائدة أخرى لذلك التقديم للجار والمجرور، واكتفى بالتعليل بموافقة الأصل في آية القصص فقال: "وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة؛ لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوههم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكترائهم بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو.

وبهذا يظهر وجه تقديم {من أقصى المدينة} على {رجل} للاهتمام بالشأن على أهل أقصى المدينة. وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصددهم عن الحق ما فيه أهل

السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة.. وأما قوله تعالى في سورة القصص (٢٠): ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان" (٤٤).

وقد وافق الكرمانى الإسكافي في تعليله لآية يس بما لا يخرج عن مضمون كلامه ثم اجتهد لتعليل التقديم الموافق للأصل معوّلاً على مراعاة النظر السابق في السياق فقال: "خصت هذه السورة - القصص - بالتقديم لقوله قبله: (فوجد فيها رجلين يقتتلان) ثم قال (وجاء رجل)، وخصت سورة يس بقوله: (وجاء من أقصى المدينة) لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً" (٤٥).

والحق أن التعليل بموافقة الأصل حسب ما ذهب إليه الكرمانى والطاهر بن عاشور وغيرهما غير كاف؛ وذلك لاتساع الاختيار بين موافقته أو الخروج عنه، فالحق أن كلا الأمرين - موافقة الأصل، والخروج عنه - بحاجة إلى التعليل من الناحية البلاغية الفنية؛ وذلك لأننا بصدد البحث عن أسرار الجمال القرآني، ولسنا بصدد البحث عن موافقة الأصل أو القاعدة اللغوية.

كما أن التعليل - الذي ذهب إليه الكرمانى بمراعاة النظر بأن يقال: إنه قال: (رجل) ليوافق (رجلين) غير مقبول؛ وذلك لأنه يصلح أن يكون بيانا لعلّة تكرار اللفظ، لا بيانا لعلّة التقديم؛ وذلك لأن الآية الأخرى - آية يس - قد ورد فيها لفظ (رجل) مؤخراً ولم يسبقه في السياق لفظ (رجل) ولا (رجلين).

ومن ثم فلا بد من البحث عن علة أخرى غير ما ذكرنا - أقصد الإسكافي والكرمانى - ولعل تلك العلة هي ما ألمح إليها كلام ابن كثير، وإن كان لم يشبعها بالتعليل والإيضاح الكافي؛ حيث قال: "قَالَ تَعَالَى: "وَجَاءَ رَجُلٌ" وَصَفَهُ بِالرَّجُولِيَّةِ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَأَاهُ فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ يَا مُوسَى: "إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ" أَيْ يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ "لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرُجُ" أَيْ مِنَ الْبَلَدِ "إِنِّي لَكِ مِنَ النَّاصِحِينَ" (٤٦).

والحق ما ألمح إليه كلام ابن كثير في هذا الموضع الذي جاء على الأصل من أن علّة التقديم ترجع - فضلا عن موافقة الأصل - إلى إبراز صفة الرجولية في هذا الرجل؛ وقد علل تلك الرجولية بأمور يمكننا أن نستشفها من إشارته السابقة، وهي:

- ذكاؤه بمخالفة الطريق المرصود لكيلا يدركه الرصد فيحول بينه، وبين الوصول لنبي الله ﷺ لنذارته وتحذيره وإعلامه بكيد قوم فرعون له.
- سلوكه الطريق الأقرب ليسرع إلى موسى قبل أن يصل إليه خطر.
- سبقه إلى موسى ﷺ وتمكنه من الوصول إليه قبل أن يحدق به خطر أعدائه؛ فأنقذه بذلك من القتل.
- إفشأؤه تأمر المملأ من قوم فرعون بقتل موسى لموسى ﷺ غير مبال ببطش فرعون وأذاه وعقوبته له التي لا تقل عن القتل والعذاب الشديد إن هو علم بأمره.
- إخلاصه النصيح لموسى ﷺ راجيا ثواب الله ورضوانه، كما يظهر من قوله له يَا مُوسَى " إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ " أَيِ يَتَشَاوِرُونَ فِيكَ " لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ " أَيِ مِنَ الْبَلَدِ: " إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ".

تقديم بعض الجمل المعطوفة بعضها على بعض:

قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

نلاحظ هنا تشابه الآيتين في أغلب ألفاظهما مع اختلافهما بالتقديم والتأخير في الجمل التي وقعت نعوتا لذلك اليوم.

وذلك أن "(يومًا) مفعول به، وجملة "لا تجزي نفس" نعت لـ "يوم"، والأصل: لا تجزي فيه، ثم حُذف. "شيئًا": نائب مفعول مطلق، أي: لا تجزي

جزء قليلا ولا كثيرا. جملة "ولا هم ينصرون" معطوفة على جملة "ولا يؤخذ منها عدل" في محل نصب" (٤٧).

وهاتان الآيتان قد وقف عندهما كثير من المفسرين، وممن صنفوا في متشابه القرآن متسائلين عن سر الاختلاف بينهما بالتقديم والتأخير؛ حيث قدم جملة النعت النافية لقبول الشفاعة في الآية الأولى على النافية لقبول العدل، وعكس ذلك في الآية الثانية.

وقد حاول الكرمانى الإجابة عن سرّ هذا التقديم والتأخير في الموضعين؛ فقال في الموضع الأول: "قدم الشفاعة في هذه الآية وآخر العدل، وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة وآخر الشفاعة، وإنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعائهم عند الله.

وآخرها في الآية الأخرى؛ لأن التقدير في الآيتين معا لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة لأن النفع بعد القبول، وقدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها" (٤٨).

ثم عاد للكلام عنهما في الموضع الثاني فقال: "هذه الآية والتي قبلها متكررتان وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيهها ووعظاً؛ لأن كل واحدة وقعت في غير وقت الأخرى والمعصية الأولى "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" (البقرة: ٤٤) والثانية: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" (٤٩) [البقرة: ١٢٠].

والحق أن كلام الكرمانى – في الموضعين ليس كله مقنعاً؛ فلئن قبلنا كلامه في أنه: "إنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم، وأن الأصنام شفعائهم عند الله" – أقول إن قبلنا ذلك – فإننا لا نقبل تعليله لتأخير الشفاعة في الآية الأخرى.

فقوله: "قدم العدل في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها" غير مقبول؛ لأنه لا تلازم بين ذكر العدل والقبول بدليل أنه جاء في الآية الأخرى:

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ فضلا عن ذلك إن قلنا: (إن العدل والقبول متلازمان) فقبول العدل لا يلزم منه قبول الشفاعة - حيث يرى أنه قدم قبول العدل لأن الشفاعة لا بد أن يسبقها القبول.

وكذلك إجابته في الموضع الثاني غير مقنعة كذلك، وهي جعله تكرر الآيتين "لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيها ووعظا"؛ فهذا الكلام غير مقنع؛ لأن جرائم بني إسرائيل المسرودة في سورة البقرة بين هاتين الآيتين عديدة يصعب حصرها من تجرؤهم على نبيهم، واستطالتهم عليه، وسوء أدبهم معه، وتلكؤهم في تنفيذ أوامره، والاستجابة لأمر الله، مع كثرة سؤالهم وتعتهم في قصة ذبح البقرة، وغير ذلك.

أما الرازي فقد جعل "الجواب: أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين" (٥٠).

وبنحو هذا أجاب الشيخ زكريا الأنصاري (٥١).

فنزل الآيتين على صنفين من الشافعين؛ وهذا أحسن من جواب الكرمانى السابق.

أما الغرناطي فقد نظر نظرة أعمق في سياق الآيتين فقال: "وجه ذلك والله أعلم أنه لما تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون في ذلك نجاته، وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم" فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحسانى للمأمورين بالبر حين قبلوا وامتلأوا أخذاً بظاهر حال الأمرين وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون" (٥٢).

فهو يوجه بذلك مناسبة تقدم الشفاعة في هذا الموضع بأنه قد سبقها ما يرشح لاتكالمهم عليه - في أفهامهم السقيمة، وهو الأمر بالبرّ وامتثال الأمرين له - حسب ظاهر الأمر - أما الموضع الثاني فلم يسبقه ما يشير لشيء من ذلك؛ فلذا لم تقدم الشفاعة فيه.

وهذا الكلام لا يبعد كثيرا عما علل به الكرمانى، وإن كان يدل على تعمق صاحبه في سياق الآيات بصورة أكبر.

وقد أجاب الإسكافي عن ترتيب هذه الجمل بكلام جميل نفيس، رأيت أن أذكره كاملا لنفاسته فقال: "الوجه في الأولى: أنه لما قال: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ بمعنى لا يغني أحد عن أحد فيما يلزمه من العقاب، ولا يكفر سيئاته ما له من الثواب، وهو كقوله عز من قائل: ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانِبٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، فهذه الأشياء التي ذكر - في هذه الآية - امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع تنفى بها المكارة، وتتداوى بها الشدائد ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كراهية، وارتهنت نفسه بعظيمة، وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه، وتخليصه منه بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته، ولا يد له بمدافعته عاد بوجوه الضراعة، وصنوف المسألة والشفاعة، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتان، ولم تنجبه الخلتان من الخشونة واللين لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله، وفكّه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره.

فإن لم تغن عنه هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة... فأخبر الله تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين، وترتب هذه المراتب بين العالمين، لا يغني منه شيء في الآخرة عن الظالمين" (٥٣).

ورغم هذا التحليل الرائع لبيان مناسبة الترتيب في الآية الأولى؛ فإن بيانه لمناسبة اختلاف الترتيب في الآية الثانية لم يكن مقنعا للوقوف على علة

الاختلاف بين الآيتين حيث جعل تقديم العدل وتأخير الشفاعة فيه ليفيد أن "معنى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تغني عنها بداء.. ويكون بعد ذلك (ولا تنفعها شفاعة) معناه: ولا تخفف مسألة من عذابها، ولا ينقص شفيع من عقابها" (٥٤).

والحق أن هذا الكلام منه غير مقنع في هذه الآية الثانية؛ لأنه لم يبين لنا ما الذي اقتضى هذه المخالفة في المعنى بين الموضعين مع اتحاد الألفاظ (العدل - الشفاعة) فضلا عن أن ما ذكره في معنى العدل والشفاعة في الآية الثانية ليس مخالفا في الحقيقة لما ذكره من معناهما في الآية الأولى بل هو من مقتضاه ولوازمه.

غير أن أمثل ما رأيته من كلام المصنفين في المتشابه في هاتين الآيتين: كلام ابن جماعة. قال ابن جماعة في جوابه عن سر التقديم والتأخير في الآيتين: "إن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية، كأنه يبين في الآية الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ ولأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها.

ويبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع فيها..؛ فلذلك كله قال في الأولى: (ولا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية: (ولا تنفعها شفاعة)؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له" (٥٥).

وهذا - في رأيي - أحسن ما قيل في توجيه متشابه التقديم والتأخير في الآيتين؛ وذلك أنه بين أن ثمة نفسيين: نفسا جازية شافعة، ونفسا مأخوذة بجريرتها تبحث عن يجزي عنها، أو يشفع لها، أو يفديها، أو يحاول نصرها.

وجعل الكلام في الموضع الأول عن النفس الجازية الشافعة، وفي الموضع الثاني عن النفس المأخوذة بجرمها.

وبيّن سرّ التقديم والتأخير في الموضعين وهو ما بين مناسبة التقديم والتأخير لكل موضع مما نيط به، وكشف في الوقت نفسه عن صحة ما حمل عليه الكلام من معنى النفس في الموضعين.

فبين أن تقديم الشفاعة أنسب في الآية الأولى؛ حيث الحديث عن النفس الجازية الشافعة "لأن الشافع يقدم الشفاعة على بذل العدل عنها"؛ وذلك صحيح لأن الشافع يقدم في الشفاعة ما هو أيسر عليه، وأقل كلفة، ولا شك أن الشفاعة بالجاء والقول أيسر منها بالعدل وهو الفداء بالمال أو النفس ونحوهما.

وبين في الآية الثانية أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل أي فداء عن نفسها، ولا تنفعها شفاع شافع فيها..؛ فلذلك كله قال في الأولى: (ولا يقبل منها شفاع) وفي الثانية: (ولا تنفعها شفاع)؛ لأن الشفاع إنما تقبل من الشافع، وإنما تنفع المشفوع له.

لكن بقي أن نقول: إنه مع اختلاف المقصود بالنفس في كل، وما يعود على كل؛ فلم يختلف سياق الآيتين بين النفس الجازية، والنفس المأخوذة بجرمها في قوله (لا تجزي) وقوله: (ولا هم ينصرون)؛ وذلك لأن كلا من النفسين منفي عنهما ذلك، وهما فيه سواء في ذلك اليوم، كلاهما: لا يجزي، وكلاهما لا ينصر.

ومن ذلك أيضا (من تقديم بعض المفردات المعطوفة بعضها على بعض):

قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْخَذْ أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ [محمد: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأُمُورِ وَالْأُولَادُ كَمِثْلِ غَيْثٍ أَجَبٍ الْكُفَّارُ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ فَرَّتْهُ مَصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِّنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا الْإِقَاءَ يَوْمَئِذٍ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقد اجتهد المفسرون في بيان سرّ التقديم والتأخير بين هذه الآيات فقال الرازي: "قال هناك: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ﴾ وقال ههنا: ﴿إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ [الأعراف ٥١] فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو" (٥٦).

وقد تبعه في ذلك ابن عادل في اللباب، ولم يزد عليه (٥٧).

وكلامهما في هذا الموضع – إن قبل في هذين الموضعين - غير شامل لكل المواضع.

وقد حاول الطاهر بن عاشور التوجيه البلاغي لهذا التقديم عند آية العنكبوت فقال: "وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث كقول قيس بن الخطيم مشيراً إلى الموت:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها ولم توجه الإشارة إلى الحياة في سورة الأنعام. ووجه ذلك أن هذه الآية لم يتقدم فيها ما يقتضي تحقير الحياة فجاء باسم الإشارة لإفادة تحقيرها وأما آية سورة الأنعام فتقدم قوله (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) فذكر لهم في تلك الآية ما سيظهر لهم إذا جاءتهم الساعة من ذهاب حياتهم الدنيا سدى.

وأما تقديم ذكر الله هنا وذكر اللعب في سورة الأنعام فلأن آية سورة الأنعام لم تشتمل على اسم إشارة يقصد منه تحقير الحياة الدنيا فكان الابتداء بأنها لعب مشيراً إلى تحقيرها لأن اللعب أعرق في قلة الجدوى من اللهو^(٥٨).

وينتقض عليه هذا الكلام بأن آية الأعراف لم تشتمل كذلك على اسم الإشارة؛ ومع ذلك فلم تبدأ باللهو.

أما الكرمانى فقد كان أكثر دقة وشمولية حيث ذهب إلى أنه "إنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا، واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب" كلعب الصبيان، ولهو كلهم الشباب، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان، وتكاثر كتكاثر السلطان...

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا، وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا^(٥٩).

فالكرمانى قد بين سرَّ تقديم اللعب في الجملة بما يشبه مونه الأصل الذي لا يحتاج إلى تبرير؛ وذلك لأن الأصل البدء باللعب؛ لأنه زمن الصبا، وهو أسبق من اللهو الذي يكون في زمن الشباب، واستشهد لذلك بآية الحديد التي رأى أنها قد جاءت مقسمة على أزمان الدنيا وأحوالها.

ثم فسر تقدم اللّهُ في الأعراف لأن ذلك في القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى؛ أي فسر على آخر عهدهم بالدنيا قبل القيامة، وهو اللّهُ الذي أوردتهم المهالك.

أما العنكبوت فلما كان المقصد هو مقارنة الدنيا بالآخرة وبيان أنها سريعة الانقضاء قليلة البقاء، بدأ بذكر اللّهُ لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

أما الإسكافي فقد اقتصر على موضعين لكل نوع؛ فذكر في تقدم اللعب آيتي الأنعام والحديد، وفي تقدم اللّهُ آيتي الأعراف والعنكبوت.

وذهب في تعليل تقدم اللعب في الأنعام بأنه ورد في جماعة من الكفار كانوا يستهزئون بآيات الله ويتخذونها هزوا ولعبا مستشها بما ورد من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْلَمُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْذَرْتُمُوهَا لِلَّهِ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، قال: "فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ، وسمعوا القرآن، وعذبوا عند سماعه، ولعبوا بآياته... فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم: اسم اللعب" (٦٠).

وعلل لترتيب آية الحديد بنحو ما علل به الكرمانى من بعده.

وعلل لترتيب آية الأعراف في تقديم اللّهُ بأنها إنما وردت في عامة الكفار "الذين شغلته الحياة الدنيا وحلاوتها، والولاية وغباوتها. واستجلاء ما مرنت عليه طباعها، وهذا هو اللّهُ" (٦١).

وذهب في بيان سر ترتيب آية العنكبوت إلى نحو ما ذكره الكرمانى من بعده مع شيء من التفصيل والتطويل.

وقد أطال الغرناطي في هذا الموضع بكلام طويل لا يخرج عما ذكره الإسكافي وما نقلناه عن الكرمانى فلم نشأ التطويل بذكر شيء منه.

وما قدمناه من كلام كل من الإسكافي والكرماني يعد تعليلا وافيا وشاملا لبيان سر التقديم والتأخير في هذه الآيات.

تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض:

فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاعَةُ﴾ (٣٣) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴿[عبس: ٣٧].

وقوله: ﴿يُصْرُوفُهُمْ يُودَّ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (١١) وَصَحْبِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) ﴿[المعارج: ١٤].

قال الرازي: "المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم، فإنه يفر منهم في دار الآخرة، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من صاحبة والولد، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين" (٦٢).

فالمراد إذن أن ترتيب الآية قد ورد على الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، على سبيل الإضراب عن الأدنى إلى الأعلى.

"فالآيات مسوقة لتصوير هول الموقف في يوم القيامة، واضطرار الإنسان إزاء هذا الهول إلى التخلّي عن أهله والفرار من أحبائه وعشيرته، وقد رتبت الآيات هؤلاء الذين يفر منهم ترتيبا يوحي بتصاعد الإحساس بهول هذا اليوم وكربه؛ فالمكروب يفر من أخيه قبل أن يفر من أبويه، فإذا زاد عليه الكرب فرّ من الأبوين، وبقي مستمسكا بالصاحبة والبنين؛ فإذا تضاعف عليه الهول فرّ من صاحبة، وبقي متعلقا بولده، حتى إذا بلغ به الكرب ذروته نسي فذات كبده، ولم يعد مهموما إلا بذاته ومصيره" (٦٣).

وبينما جاء الترتيب في آية الفرار تصاعديا، فقد جاء الترتيب في آية الاقتداء تنازليا على العكس من موقف الفرار؛ وذلك لأنه موقف قد بلغ فيه

الكرب والهول ذروته؛ وهذا ما تكشف عنه الآيات السابقة لهذه الآية من أول
 السورة إلى هذا الموضع، قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ
 دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
 أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ۝٨
 وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝١٠ يَبْصُرُونَهُمُ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ
 يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١﴾ [المعارج: ١١].

فلشدّة الكرب وهوله ورغبة المجرم في سرعة الخلاص من الكرب والهول
 فإنه يسارع بالافتداء بأعزّ ما يملك - إن كان يملك في ذلك اليوم شيئاً - فليس
 الموقف موقف مساومة؛ ثم إذا لم يقبل ذلك منه زاد أكثر وأكثر حتى يفتدي بمن
 في الأرض جميعاً إن كان يملك ذلك على أن ينجو بذلك.



ملخص الوحدة الرابعة

- تم التعريف بظاهرة التنويع الأسلوبي، وعرض أهم المصطلحات التي أطلقها البلاغيون القدماء عليها.
- عرض مجالات تحقق هذه الظاهرة في القرآن الكريم، وهي: مجال الصيغ - مجال العدد- مجال الضمائر - مجال الأدوات - مجال البناء النحوي.
- تحليل عدد من الآيات من خلال تلك المجالات، والوقوف على سر التنويع الأسلوبي فيها.



أسئلة على الوحدة الرابعة

س١: حل الآيات التالية تحليلاً بلاغياً مع بيان قيمة التنويع الأسلوبى فيها:

- أ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ﴾
- ب- قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].
- ج- قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].
- د- قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِنْ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]
- هـ- قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

س٢: اكتب عن ظاهرة التنويع الأسلوبى فى القرآن الكريم، مع الاستشهاد بمثالين.

س٣: يعد التنويع الأسلوبى فى مجال الصيغ فى القرآن الكريم أحد الألوان البلاغية فى النص القرآنى. وضح ذلك، مع التمثيل.

س٤: يعد التنويع الأسلوبى فى مجال العدد فى القرآن الكريم أحد الألوان البلاغية فى النص القرآنى. وضح ذلك، مع التمثيل.

س٥: يعد التنويع الأسلوبى فى مجال الضمائر فى القرآن الكريم أحد الألوان البلاغية فى النص القرآنى. وضح ذلك، مع التمثيل.

س٦: يعد التنويع الأسلوبى فى مجال الأدوات فى القرآن الكريم أحد الألوان البلاغية فى النص القرآنى. وضح ذلك، مع التمثيل.

س٧: يعد التنويع الأسلوبى فى مجال البناء النحوى فى القرآن الكريم أحد الألوان البلاغية فى النص القرآنى. وضح ذلك، مع التمثيل.



نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول:

أ- نجد أن لفظتى (صافات - ويقبضن) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة مثل: (صافات قابضات) أو (يصففن ويقبضن).

فالنمط الأول: (صافات قابضات) تكرر فيه اسم الفاعل.

والنمط الثاني: (يصففن ويقبضن) تكرر فيه الفعل المضارع.

وأي من النمطين جاء على أسلوب واحد هو صيغة اسم الفاعل في الأول، وصيغة الفعل المضارع في الثاني دون تنويع في الأسلوب.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل الدال على الثبات للتعبير عن الحدث فى اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد للتعبير عن الحدث فى اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

ب- فلو قيل "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد، وذلك أن المقصود فى الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك المعنى الأصلى باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن فى التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيدته التعبير باسم الفاعل.

ج- عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبى ﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبى ﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل.

د- جاء اختيار المصدر (الحياة) للتعبير عن الحياة في الدنيا، وجاء اختيار المصدر (الْحَيَوَانُ) على صيغة (الفعالن) للتعبير عن الحياة في الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك في مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

هـ- نلاحظ أن الآية اختارت (كسبت) على وزن (فعل) في الدلالة على فعل الخير، بينما آثرت (اكتسبت) على (كسبت) في الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل على صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتي لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة في معنى الفعل.

هوامش الوحدة الرابعة

- (١) الكشف للزمخشري ١٢٤/٤.
- (٢) عبد السلام - المسدى / الأسلوبية/ص ٩٤.
- (٣) دلائل الإعجاز ص ١٧٧.
- (٤) انظر العدول إلى اسم الفاعل.
- (٥) انظر الألوسى ١١/٢، والكشاف ١٠١/١، وانظر الرازى ٥٠٩/٢.
- (٦) انظر الدر المصون ٤٠١/١.
- (٧) انظر الظلال ١٣٥/١.
- (٨) المثل السائر ص ١٨٠.
- (٩) انظر تفسير الرازى ١٢٠/١٢ والكرمانى ص ٨١.
- (١٠) الرازى ١٢٠/١٢، وأحب أن أنبه إلى أن أكثر المفسرين قد انشغلوا فى هذا الموضوع بمجىء الكلام المذكور على لسان فرعون فى سورة الشعراء؛ وعلى لسان الملأ فى سورة الأعراف، فانشغلوا بذلك عن تأمل ما ذكرت، وقد التفت بعضهم إلى اختلاف الصيغة فى السورتين ولكنه لم يحسن توجيه ذلك الاختلاف. (انظر على سبيل المثال الكشاف ٨١/٢، الألوسى ٢٢/٩-٢٣، مفاتيح الغيب ٢٢٨/٧، مسائل الرازى ص ٩٧).
- (١١) انظر الكشاف ١٥٩/٣ وانظر أبو السعود ٤٧/٧، والنظر ما سبق نقله عن سيبويه فى معنى الفعلان فى الفصل الخاص بالمناسبة بين الصيغة والمعنى.
- (١٢) الكشف ٦٧/٢.
- (١٣) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، - أبو السعود ٢٣٥/٣.
- (١٤) انظر الجاللين ص ٢٠٢.

- (١٥) الألوسی ١٥١/٨.
- (١٦) التبیان للطیبی ١٧١/١.
- (١٧) انظر الكتاب لسيويه ٢٤١/٢ وانظر شرح الشافية ١٠٨/١ وانظر الحملاوى
شذا العرف ص ٤٤.
- (١٨) انظر سيويه ٢٤١/٢.
- (١٩) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.
- (٢٠) انظر الكشف ١٧٢/١ وانظر الرازى ٥٢/٥١/٤.
- (٢١) انظر الطبرى ١١١/٢٩.
- (٢٢) انظر المحرر الوجيز ٣٩٣/١، وقد نقل كلامه كل من القرطبي ١٢٣٨/٢،
١٢٣٩، والسمين الحلبي ٦٩٧/٦٩٦/١.
- (٢٣) المثل السائر ص ١٨٣.
- (٢٤) المثل السائر ص ١٨٣-١٨٤.
- (٢٥) سورة النساء/١٣/١٤.
- (٢٦) تفسير أبى السعود ١٥٤/٢.
- (٢٧) انظر الكشف ١٤٦/٤.
- (٢٨) انظر التبيان للطيبى ١٥٣/١.
- (٢٩) انظر الكشف السابق - الرازى ٧٦٩/١٥ الألوسی ٨٦/٢٩ - الدر المصون
٣٩٢/٦، القرطبي ٦٨٠٤/١٠.
- (٣٠) انظر البحر المحيط ٢٨٣/٢.
- (٣١) روح المعانى ١٤/٣.
- (٣٢) انظر بدائع الفوائد ١١٩/١ ط / دار الفكر.

- (٣٣) انظر روح المعاني - السابق.
- (٣٤) انظر تفسير أبي السعود ١٤٥/٥.
- (٣٥) الالتفات عرفه الطيبي وغيره بأنه الانتقال من إحدى الصيغ إلى صيغة أخرى رعاية لنكتة. انظر التبيان في المعاني والبيان - بتحقيقي - ط مكتبة نزار الباز.
- (٣٦) المثل السائر ص ١٧٩-١٨٠.
- (٣٧) الكشف ٦٧/٢.
- (٣٨) الرازي ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤ - أبو السعود ٢٣٥/٣.
- (٣٩) د/ محمد نديم فاضل (التضمن النحوي في القرآن الكريم) طبع ونشر مكتبة دار الزمان- بالمدينة المنورة ٣٦٧/١، وسيأتي تعقيبنا على كلامه قريباً
- (٤٠) الخصائص - (ج ١ / ص ١٩٥).
- (٤١) الخطيب الإسكافي - درة التنزيل وغرة التأويل - تحقيق محمد مصطفى أيدين - ١٤٢٢هـ - ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥.
- (٤٢) ابن جماعة: ص ٣٠٤.
- (٤٣) الألوسي - تفسير روح المعاني - ط دار إحياء التراث العربي (ج ١٦ / ص ٤٤٧)
- (٤٤) التحرير والتنوير (ج ١٢ / ص ٢٣)
- (٤٥) الكرمانى: ١٤٥.
- (٤٦) تفسير ابن كثير (ج ١٢ / ص ٧٨).
- (٤٧) سيرد ذلك - إن شاء الله تعالى - في خاتمة البحث.
- (٤٨) مشكل إعراب القرآن - (ج ١ / ص ٧).
- (٤٩) الكرمانى: ص ١٢.
- (٥٠) أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٣٤).

- (٥١) تفسير الرازي - (ج ٢ / ص ٨٠).
- (٥٢) الشيخ زكريا الأنصاري: ص ٢٠.
- (٥٣) الغرناطي: ص ٣٩.
- (٥٤) الإسكافي - تحقيق محمد أيدين ٢٢٨.
- (٥٥) السابق.
- (٥٦) ابن جماعة: ص ٥٧ - ٥٨.
- (٥٧) تفسير الرازي - (ج ١٢ / ص ١٩٧).
- (٥٨) ابن عادل - تفسير اللباب (ج ١٢ / ص ٤٦٧).
- (٥٩) التحرير والتنوير - (ج ١ / ص ٣٢١٥).
- (٦٠) أسرار التكرار في القرآن - (ج ١ / ص ٦٨).
- (٦١) الإسكافي - تحقيق محمد أيدين - ٤٤/٢.
- (٦٢) السابق.
- (٦٣) تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٣٧٠).
- (٦٤) بلاغة العطف في القرآن الكريم ص ١٠٤.



الوحدة الخامسة

بلاغة الصورة البيانية في القرآن الكريم بين التصوير الفني والتصوير البياني

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- ١- الإيقاف على مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني في القرآن الكريم.
 - ٢- الإيقاف على مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم.
 - ٣- تقوية الحس البلاغي لدى الدارس بتحليل عدد من النماذج القرآنية المشتملة على العديد من الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

العناصر:

- ١- مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني في القرآن الكريم مع عرض نماذجه.
- ٢- مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم.
- ٣- تحليل عدد من النماذج القرآنية المشتملة على العديد من الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

مفهوم التصوير الفني:

التصوير الفني في أدق معانيه وأوضحها هو ذلك النوع من التعبير الذي تستنار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقاتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبر عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس والرؤى بطريقة تصويرية بارعة تتألق فيها

الألفاظ والتراكيب لتقرب تلك المعاني والأفكار والمشاعر إلى النفس بعرضها في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها، ويطيل الوقوف إزاءها ليتأمل مدى المطابقة بينها وبين الواقع متقاربة منه، أو متسامية عليه محقة في آفاق من الخيال والجمال.

التفريق بين التصوير الفني وبين التصوير البياني المعهود:

وإذا كان البلاغيون قد حصروا التصوير البياني في حدود الصور البيانية المعهودة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز فالحق أن التصوير الفني أوسع من أن يحد بحدٍّ أو صور بيانية بعينها؛ بل تتميز نماذجه بروعة التصوير وجماله سواء كان على مستوى الحقيقة أو المجاز.

ولك أن تتأمل - على سبيل المثال روعة التصوير لحال المنافقين وما انطبعت عليه نفوسهم من الجبن والخوف والهلع في قوله تعالى:

﴿لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧].

حيث تعجب لدقة التصوير الفني والجمالي في مثل هذا الموضع - من خلال استثمار طاقات الألفاظ والتراكيب على مستوى الحقيقة دون الاستعانة بشيء من المجاز أو التصوير البياني - على اختلاف فنونه وتنوعها - فتعجب كيف صوّر هذه الصورة المتحركة التي لا تصوّر المشاهد الظاهرة فحسب؛ بل تصوّر كذلك دواخل هؤلاء المنافقين وما انطبعا عليه من الجبن والخوف والهلع وشدة الحرص على الحياة والتعلق بها؛ فتراهم يبحثون عن أي ملاذ لهم معبرا عن شدة حرصهم على الحياة وتمنيهم لها بأداة الشرط (لو) وبالمضارع الدال على استمرارية هذا التمني وتجده منهم (يجدون) مع ما في دلالاته المعجمية على معنى البحث والتفقد، ثم التعبير بصيغة المكان (ملجأ) والإتيان بها منكراً في سياق الشرط لإفادة العموم؛ فهم يتمنون أي ملجأ يحتضنون به ولو كان حقيراً دنيئاً، ثم في التعبير بـ(أو) التي تفيد التخيير والتنويع لتدل هنا على استواء تلك الملاجئ لديهم؛ لأن ما يغلب على تفكيرهم، ويهجم على نفوسهم هو

محاولة اللجوء والاحتماء بأي سبب من الأسباب، ثم في جمع (المغارات) مع ما في دلالتها المعجمية من معاني الغور والبعد والاختفاء، ثم لك أن تتأمل جمال التعبير في صيغة اسم المكان (مدّخلا) المأخوذة من الفعل (يدخل) - على صيغة (يفتعل) التي تأتي لتكلف الشيء ومحاولته ليصوّر لك شخصا يحاول أن يحشر نفسه في مكان ضيق حشرا بنوع من التكلف والمحاولة والمبالغة في الفعل، ثم في التعبير بلام التوكيد في (لؤلؤا) مع التعبير بالتوّلّي وما فيه من معنى الهروب والفرار والجبن والتخاذل والهلع وغير ذلك من المعاني التي تأتي محمولة على اللفظ، ولا يقوم بها لفظ دونه، ثم التعبير بـ(إلى) التي تفيد التوجه والقصد إلى تلك الأماكن على بعد المسافة عنها مسارعة في اللجوء إليها والاحتماء بها، ثم في التعبير بتلك الجملة الحالية التي تصور حالهم وما صاروا إليه من الخوف والهلع الذي صورته القرآن من خلال جموح البصر وجحوظه وثباته نحو تلك الملاجئ لا يحول عنها ولا يزول، وذلك من خلال دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام على تلك الصفة.

ولك أن تتصور كذلك براعة التصوير وجماله في هذه الصورة الكلية الحقيقية التي يرسمها رب العزة - جلّ وعلا للكون بعد إهلاك الكافرين من قوم نوح بالطوفان، وإنجاء نوح والمؤمنين معه في سفينة النجاة في قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِصَّ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

"وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِصَّ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع! أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، إلى أن تستقرئها إلى آخرها، وأن الفضل تنتاج ما بينها، وحصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلي واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ(يا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلي الماء، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة (فَعَلَ) الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر. ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: (وَقَضَى الْأَمْرُ). ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ). ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة بـ(قيل) في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟^(١).

ففي هذا النص السابق يبين لنا عبد القاهر الجرجاني أن اتساق المعاني – في هذا النص وغيره – لم يكن إلا لاتساق الألفاظ وحسن تركيبها وتناسقها، وهو أمر تتضافر في تحقيقه علوم البلاغة وفنون القول جميعها في القديم والحديث؛ وذلك أنه لا ينكر ذو ذوق روعة التصوير لهذا الحدث الجلل في الآية السابقة، ولا يستطيع عالم كذلك من علماء البلاغة نسبة تلك الروعة، أو تفسير مظاهر الجمال في هذه الآية في ضوء فنون البيان المعهودة المحدودة فقط؛ إذ ليس في الآية تشبيه ولا كناية ولا شيء من المجاز المعهود إلا بضرب من التكلف والتمحل في القول بشيء منها؛ اللهم إلا في استعارة البلع للأرض – وإن كان ذلك أيضاً مما يجري مجرى الحقيقة – أتراك تتجاهل كل ما بين لك من مظاهر الجمال في الآية النابع من تناسق ألفاظها وانسجام حروفها ثم تبحث بعد ذلك كله عن صورة جزئية تنسب لها الفضل كتلك الاستعارة.

وماذا عسى أن تكون تلك الاستعارة في تلك الصورة المتلاحمة الأجزاء؛ حيث كل كلمة فيها؛ بل كل حركة إنما هي جزء لا يتجزأ من نسيج تلك الصورة الرائعة، ومما يزيد تلك الصورة روعة ما نشاهده فيها من الحركة والحياة؛ فثمة أمر إلهي للأرض فإذا هي تستجيب على الفور فتبلع ماءها فكأنما هي قد انقلبت حوتا عظيما يبلع تلك المياه العظيمة، وفي الوقت نفسه تؤمر السماء فتقلع عن هطولها؛ فترى المطر ينقطع، وترى السحاب ينقشع، وترى صفحة السماء وقد صارت صافية ناصعة، وتنظر إلى الماء فتراه يغيض وينقص حتى يتلاشى في لمح العين؛ إنها صورة تفيض بالحركة، وتظهر فيها يد القدرة تحرك هذا الكون، وتتحكم في مقاديره.

التصوير الفني للمعاني المجردة:

وقد تظن أن التصوير لا يكون إلا للأحداث والوقائع وحركة الأجرام والأجسام، وتتغافل عن تصوير المعاني وحسن عرضها في أحسن صورة وأبهاها.

ويمثل لذلك أيضا - عبد القاهر - بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ فيقول: "ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرت فقلت: وجعلوا الجن شركاء لله، وأنت ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصوير النفس به إلى حاصل والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة. ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير. بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن. وإذا أخر فقيل: جعلوا الجن شركاء لله، لم يفد ذلك ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم

عبدوا الجن مع الله تعالى. فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه، وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن شركاء مفعول أول لجعل، والله في موضع المفعول الثاني، ويكون الجن على كلام ثاني على تقدير أنه كأنه قيل: فمن جعلوا شركاء لله تعالى، فقيل: الجن، وإذا كان التقدير في شركاء أنه مفعول أول، والله في موضع المفعول الثاني، وقع الإنكار على كون شركاء الله تعالى على الإطلاق من غير اختصاص شيء دون شيء، وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجرأة على شيء كان الذي تعلق بها من النفي عاماً في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة^(٢).

فانظر كيف جعل ذلك التعبير من الصورة المبهجة وجعل حالك - إن غيّرت تلك الألفاظ عن وضعها التي اتسقت عليه - حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل.

تصوير النماذج البشرية:

وقد تكون الصورة الفنية نموذجاً بشرياً للخير أو الشر، تعرضه عرضاً حقيقياً، توظف فيه أدوات اللغة وإمكاناتها دون شيء من صور البيان المعهودة من التشبيه والاستعارة والكناية ونحو ذلك، وإن شئت فتأمل هذا النموذج البشري للخيرية والكمال الإنساني لعباد الرحمن في القرآن الكريم:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝^(١٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝^(١٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝^(١٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝^(١٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝^(١٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۝^(١٨) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝^(١٩) يُضَاعَفْ لَهُ

الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٦٩﴾ [الفرقان: ٦٤-٧٢].

ومن ذلك أيضا فيما عدَّ من صفاتهم قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ يَخِذْنَ مَا أَنشَغَمَ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْأَيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

أو إن شئت تأمل فيما ذكر من حسن جزائهم في الآخرة:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَكَهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْجَنَّةِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

فتأمل هل ترى فيما عدَّ من صفاتهم أو من جزائهم شيئا من المجاز؟ أم أنك أمام صورة كلية رائعة لنموذج الخير البشري في هذا الوجود؟!

وتأمل في المقابل قول الله تعالى في أضداد هؤلاء:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

ألست أمام صورة عجيبة كذلك لنموذج الشرِّ في هذا الوجود، وهو ذلك الإنسان الكافر الجاحد المعرض عن عبادة ربِّه؟!

ومع إقرارك بجمال التصوير لتلك الصورة وإحكام الصنعة فيها فإنك تقرُّ كذلك بأنه ليس ثمة تشبيه ولا استعارة ولا كناية ولا مجاز!

تصوير المشاهد الغيبية:

وتأمل إن شئت كذلك صور القيامة ومشاهد الأهوال والعذاب والنعيم في ذلك اليوم مما يقسم ربُّ العزَّة جلَّ وعلا على وقوعه في نحو قوله تعالى:

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ قَوْلٌ يَوْمِيٌّ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥﴾ [الطور ١ - ١٥].

أفلمست ترى كيف يقررهم الله تعالى يوم القيامة بحقيقة ما يرون وبأنه واقع لا شك في رؤيتهم له ليس بالسحر ولا بالخيال؟!

وحتى لا يطول بنا المقام فإنني أحيلك على كتاب الله تعالى لتأمل ما فيه من صور الحقائق التي لا ريب فيها من ذكر أهوال القيامة ومشاهدها، ومن ذكر أحوال المؤمنين من المتقين والصالحين، وأحوال أصدادهم من الكافرين والعصاة والغافلين، وكيف كانت أحوالهم في الدنيا، وإلام صارت مآلاتهم في الآخرة.... الخ ما في كتاب الله تعالى من ذلك ونحوه من الحقائق^(٣).

وتأمل تلك الصور واللوحات التي يرسمها القرآن لصفحة الكون وجماله وإبداع الخالق فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٢٧﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ٢٨﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ٢٩﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

فتأمل في ذلك كله جمال التصوير وروعه مع أنك لست إلا أمام حقائق لا مزية فيها، وليس فيما يتلى عليك شيء من البيان أو التصوير المعهود مما اقتصر عليه المتأخرون في مباحث البيان.

بعض أمثلة التشبيه التمثيلي في القرآن:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

"هذا مثل ضربه الله لليهود، وهو أنه شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بها فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة: بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي ف تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع ﷺ وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدّلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم.

ووجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح الله تعالى هذا في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به....

كالعيس في البئداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والذي يظهر والله تعالى أعلم، أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتباً نافعة، والحامل حمار لا علاقة له بها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج آية: ٣١]. هذا تشبيه لحال المشرك الذي سقط من نظر الله، وسقطت مكانته عنده؛ فهو متنكس بضلالته، لا شأن له، يشبه من خَرَّ من السماء، لا شيء يحميه، أو ينقذه من الخطر الذي يحيط به، وهو لا بدّ واقع في المهالك والمهاوي المردية، تخطفه الطير فتقطّعه بمخالبها، وتمزقه إرباً إرباً، أو ستهوي به الريح في مكان سحيق، جزاء

وفقا إنها صورة التمزق والضياع التي يعيشها المشرك بالله، الكافر بنعمه، حينما يعرض عن طاعة ربه، وهي صورة مرعبة مخيفة، تمثل سوء العاقبة، وهول النهاية، وقد وردت على شكل التشبيه التمثيلي: فالمشرك في انخلاعه من حماية الله، وتركه المرفأ الأمين، كالساقط من السماء والأخطار تحقق به من كل مكان، "إنه مشهد الهوي من شاق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أو تقذف به الريح بعيداً بعيداً عن الأنظار: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ في هوة ليس لها قرار!

والملاحظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ «بالفاء» وفي المنظر بسرعة الاختفاء،، على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه؛ فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأهوام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه ^(٤).

٣- ومثاله أيضا قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] فالمشبه: حال من ينفق قليلا في سبيل الله، والمشبه به: حال من بذر حبة فأنبئت سبع سنابل، ووجه الشبه: هو صورة من يعمل قليلا فيجني من ثمار عمله كثيرا، وهو منتزع من أمور شتى: (حبة، وإنباتها سبع سنابل، وكون مائة حبة في كل سنبل).

٤- ومن الأمثلة أيضا:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاحُ الْبَعِيدُ﴾ [ابراهيم: ١٨].

فيه: تصوير لأعمال الكفار في عدم نفعها وأنها لا أثر لها يوم القيامة، ولا يعتمد عليها في نجاة صاحبها من النار، حيث يلتبسها وهو في أشد الحاجة إليها فلا يجدها كحالة الرماد الذي يتطاير في يوم عاصف فلا يقدر صاحبه عليه، . فهنا تشبيه هيئة بهيئة، وليس تشبيه مفرد بمفرد.

نماذج كلية للتصوير الفني والبياني في القرآن الكريم:

التصوير الفني والبياني لدعوة نوح قومه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ③ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ④ إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ⑤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبَّاءَ وَنَهَارًا ⑥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ⑦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ⑧ إِذَا نُهُتُمْ عَنْ آثَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ⑨ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ⑩ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ⑪ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑫ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ⑬ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ⑭ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑮ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑯ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ⑰ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ⑱ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ⑲ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا ⑳ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ㉑ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ㉒﴾ [نوح: ١ - ٢٠].

سبق أن بينا أن التصوير الفني هو ذلك النوع من التعبير الذي تستثار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبّر عن الصور والمعاني بطريقة تصويرية بارعة تتألق فيها الألفاظ والتراكيب لتقرب تلك المعاني والصور في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها.

ونستطيع أن نستعرض هنا - في دعوة نوح عليه السلام قومه - عددا من الصور الكلية والمشاهد الواقعية التي استثمرت فيها إمكانات اللغة بجميع مستوياتها اللغوية لعرض تلك المشاهد وتصويرها تصويرا فنيا رائعا يعاين المرء فيها تلك الصور والمشاهد وكأنه حاضر فيها مشاهد لها، فمن ذلك مشاهد

نوح عليه السلام في دعوته قومه ليلا ونهارا، خفية وجهارا، إعلانا وإسرارا، ترغيبا وترهيبا، دعوة متنوعة بوسائل عديدة منها القلبية الوجدانية، ومنها العقلية التأملية، وتستطيع أن تتأمل ملامح هذه الصورة واللوحة الفنية البارعة ونوح عليه السلام يدعو قومه، وهم معرضون عنه، وقد جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا.

وفي هذه الصور والمشاهد تتلاحم الصور البيانية الجزئية من تشبيه واستعارة وكنائية ومجاز مع الصور الكلية التي تسهم في تشكيلها جميع أدوات اللغة الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية مما سنقف على ملامحه في هذا العرض الموجز لتلك المشاهد.

* * *

تبدأ الآيات بمشهد عرض نوح عليه السلام دعوته على قومه ببيان واضح قوامه الترغيب والتبشير بمغفرة الله ورحمته، وإن كانت لا تخلو في الوقت نفسه من نبرة الترهيب والتلويع بعذاب الله تعالى وشدة أخذه وعقابه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ (٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) [نوح: ٣- ٤].

ومع أن الحوار هو - كما وقفنا على تعريفه - عبارة عن مراجعة الكلام بين طرفين؛ فإننا نلاحظ أن الحوار هنا بين نوح وقومه يكاد يكون من طرف واحد - هو نوح عليه السلام - والحوار من الطرف الآخر يكاد يكون سلبيا، أو بأساليب إشارية غير كلامية تدل على النفور والإعراض والصدّ بصور شتى (فِرَارًا - جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ - اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ - أَصْرُوا - اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

كما نلاحظ في هذه السورة الكريمة تنوع أساليب الدعوة بين الخطاب الوجداني المتنوع بين الترغيب والترهيب، والخطاب البرهاني العقلي التأملّي الاستدلالي.

فالخطاب الوجداني يخاطب فيه نوح عليه السلام قلوب قومه، ويبعث فيهم الرغبة والرغبة، فيرغبهم في مغفرة الله ورحمته، ويذكرهم بآلائه ونعمته، والخطاب العقلي التأملي يعرض لهم فيه أدلة ربوبيته ووحدانيته سبحانه في دعوة للتأمل والنظر في آلاء الله تعالى في الكون ومظاهر قدرته فيه، فاجتمعت في هذه الآيات طريقتا الخطاب القلبية الوجدانية بنوعيتها من حيث الترغيب والترهيب، والعقلية التأملية بأنواعها من حيث التأمل والبدية، وذلك في قوله عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٠ - ٢٠].

ف نجد أسلوب الترغيب واضحًا فيما وعدهم به إن استغفروا الله تعالى وتابوا إليه من إرسال السماء بالخير العميم مع كثرة أموالهم وأولادهم وتفجير الأنهار والجنات من تحتهم، إلخ.

ثم لما لم ينجح ذلك الأسلوب معهم لقسوة قلوبهم وإعراضهم لنا نحو زجرهم وتأنيبهم وتقريعهم فسلك مسلکًا حسنًا من مسالك الترهيب حيث قال: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) ثم عمد إلى طريقة الخطاب العقلي بدعوتهم إلى النظر والتأمل في مخلوقات الله تعالى للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته وسائر صفات ربوبيته وألوهيته سبحانه فقال: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا...).

وهو في ذلك يجمع بين دعوتهم إلى النظر والتأمل في صفحة الكون، والاستدلال ببدييات العقول وأقيستها المستقيمة المتفقة مع الفطرة السليمة.

وتتضافر في هذه الآيات الوسائل التعبيرية المختلفة على جميع المستويات اللغوية لتصوير هذا الحوار الدعوي الموجه من نوح إلى قومه.

التحليل الأسلوبي للوسائل التعبيرية المعبرة عن هذا الحوار:

يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار:

على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع الحوار السابق كما في الكلمات:

(مِدْرَارًا - يُمِدِّدُكُمْ - أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - نُورًا - سِرَاجًا - أَنْبَتُكُمْ - نَبَاتًا - وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا - بَسَاطًا - سُبُلًا - فِجَاجًا).

(مِدْرَارًا) المِدرار هي السماء التي تَدُرُّ المطر أي تصبُّه صَبًّا شديداً، يقال: "دَرَّ اللَّبَنُ يَدُرُّ دَرًّا، وكذلك النَّاقَةُ. وَدَرَّتْ عُرْوُفُهَا: امْتَلَأَتْ دَمًا. وَدَرَّتِ السَّمَاءُ: كَثُرَ الْمَطَرُ. وَسَحَابَةٌ مِدْرَارٌ. وَنَاقَةٌ دَرُورٌ...." (٥).

ويقال "للسحاب دِرَّةٌ: أي صَبٌّ. والجمع دِرَرٌ.... أي ذات دِرَرٍ. وَسَمَاءٌ مِدْرَارٌ، أي تَدُرُّ بالمطر" (٦).

وهذا يدلُّ على مدى مناسبة الكلمة لمعاني: دَرَّ المطر، ونزول الخير والبركة من السماء؛ فهذا من معاني الدر؛ ولذا قالوا في الدعاء على الشخص: (لا در درّه) أي لا كثر خيرُه.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

(يُمِدِّدُكُمْ): أثر التعبير بـ (يُمِدِّدُكُمْ) على غيرها مثل (يعطيكم) لما فيها من معاني المدد وهو العطاء المشتمل على الزيادة الممتدة بالعون والرِّفْد والنصرة،

"حكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثر شئ شيئاً بنفسه مدّه، وإذا كثره بغيره قيل أمده، نحو " يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ". ويدل ذلك على أن هذا الإمداد بالخير لا يكون إلا من ربِّ البرية المتكفل بأرزاق العباد (٧).

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ نَصَرُوا وَنَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدَدْكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ. وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٦].

(أَمْوَالٍ): تطلق الأموال على كل ما يتمول أي يمتلكه المرء من النقد والعرض والماشية والعقار والثياب وبالجملة تطلق على كل ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها.

وفي لسان العرب: "(مول) المال معروف ما مَلَكَته من جميع، . والجمع أَمْوَال وفي الحديث: "نهى عن إضاعة المال" قيل: أراد به الحيوان أي يُحَسِّن إليه ولا يهمل وقيل إضاعته إنفاقه في الحرام والمعاصي وما لا يحبه الله وقيل أراد به التبذير والإسراف وإن كان في حلال مُباح، قال ابن الأثير المال في الأصل ما يُمْلِك من الذهب والفضة ثم أُطْلِق على كل ما يُفْتَنَى ويمْلِك من الأعيان" (٨).

(أَطْوَارًا): "الطَّوْر: الحدّ بين الشَّيْئَيْنِ، والجمع أطوار، ...والطَّوْر أيضاً: فعلك الشيء بعد الشيء، فعلتُ الشيءَ طَوْرًا بعد طَوْرٍ، أي مرة بعد مرة، وفي التنزيل: "خَلَقْتُمْ أَطْوَارًا"، فَسَّرَ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مَضْغَةً، فهذا طَوْر بعد طَوْر، والله أعلم بكتابه" (٩).

فدلت هذه الكلمة بما لها من دلالة معجمية على قدرة الله وإعجازه في خلق الإنسان، ولا نكاد نجد كلمة تسدّ مسدها في الدلالة على أطوار الخلق ومراحلته المختلفة التي تختلف فيه كل مرحلة عن التي تليها والتي بعدها؛ كأن ثمة حدًّا فاصلا بينهما، وما هي إلا القدرة الإلهية.

كما نلاحظ وجه الإعجاز كذلك في التفرقة بين (نُورًا - سِرَاجًا) هي وصف القمر بالنور، وتشبيهه الشمس بالسراج تشبيه بليغ يدل على هذه الحقيقة العلمية الدالة على أن القمر إنما يستمد نوره من الشمس التي هي بمثابة السراج المنير؛ أما القمر فنوره مستمد من هذا السراج.

كما نلمح المناسبة التامة في هذه الاستعارة المكنية في وصف الخلق بالإنبات (أَنْبَتَكُمْ - نَبَاتًا-)؛ حيث وصف خلق الإنسان بالإنبات "بناء على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ناسب التعبير عن البعث وإعادة الخلق؛ لأن حقيقته إخراج من الأرض كإخراج النبات كما دلّت عليه النصوص فعبّر بالإخراج دون البعث والإحياء للدلالة على المشابهة والمساواة بين الحالين، فكما لا يستغرب إخراج النبات من الأرض ينبغي ألا يستغرب البعث لأنه إخراج الأجساد من الأرض، وإنبات أصلها المتبقي وإخراجه بالماء من الأرض كإنبات البقل سواء بسواء.

قال البخاري: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما بين النفختين أربعون". قالوا: أربعون يومًا؟ قال: "أبَيتُ". قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: "أبَيتُ". قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبَيتُ". قال: "ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبثون كما ينبثُ البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَلي، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١٠).

"فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجب، كذلك الخروج على هذه الوتيرة وبهذه السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري، ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب. وكذلك يعالج القلوب خالقُ القلوب" (١١).

وفي كلمة (بِسَاطًا) تشبيه بليغ يبين كيف أنه "جعل الأرض ممهودة مسهلة للسَّير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نُتوء فيها إلا نادرًا يمكن تجنيه" (١٢).

أما قوله: سُبُلًا فقتل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: "وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا"، أي أسلك فيها سبلاً، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض، أي داخلة فيها، أي متخللة، وذلك (كناية) عن كثرتها في جهات الأرض.

والمراد بالسبل: كلّ سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل الناس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابع الناس السير فيها "(١٣).

قال القرطبي: "السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين" (١٤).

قال الزمخشري في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَأْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] [فجاجاً] الفج: الطريق الواسع، فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لَتَسْلُكُنَّ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً كقوله:

لِعَزَّةٍ مُوحِشًا طَلًّا قَدِيمًا، .. فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة "(١٥).

جعلوا أصابعهم: المراد أناملهم؛ ومن ثم فهو (مجاز مرسل) علاقته الكلية، وإنما عبر بالأصابع على سبيل المبالغة في بيان مدى ما هم عليه من الإعراض والصدّ.

على المستوى الصوتي:

نلاحظ تناغم الحروف والحركات والكلمات وتلاؤمها وتناسبها فيما بينها دون تنافر أو ثقل في النطق، كما نلاحظ كذلك تنوعاً في فواصل السورة حيث

تبدأ السورة بفاصلة ميمية لآية واحدة تمثل مقدمة لهذه القصة، ثم يليها مقدمة نونية هادئة تمثل بدء دعوة نوح عليه السلام مع قومه، وبداية حديثه معهم وهو حديث يسوده العرض الهادئ والبيان الحكيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾
 قَالَ يَتَقَوُّوا لِئَلَّا تُكَذِّبُوا مِثْلَهُ ٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤﴾ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾ [نوح: ١- ٤].

وكما لاحظنا تميز كل واحد من الغرضين السابقين بفاصلة تخصه، نلاحظ كذلك اختلاف الفاصلة في الآيات التالية عن سابقتها، وحينما ننعم النظر نلاحظ أن هذه الآيات التالية إنما تمثل مرحلة جديدة من مراحل الدعوة تطورت فيها الدعوة من مرحلة البيان الهادئ إلى مرحلة جديدة من البيان الوجداني الذي تزداد فيه حدة الانفعال العاطفي ترغيباً أو ترهيباً، إزاء هذا الصدد والإعراض من قومه؛ فلذلك تميز هذا المقطع بفاصلة الرأء الممدودة بألف المد التي تنتهي بها آيات هذا المقطع.

أما على مستوى اللفظة المفردة فنجد إيماءات صوتية، وإيحاءات فنية تتناغم مع الدلالات المعجمية للكلمات كما في:

(جِهَارًا - مَذْرَارًا - يُمَدِّدُكُمْ - وَقَارًا - بِسَاطًا - سُبُلًا - فِجَاجًا)

حيث نلمح الشدة والجهرية في الجيم المجهورة في جهارا المتبوعة بمدين متتالين بعد حرف الهاء الآتي من الحنجرة مما يحكي عملية الجهر ويناسبها تمام المناسبة.

أما كلمة مدرارا فنحس أنها تحكي تتابع الماء وهطوله وتكرر نزوله بتشكيلها الصوتي العجيب الذي تتكرر فيه الرأء وهي حرف تكراري يظهر تكراره في النطق مما يدل على دقة اختيار هذه الكلمة التي تدل على التتابع والتكرار.

كذلك فإن تكرر الدال في (يُمَدِّدُكُمْ) يحكي كذلك عملية الإمداد وما فيها من اتصال ونكاد نستشعر ذلك الاتصال من اتصال الدالين وتلاحمهما في مقدمة الأسنان.

كما نلاحظ كذلك مناسبة الوقار بما تشتمل عليه هذه الكلمة وَقَارًا من القاف المفتوحة المفخمة التي ينفتح فيها الفم بشيء من الاستعلاء مع المد بعدها معبرا عن هذا الوقار.

وفي كلمة بِسَاطًا نلمح البسط والمد والسهولة في مدّ السين المهموسة، وما يتبع ذلك من الطاء الممدودة التي تكاد تحكي الطمأنينة والاستقرار.

وأما في (سُبُلًا - فِجَاجًا) فيساعد التشكيل الصوتي للكلمتين على التفريق بين دلّالتيهما والإيحاء بمعنييهما؛ حيث نلاحظ قلة حروف الكلمة سُبُلًا وتتابع الضم فيها وتقارب مخارج حروفها مما يدل على الضيق نسبيا في مقابل الانفساح والسعة الملحوظة في فِجَاجًا التي يدل تتابع المدّ فيها على ذلك الانفساح.

المستوى الصرفي:

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها.

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية: (أَصَابِعُهُمْ - آذَانُهُمْ - وَاسْتَعْشَوْا - اسْتَكْبَرُوا - اسْتَكْبَارًا - مَذَرَارًا - يُمَدِّدُكُمْ - أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - أَنْبَتَكُمْ - نَبَاتًا - وَيُخْرِجُكُمْ - إِخْرَاجًا - بِسَاطًا - سُبُلًا - فِجَاجًا).

يُمَدِّدُكُمْ: جاءت بصيغة المضارع لتدل على التجدد والاستمرارية فهو رفد وعطاء ونصرة وعون يتجدد بتجدد الأحوال والحاجة إليه.

ونلاحظ توظيف الآيات لصيغ الجمع نحو: (أَصَابِعُهُمْ - آذَانُهُمْ - أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - سُبُلًا - فِجَاجًا).

فاختار الجمع أَصَابِعُهُمْ وهم لا يضعون إلا إصبعًا واحدة للمبالغة والتهويل في عرض السورة ولبيان مدى ما هم عليه من المبالغة في الإعراض والصدّ حتى أنهم لو استطاعوا وضع جميع أصابعهم لفعلوا.

وكذلك جمع آذَانُهُمْ رغم أنهم لا يضعون الإصبع إلى في أذن واحدة وليس لهم إلا أذنان فقط؛ فجمع ذلك للغرض السابق نفسه.

أموال: "تطلق على كل ما يُقْتَنَى ويمْلِك من الأعيان" (١٦).

ومن ثم تشمل النقد والعرض والماشية والعقار والثياب، وبالجمله تطلق على كل ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها، والنكته في جمعها أن تشمل جميع صنوف المال وأنواعه، وتدل على تعدد وتنوع الخير الذي يصل إليهم _ إن أطاعوا الله تعالى _ ؛ فلا يقتصر على تصور أصل المال فقط عند الإطلاق، وهو الذهب والفضة "قال ابن الأثير المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ثم أطلق على كل ما يُقْتَنَى ويمْلِك من الأعيان" (١٧).

كذلك فإن الجمع أطوارًا جاء مناسبًا لتعدد أطوار خلق الإنسان (نطفة فعلة فمضغة فعظاما فكسى العظام لحما، ثم يخرج طفلا، ثم يبلغه أشده، ثم يصيره كهلا فشيخا).

كما جمع (سُبُلًا - فِجَاجًا) كذلك للدلالة على الكثرة والتعدد.

وقوله تعالى: (لو كنتم تعلمون) "جمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على استمرار النفي المفهوم من لو" (١٨).

المستوى النحوي (التركيب):

التركيب النحوية هي أساس النظم وعماده، وبدقتها وجمالها يكون التناسب والتناغم بين اللفظ والمعنى، وبين المقام وما تقتضيه مقتضيات الأحوال من خصائص تلك التركيبي؛ ومن ثم نلاحظ الدقة والتناسب التام بين هذه التركيبي والسياق والمقام الذي وردت فيه.

نلاحظ ذلك في التركيبي التالية:

﴿قَالَ يَفْعُولُ لِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [نوح: ٢] { قَالَ } استئناف بياني كأنه قيل: فما فعل عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال فقيل قال لهم: ﴿قَالَ يَفْعُولُ لِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ منذر موضح لحقيقة الأمر واللام في لكم للتقوية أو للتعليل أي

لأجل نفعمكم من غير أن أسألكم أجراً، وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] متعلق بنذير على مصدرية أن وتفسيريتها^(١٩).

وجملة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] مجزوم في جواب الأمر^(٢٠).

﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: "لو كنتم تعلمون شيئاً"^(٢١). فحذف المفعول لتعميم الجهل ونفي العلم عنهم، والمقصود شيئاً من أمر الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

"وقال الحسن: معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر."^(٢٢).

قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً: عطف الظرف على ما قبله أفاد التتابع؛ فهو (كناية) عن الاستمرارية والتواصل.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] "مما دعوتهم إليه وإسناد الزيادة إلى الدعاء من باب المجاز العقلي الإسنادي حيث الإسناد هنا إلى السبب على حد الإسناد في (سرتني رؤيتك) وفراراً قيل: تمييز وقيل: مفعول ثان بناء على تعدي الزيادة والنقص إلى مفعولين، وقد قيل إنه لم يثبت وإن ذكره بعضهم، وفي الآية مبالغات بليغة وكان الأصل فلم يجيبوني ونحوه فعبر عن ذلك بزيادة الفرار المسندة للدعاء وأوقعت عليهم من الإتيان بالنفي والإثبات^(٢٣).

"وانتصاب {جهاراً} على المصدرية؛ لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار، فالجهار نوع من الدعاء كقولهم: قعد القرفصاء، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف، أي: دعاء جهاراً، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي: مجاهرأً، ومعنى «ثم»: الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الأسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما"^(٢٤).

وهذا الجهر يلزم عنه كثرة عدد من دعاهم نوح عليه السلام؛ حيث كان يتعرض لدعوتهم جماعات ووحداً.

وذكر هذه الأحوال المختلفة من الدعوة ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا وخفية وجهارا، وغير ذلك من الدعوة الوجدانية والعقلية وغيرها كناية عن استقراغ نوح عليه السلام وسعه في دعوة قومه وهدايتهم.

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١١] "أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا" (٢٥)

فعلى هذا يكون (مجازا مرسلا) علاقته المكانية، والآيتان: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ و﴿يُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ يُجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٢] كناية عن عناية الله تعالى بهم وإمدادهم بالخير الكثير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] عدلت الآية عن المصدر (إنباتا) إلى (نباتا)، وقد علل أغلب المفسرين للاختيار في (أنبتكم) أنه ضمنه معنى الإنشاء^(٢٦). وكان الأولى أن يبينوا سر العدول في اسم المصدر (نباتا) إلا أنهم اكتفوا بتوجيهه بقولهم (والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتا)^(٢٧).

أما الرازي فقد كان أطول عنقا في رمق سر هذا العدول حيث قال: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم إنباتا، إلا أنه لم يقل ذلك بل قال، أنبتكم نباتا، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتا. وفيه دققة لطيفة وهي أنه لو قال أنبتكم إنباتا كان المعنى أنبتكم إنباتاً غريباً، ولما قال أنبتكم نباتا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيباً. وهذا الثاني أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى، «وصفة الله تعالى غير محسوسة لنا» وصفة غير الله محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى.. وأما لما قال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام. فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا

المجاز كان لهذا السر اللطيف^(٢٨) فالإنبات إنما ينظر فيه إلى صنع الله عز وجل وهو خفي، فعدلت الآية عنه إلى ما هو ظاهر وهو النبات حيث تتجلى فيه مظاهر الإبداع والقدرة، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعه، والامتنان على عباده بنعمه، وسياق الآيات يساعد ذلك المعنى أتم المساعدة.

فهذا المعنى البديع الذي تحصل بطريق التضمنين اجتمع فيه معنى المصدرين: (الإنبات) الذي هو صنع الله تعالى وصفته الخفية و (النبات) الذي هو أثر صفته سبحانه، ومظهر قدرته،

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ جاء على الأصل دون عدول في المصدر كقوله: "أنبتكم من الأرض نباتًا" ولنا أن نتساءل عن السبب في ترك العدول في هذه الجملة مقارنة بنظيرتها السابقة؛ ورغم أن الرازي قد أجاب عن العدول في الموضع الأول فإنه أهمل التعليل للعدول في هذا الموضع كأنه رأى أنه جاء على الجادة فلا يحتاج إلى تعليل؛ فقال: "وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أكدته بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًا لا محالة"^(٢٩).

وكذلك فعل البيضاوي فقال: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ "بالحشر، وأكده بالمصدر كما أكد به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالإبداء، وأنها تكون لا محالة"^(٣٠).

وأرى أن التعليل بمجيء الكلام على الجادة لا يكفي؛ لأن تتابع هاتين الجملتين يمثلان معاً نوعاً من السياق الداخلي، والخروج عن هذا السياق الداخلي يمثل عدولاً داخلياً وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي^(٣١)، وهذا النوع من العدول يحتاج إلى تعليل كذلك بلا شك.

وقد اجتهدت في التعليل لهذا العدول عن السياق الداخلي فرأيت أنه لم يستمر على أسلوب العدول عن مصدر الفعل كما في (أنبتكم نباتاً) فلم يقل: (أخرجكم خروجاً)؛ بل قال: (أخرجكم إخراجاً)؛ وذلك لأن (الإفعال) أي

(الإخراج) إنما هو فعل الله تعالى، وإذا كان فعل الله لا يرى في الإنبات؛ فلذا عبّر بالنبات وهو الفعل الظاهر؛ فإن إخراج العباد في الآخرة وإن كان فعلا لله تعالى فإنه مرئي مشاهد من العباد؛ ولذا عبّر الله تعالى عن هذا اليوم بأنه يوم مشهود، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لِّلنَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج: ٣].

فهذا الإخراج آية مشاهدة يشاهدها العباد يوم القيامة، ومطلوب منهم أن يشاهدوه في الدنيا كذلك بقلوبهم وضمايرهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

السمات الأسلوبية العامة للحوار القرآني:

من خلال ما سبق عرضه من أمثلة الإعجاز الأسلوبي في الحوار القرآني نستطيع أن نلمح بعض السمات الأسلوبية العامة للحوار القرآني، من أهمها:

رعاية حال المخاطب:

وذلك كتوكيد الكلام للمخاطب لكونه شاكاً أو منكراً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢).

وتلبيين الخطاب في بدء العرض: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝٢ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنَ أَجْلِ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح: ٤].

والتدرج مع المخاطب المكذب بالترغيب قبل الترهيب: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٢].

وإغلاظ الخطاب لمن ظهر تكذيبه وإعراضه واستهزاؤه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ

أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَمَرْتُمْوَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ [نوح: ١٤ - ١٥].

التنوع الأسلوبي للخطاب بحسب مقتضيات الأحوال:

فتارة يجنح إلى الأسلوب الوجداني: وذلك بالترغيب والترهيب على نحو ما مرّ، وتارة يجنح إلى الأسلوب العقلي التأملي:

وذلك بإقامة الحجة عليهم: ﴿أَمَرْتُمْوَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

أو بتذكيرهم بنعم الله تعالى وآلائه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ٢٠].

وهكذا يدور الحوار القرآني في هذه السورة من أولها إلى آخرها على عرض كافة الأساليب الحوارية التي يمكن الإفادة منها في محاوراة المخالفين في كلّ زمان ومكان.

التصوير الفني والبياني في سورة القمر^(٣٢):

المقصد العام والمقاصد الأساسية:

نستطيع أن نحدد المقصد العام لهذه السورة من خلال القراءة الأولى لآياتها حيث تدور جميع هذه الآيات حول مقصد واحد هو:

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ «تقرير البعث والجزاء وتأكيده»؛ وذلك في قوله

تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتَرٍ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥].

٢- ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ ٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَعْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨﴾ [القمر: ٨]

٣- بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

أ- تكذيب قوم نوح:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ١ فَدَعَاهُمُ إِنِّي مَعْلُوبٌ فَإَنْصِرْنِي ٢ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ٣ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُتِّرَ ٤ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ٥ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ٦ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٧﴾ [القمر: ١٥].

ب- تكذيب عاد:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ٢١ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٢٢﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢].

ج- تكذيب ثمود:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوا ابْشِرْنَا مِنَّا وَجَدًا نَّبْعُثُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٢٤ أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ٢٥ سَيَعَالَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ٢٦ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنْهَ لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ٢٧ وَيَنْتَهُمُ أَنَّ الْمَاءَ فَنَمَةُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ٢٨ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ ٣١ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٣٢﴾ [القمر: ٢٣ - ٣٢].

د- تكذيب قوم لوط:

وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ بِجَنَّتِهِمْ بِسَرٍّ ٣٤ نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا كَذَلِكَ يَجْزَى مَنْ شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا

يَا نَذِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِيهِ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمُ بُكَرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ [القمر: ٣٣ - ٤٠].

هـ - تكذيب قَوْمِ فرعون:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْنِدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١ - ٤٢].

٤- ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦].

٥- تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهمُ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَتٍ بِالبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٤٦ - ٥٣].

٦- ترغيب وتبشير المؤمنين بالبعث المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

التحليل الأسلوبى للسورة: إذا نظرنا إلى مقاصد هذه السورة وجدنا أن جميع آياتها يدور حول مقصد واحد هو:

قضية الإيمان بالله تعالى وإثبات النبوة والبعث:

ويتكون هذا المقصد من عدد من المقاصد الفرعية التي تتلاحم فيما بينها في نسيج واحد للدلالة على هذا المقصد العظيم.

وذلك حيث تبدأ السورة بـ :

المقصد الأول- تقرير البعث والجزاء وتأكيده:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَتَرَبَّ السَّاعَةِ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۖ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ (٥)﴾ [القمر: ٥].

حيث يؤكد الله تعالى أن الساعة التي يكذب بها هؤلاء الكافرون ويستبعدونها هي جد قريبة؛ حيث ظهرت إحدى آياتها الدالة عليها، وهي انشقاق القمر شقين، وانفلاقه فلقنتين في صورة مادية واضحة للعيان، لا ينكرها إلا البهت والعميان.

ورغم ذلك فهؤلاء الكافرون معرضون جاحدون لأدلة الإيمان وبراهينه الساطعة، وهذا هو شأنهم ودينهم وطبيعتهم التي دأبوا عليها من الجحود والعناد والاستكبار ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)﴾ [القمر: ٢].

وتكذيبهم وعنادهم هذا ليس عن أدلة وبراهين تعارض ما جاء به الرسل؛ وإنما هو اتباع لأهوائهم الزائغة عن الحق والمعرضة عنه؛ وذلك رغم وضوح الحق واستقرار أمره، ورغم ما جاءهم من الأنبياء الزاجرة بأحوال المكذبين من قبلهم وما حلَّ بهم من العذاب والنكال في حكمة بالغة مؤثرة، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون؟ أي: ﴿فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾ مع هؤلاء الكفرة^(٣٣).

المقصد الثاني- ترهيب المكذبين بالبعث:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ (٦) خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ (٨)﴾ [القمر: ٦- ٨].

في الآيات السابقة: جاء قوله تعالى: (فما تغني النذر) تمهيدا للأمر بالتولي والإعراض عنهم في هذه الآيات، بعدما ثبت من حالهم أنهم لا ينتفعون بالآيات

والنذر والحكم البالغة؛ فلم يبق إلا تخويفهم وتهديدهم بسوء العاقبة التي تنتظرهم جزاء تكذيبهم بالبعث؛ ومن ثم راحت الآيات تصفُ لهم بعض مشاهد البعث، وتصورُ لهم حالهم في هذا اليوم الفظيع وما ينتظرهم فيه من الأهوال.

المقصد الثالث- بيان حال المكذبين من الأمم السابقة وسوء عاقبتهم:

بدأت السورة الكريمة بتأكيد البعث وتقريره، وثنت بذكر بعض مشاهد البعث وحال المكذبين في ذلك اليوم ترهيباً لهم، ثم عرضت السورة بعد ذلك في هذا المقصد لأحوال المكذبين بالبعث من الأمم السابقة وما نزل بهم من العذاب والنكال في الدنيا قبل الآخرة حتى يكون في ذلك عبرة لهؤلاء المكذبين في زمان النبي ﷺ ومن بعدهم، فعددت ما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون، وقد كانوا أشد منهم وأكثر قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وذلك كله لا يخرج عن الخط الأساسي لهذه السورة الكريمة في تقرير قضية الإيمان بالله تعالى ورساله وتقرير قضية الحساب والجزاء والبعث والرجوع إلى الله تعالى؛ فهي تارة تبين ذلك بذكر الآيات الدالة عليه كانشقاق القمر، وتارة ترهب المكذبين به بما ينتظرهم في الآخرة، وفي هذا السياق ترهب لهم بما ينتظرهم في الدنيا؛ وذلك لأن سنة الله في إهلاك المكذبين والمعاندين لرساله لا تتخلف أبداً، وهذا ما يؤكد الله تعالى في ختام هذا العرض لأحوال المكذبين؛ حيث يقول في حق المكذبين في زمان النبي ﷺ.

في المقصد الرابع- ترهيب الكافرين وتخويفهم بعاقبة المكذبين من قبلهم:

﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿ ٤٤ ﴾ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيَرْثُونَ الدُّبُرُ ﴿ ٤٥ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٥].

ومن ثم يعود في المقصد الخامس:

إلى: تقرير البعث وترهيب المكذبين به:

وذلك في قوله تعالى:

﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٤٦ - ٥٣].

وينتهي سياق السورة كذلك بتنظيم حسن غير بعيد عن السياق وهو:

المقصد السادس- ترغيب وتبشير المؤمنين بالبعث المتقين لربهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَنْ تَكْفُرُوا بِرَأْيِ الزُّبُرِ ﴿٥٦﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٥٧﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٥٨﴾﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٥٩﴾﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٦].

ملخص الوحدة الخامسة



تناولت هذه الوحدة الحديث عن:

مفهوم كل من التصوير الفني والتصوير البياني مع التفريق بينهما وعرض نماذج كل منهما في القرآن الكريم.

بيان مفهوم التشبيه التمثيلي وعرض بعض نماذجه في القرآن الكريم مع التحليل البلاغي لتلك النماذج.

تقديم نموذج كلي للتصوير الفني والبياني من خلال مشهد دعوة نوح عليه السلام قومه مع التحليل الشامل سواء للصورة الفنية أو الصور البيانية الواردة بالنموذج كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بنوعيه.

تقديم العناصر اللازمة لتحليل نموذج كلي آخر للتصوير الفني والبياني من خلال سورة القمر يستعين الدارس بعناصر التحليل والنموذج السابق لتحليل هذا النموذج على غرار كنهه من التدريب.



أسئلة على الوحدة الخامسة

- س١: بين بإيجاز مفهوم التصوير الفني في القرآن الكريم مع التمثيل.
- س٢: وضح الفارق بين كل من التصوير الفني والتصوير البياني.
- س٣: بين بإيجاز مفهوم التشبيه التمثيلي مع عرض بعض نماذجه في القرآن الكريم.
- س٤: بين كيف توظف جميع طاقات اللغة وإمكاناتها في تشكيل الصورة الفنية من خلال مشهد دعوة نوح عليه السلام قومه مع التحليل الشامل سواء للصورة الفنية أو الصور البيانية الواردة بالنموذج.
- س٥: بين كيف توظف جميع طاقات اللغة وإمكاناتها في تشكيل الصورة الفنية من خلال سورة القمر.
- س٦: حلل الآيات التالية تحليلاً بلاغياً يكشف عن جمال الصورة البيانية فيها.
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].
- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].
- قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

نموذج إجابة



إجابة السؤال السادس:

أ- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

"هذا مثل ضربه الله لليهود، وهو أنه شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بها فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة: بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد ﷺ وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدّلوا فلم ينفع ما في كتابهم من العلوم.

ووجه الشبه هو عدم الانتفاع في كل، وجمال التشبيه في قوة المناسبة بين المشبه والمشبه به، وتوضيح المعنى في صورة حسية تستقر في النفس.

ب- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] هذا تشبيه لحال المشرك الذي سقط من نظر الله، وسقطت مكانته عنده؛ فهو متنكس بضلالته، لا شأن له، يشبه من خرّ من السماء، لا شيء يحميه، أو ينقذه من الخطر الذي يحيط به، وهو لا بدّ واقع في المهالك والمهاوي المردية، تخطفه الطير فتقطّعه بمخالبها، وتمزقه إرباً إرباً، أوستهوي به الريح في مكان سحيق، وهي صورة مرعبة مخيفة، تمثل سوء العاقبة، وهول النهاية، وقد وردت على شكل التشبيه التمثيلي: فالمشرك في انخلاعه من حماية الله، وتركه المرفأ الأمين، كالساقط من السماء والأخطار تحقّق به من كلّ مكان.

ج- وقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣١) المشبه: حال من ينفق قليلا في سبيل الله، والمشبه به: حال من بذر حبة فأنبتت سبع سنابل، ووجه الشبه: هو صورة من يعمل قليلا فيجني من ثمار عمله كثيرا، وهو منتزع من أمور شتى: (حبة، وإنباتها سبع سنابل، وكون مائة حبة في كل سنبله).

هوامش الوحدة الخامسة

- (١) عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز - ص ١٦.
- (٢) دلائل الإعجاز للجرجاني - (ج ١ / ص ٨٤).
- (٣) تأمل - على سبيل المثال : سور القيامة - المرسلات - التكوير - الانفطار - الانشقاق - القارعة - الزلزلة .. إلخ.
- (٤) في ظلال القرآن - (ج ٥ / ص ١٩٥).
- (٥) المحيط في اللغة - (ج ٢ / ص ٣٣٦).
- (٦) الصحاح في اللغة - (ج ١ / ص ٢٠٢).
- (٧) تفسير القرطبي - دار احياء التراث العربي - (ج ٧ / ص ٣٥٢).
- (٨) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥).
- (٩) جمهرة اللغة - (ج ١ / ص ٤١٨).
- (١٠) صحيح البخاري برقم (٤٩٣٥).
- (١١) في ظلال القرآن (٣٣٦١/٦).
- (١٢) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤).
- (١٣) التحرير والتنوير (ج ٩ / ص ٥٤).
- (١٤) تفسير القرطبي - (ج ١٨ / ص ٣٠٦).
- (١٥) الكشف - (ج ٤ / ص ٢١٨).
- (١٦) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥).
- (١٧) لسان العرب - (ج ١١ / ص ٦٣٥).
- (١٨) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٨).

- (١٩) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٤).
- (٢٠) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٦).
- (٢١) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣٠٨).
- (٢٢) تفسير القرطبي - دار احياء التراث العربي (ج ١٨ / ص ٣٠٠).
- (٢٣) تفسير الألوسي (ج ٢١ / ص ٣١٠).
- (٢٤) فتح القدير - (ج ٧ / ص ٣١٢).
- (٢٥) فتح القدير - (ج ٧ / ص ٣١٢).
- (٢٦) الألوسي ٢٩ / ٧٥ - الدر المصون ٦ / ٣٨٤ - الكشف ٤ / ١٢٤.
- (٢٧) الكشف/ السابق، المحرر ٥ / ٣٧٥، الألوسي السابق، الدر المصون السابق.
- (٢٨) الرازي ١٥ / ٧٤٣-٧٤٤.
- (٢٩) تفسير الرازي - (ج ١٦ / ص ٥٨).
- (٣٠) تفسير البيضاوي (ج ٥ / ص ٣٢٩).
- (٣١) انظر نظرية اللغة في النقد العربي ٢٤٩ ٢٥٠ وأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية د/ حسن طبل ص ٤٦، ٥٢. وانظر علم الأسلوب ص ١٩٣.
- (٣٢) يقوم الطالب باستخراج الصور الفنية والبيانية في هذه السورة وبيان الوسائل التعبيرية المستخدمة في تشكيل تلك الصور على نحو النموذج السابق بيانه في مشهد دعوة نوح عليه السلام قومه.
- (٣٣) البحر المحيط ١٠ / ١٧٤



الوحدة السادسة

بلاغة التناسب في القرآن الكريم

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- أ- التعريف بأحد المداخل البلاغية إلى إعجاز القرآن الكريم، وهو التناسب على مستوى الآيات المتجاورة، والفواصل، التذييل.
 - ب- الإيقاف على أهمية هذا المبحث عند المفسرين، ومدخله في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.
 - ج- تقوية الحس البلاغي لدى الدارس، وذلك بعرض آثير من الأمثلة، والبحث عن وجوه التناسب فيه.

العناصر:

- التناسب وجه من وجوه الإعجاز.
- عرض محاور التناسب الأربعة وهي:
- التناسب بين فواتح السور وموضوعاتها.
- التناسب بين الآيات المتجاورة.
- التناسب بين الآيات والفواصل.
- التناسب بين فواتح السور وخواتيمها.
- مع ذكر شواهد لكل نوع وبيان وجوه المناسبة في كل شاهد منها.

قيمة علم المناسبة:

علم المناسبة علم شريف" تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول. . . وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وقد قل

اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط وقال بعض الأئمة من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً. وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة. قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه... وقال الشيخ أبو الحسن الشهرستاني: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم تكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة". [الزركشي- البرهان - تحقيق: محمد أبو الفضل - دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧ / ٣٥ و ٣٦]

وعلم المناسبة كما قال برهان الدين البقاعي يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: " أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تأولاً وأسهل ذوقاً. . . فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله، وغطاه وجلّاه، وبَيَّنّه غاية البيان وأخفاه " (نظم الدرر- تحقيق: عبد الرزاق المهدي - دار الكتب العلمية ١٩٩٥-٧/١).

التناسب بين فواتح السور وموضوعاتها:

البدء بالحروف المقطعة ومناسبتها لموضوع السور:

من المعلوم أن تسعاً وعشرين سورة قد بدئت بالحروف المقطعة، فبدئت بـ {الم} ست سور هي: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، وبدئت بـ {الص} الأعراف، وبدئت بـ {الر} خمس سور هي: يونس، هود، يوسف،

إبراهيم، الحجر، وبدئت بـ {المر} الرعد وبدئت بـ {كهيعص} مريم، وبدئت بـ {طه} طه، وبدئت بـ {طسم} الشعراء والقصص، وبدئت بـ {طس} النمل، وبدئت بـ {يس} يس، وبدئت بـ {ص} ص، وبدئت بـ {حم} ست سور هي: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، وبدئت بـ {حم * عسق} الشورى، وبدئت بـ {ق} ق، وبدئت بـ {ن} النمل. وقد تعرض معظم باحثي علوم القرآن للحديث عن الحروف المقطعة، خاصة المفسرين، لكن القليل من هؤلاء من تعرض لبيان سبب اختصاص كل سورة بما ذكر فيها من الحروف المقطعة. ويعتبر الزمخشري من أوائل من أثاروا هذه القضية حين قال: «فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفتحة التي اختصت بها؟ قلت: إذا كان الغرض هو التنبيه - والمبادئ كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة - كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً، كما إذا سمي الرجل بعض أولاه زيداً والآخر عمراً، لم يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمر؟ لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك». [الكشاف - تحقيق: مصطفى حسين - دار الريان ١٩٨٧-٣١/١].

وما قاله الزمخشري فيه نظر؛ لعدة أمور منها:

- أن التنبيه أحد أغراض البدء بالحروف المقطعة، وليس هو الغرض الوحيد، إذ لو كان هو الغرض الوحيد لاكتفى بذكر {الم} ست مرات، أو {الر} خمس مرات، أو {حم} سبع مرات.
- أن المبادئ ليست سواء في تأدية التنبيه؛ فبعض السور بدئت بحرف، والبعض بدأ بحرفين، والبعض بدأ بثلاثة، والبعض بدأ بأربعة، والبعض بدأ بخمسة، ومن ثم فإن هذا الاختلاف لا بد له من حكمة، وإلا كان عبثاً.
- تعالى الله عنه علواً كبيراً - أضف إلى ذلك القول بالسوية يؤدي إلى القول بإمكان وضع بعض الحروف مكان بعض، وهذا ما لم يقله أحد من العلماء.
- أن التمييز إذا كان حاصلًا بين السور المبدوءة بحروف مختلفة، إلا أنه

غير حاصل في السور المبدوءة، بحروف واحدة، ومن ثم يلجأ في التفرقة بينها إلى ذكر أمور أخرى؛ فيقال مثلاً: الم، البقرة، الم آل عمران، الم العنكبوت، وهكذا.

- أن الرجل العالم قد يخص كل ولد من أولاده باسم من الأسماء، ويجب عن كل اسم منها إذا سئل عنه.

ونستأنف الحديث عن عرضوا للحديث عن الحروف المقطعة، بذكر ما ذهب إليه الكرمانى في سبب زيادة ص في سورة الأعراف، و(ر) في سورة الرعد على {الم} في سورة البقرة بقوله: «زاد في الأعراف صاءً لما جاء بعده ﴿تَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ولهذا قال بعض المفسرين: ﴿الْمَصَّ ١﴾ ﴿الَّذِي رَفَعَ صَدْرَكَ ١﴾ وقيل معناه: المصور. وزاد في الرعد راء لقوله بعده {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ}». [البرهان في متشابه القرآن - تحقيق: أحمد عز الدين - دار الوفاء ١٩٩٥-١١٧].

فهذا الرأي لا يجب عن السؤال، وإنما يثير سؤالاً صنوه: لم خصت الصاد والراء من بين الحروف التي ذكرت معها؟

وبعد الكرمانى يأتي ابن الزبير الغرناطي فيزعم أنه لم ير أحدًا تعرض لبيان سبب اختصاص كل سورة بما ذكر فيها من الحروف المقطعة، ويرى أن ذلك يرجع إلى أن كل سورة وقع فيها «ما كثر ترداده فيما تتركب من كلماتها. . . فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها فلو وقع في موضع ق من سورة ق ن من سورة ن، وموضع ن ق لم يكن لعدم المناسبة المتأصل رعيها في كتاب الله تعالى». [ملاك التأويل- تحقيق: د/ محمود كامل - دار النهضة العربية ١٩٨٥/ ٢٧].

وما ذهب إليه الغرناطي هو بعينه ما ذهب إليه الزمخشري حيث يقول: «إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس مكثورة بالمذكور منها، ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف

المعجم أكثرها وقوعاً في تراكييب الكلم؛ أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين، وهي: فواتح: سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر». [الكشاف ٣٠/١]

وهذا الرأي على الرغم من أنه من أشهر الآراء التي قيلت في تفسير الفواتح إلا أنه ليس صحيحاً؛ لأنه لا يطرد في جميع سور الفواتح، يدلنا على ذلك أننا إذا رجعنا إلى ما قام به القدماء والمحدثون من إحصاءات لحروف القرآن نجد أن أكثر الحروف الهجائية وروداً هي: الألف واللام والنون والميم، وعلى الرغم من هذا ورد الألف واللام ١٣ مرة، والميم ٤٧ مرة، على حين وردت النون مرة واحدة، ونجد أن بعض الحروف التي لم تذكر في الحروف المقطعة مكنوزة بغير المذكور منها كالزاي والطاء والفاء فهي أكثر وروداً من نظيراتها. الراء والطاء والقاف. هذا على المستوى الإجمالي للسور، أما على مستوى السورة الواحدة فنجد أن أكثر الحروف وروداً في سورة ق - مثلاً - هي: اللام ١٦٧ مرة، والميم ١١٥ مرة، وكل من الباء والنون ١١٢ مرة، والراء ٦٥ مرة، وق ٥٧ مرة، وعلى الرغم من هذا تبدأ بالحرف ق دون غيره.

ونستكمل مسيرة الحديث عن الحروف المقطعة بذكر ما رآه ابن قيم الجوزية فقد رأي أن سر البدء بـ "الم" في السور الست «هو أن الألف البداية واللام التوسط والميم النهاية؛ فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والواسطة بينهما، وكل سورة افتتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه» [بدائع الفوائد- مكتبة ابن تيمية ١٧٣/١] ثم يعلل سبب بدء بعض السور بالحروف المفردة بأن كل سورة مبنية على كلمة ذلك الحرف؛ فسورة ق مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته. . . وسر آخر وهو أن كل معاني السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجر والعلو والانفتاح، وسورة ص مشتملة على خصومات متعددة؛ "فأولها خصومة

الكفار مع النبي ﷺ ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملائكة الأعلى، ثم مخاصمة إبليس ربه". [بدائع الفوائد ١/١٧٤]

وما قاله عن البداية والتوسط والنهاية فيه نظر؛ لأن هناك بعض السور تشتمل على هذه الأمور الثلاثة وعلى الرغم من هذا لم تبدأ بـ {الم} أو غيرها من الحروف المقطعة مثل: النساء والأنعام والحج والكهف وغيرها من السور.

وبعد ابن قيم الجوزية يأتي الزركشي فيذكر ما قيل قبله دون نسبة أي رأي من هذه الآراء لصاحبه، ويتابع ما رآه ابن قيم الجوزية فيعلل سبب بدء سورة القلم بالنون بقوله: «وكذلك سورة ﴿رَبِّهِمْ﴾ فإن فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ما تضمنت من الألفاظ النونية». [البرهان ١/١٧٠]

وما ذهب إليه ابن قيم الجوزية والزركشي - ومن تابعهما - لا يكاد يختلف عما قاله الزمخشري والغرناطي عن كثرة ورود الحرف في السورة، وقد سبق أن بينا عدم دقته. وقد خالف الزركشي التوفيق حين قال إن فواصل سورة القلم كلها نونية؛ لأن فواصلها تتراوح بين النونية والميمية.

وبعد هؤلاء يأتي برهان الدين البقاعي فيواصل في كتابه القيم "نظم الدرر" ما بدأه ابن قيم الجوزية من محاولة الربط بين مخارج الحروف وصفاتها وما تشير إليه من المعاني والمقاصد، ومن ذلك حديثه عن فاتحة سور: مريم وطه والشعراء والنمل والقصص وص وق ون، أما بقية السور فيغلب عليه الاكتفاء بالكلام النظري، دون محاولة ذكر ما يؤيده من آيات السورة؛ فهو في تفسيره لفاتحة سورة مريم يبدأ بذكر مخارج الحروف الخمسة: كهيعص ثم يقول: «فالافتتاح بهذه الأحرف هنا إشارة - والله أعلم - إلى أن أهل الله عامة - من ذكر منهم في هذه السورة وغيرهم - يكون عند المخالفين أولاً - كما تشير إليه الكاف - ضعيفا مع شدة وانفتاح كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم أول ما دعا فإنه اشتهر أمره، ولكنه كان ضعيفاً بإنكار قومه إلا أنهم لم يبالغوا في الإنكار، ثم يصير العراك - كما تشير إليه الهاء - إلى استقال، ثم يزداد

بتمالؤ المستكبرين عليه ضعفاً وخفاء، وإلى هذا تشير قراءتها بالإمالة، ولا بد مع ذلك من نوع ظهور كما يشير إليه انفتاح الهاء وإليه تشير قراءة الفتح، وهذا كما كان النبي ﷺ حين صرح بسبب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم؛ فقاموا عليه إلبا واحدا؛ فهاجر أكثر الصحابة إلى الحبشة. . . وتمادي الحال حتى ألجأتهم قريش إلى الشعب، وتكون في وسط أمرهم كما يشير إليه الياء وقراءتها بالفتح لهم قوة مع رخاوة واشتهار واستفال، وهو الأغلب كما تشير إليه قراءة الإمالة. . . ثم إذا علا أمرهم عن الوسط صاعداً قوى - كما تشير إليه العين فصار بين الشدة والرخاوة، وفيه انفتاح بشهرة مع استفال في بعض الأمر كما كان حاله صلى الله عليه وسلم عند مباغة الأنصار - رضوان الله عليهم - وأما آخر أمرهم فهو وإن كان فيه نوع من الضعف وضرب من الرخاوة واللين - كما كان في غزوة حنين والطائف - فإنه تعقبه قوة عظيمة بالإطباق، واستعلاء واشتهار يملأ الآفاق - كما يشير إليه الصغير». [٥١٥/٤]

وعن فاتحة سورة طه يقول: «الطاء إشارة بمخرجها الذي هو من رأس اللسان وأصول التثنيتين العليين-إلى قوة أمره وانتشاره وعلوه وكثرة إتباعه. . . ولكن يكون ذلك- بما تشير إليه الهاء بمخرجها من أصل الحلق على حد بعده من طرف اللسان-مع طول كبير وتماد كثير - وبما فيها من صفات الهمس والجهر والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء - مع مخافتة وضعف كبير، وهدوء وخفاء عظيم، ومقاساة شدائد كبار، مع نوع فخامة واشتهار. . . وقراءة التفخيم وهي لأكثر القراء مشيرة إلى فخامة القدر وقوة الأمر، بما لها من الانفتاح، وإن رئي أنه ليس كذلك. [٣/٥]

وعن فاتحة سورة الشعراء يقول: ﴿طَسَرَ﴾ لعله إشارة إلى الطهارة الواقعة بذي طوي من طور سيناء وطيبة ومكة وطيب ما نزل على محمد ﷺ. . . وإلى خلاص بني إسرائيل بما سمعه موسى عليه السلام من الكلام القديم، وبإتمام أمرهم بتهيتتهم للملك بإغراق فرعون وجنوده، ونصرهم على من

ناوأهم في ذلك الزمان بعد تطهيرهم بطول البلاء الذي أوصلهم إلى ذل العبودية، وذلك كله إشارة إلى تهديد قريش بأنهم إن لم يتركوا لدهم فعل بهم ما فعل بفرعون وجنوده من الإذلال بأي وجه أراد، وخلص عباده منهم». [٣٤٤/٥]

وعن فاتحة سورة النمل يقول: {طس} يشير إلى طهارة الطور وذي طوي منه وطيب طيبه، وسعد بيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام التي انتشر منها الناهي عن الظلم، وإلى أنه لما طهر سبحانه بني إسرائيل وطيبهم بالابتلاء فصبروا خلصهم من فرعون وجنوده بمسموع موسى عليه السلام للوحي المخالف لشعر الشعراء وإفك الآثمين وزلته من الطور». [٤٠٥/٥]

وعن فاتحة سورة ص يرى أن "ص" تشير إلى الصدق، وقد انبسط هذا الصدق على كل شيء في الوجود، وذكر ما فيها من الأنبياء شاهد وجودي على ذلك.

وعن فاتحة سورة ق يقول: "ق" إشارة إلى أنه هو سبحانه وحده المحيط علما وقدرة بما له من العلو والشدة والقيومية والقهر ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشفتان». [٢٤٤/٧]

وعن بدء سورة القلم بالنون يقول: «قد انطبقت بمخرجها وجميع صفاتها على العلم الذي هو مقصود السورة؛ فتبين حقا أنه مقصودها». [٨٩/٨]

وتمضي قرون عديدة لا نجد فيها شيئا جديداً عن الحروف المقطعة، حتى نصل إلى العصر الحديث فنجد كتابا بعنوان: «التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن الكريم» لصاحبته **تحية إسماعيل** تذهب فيه إلى أن كل حرف رمز أو قانون تجريدي هو ناصية السورة ومفتاحها من فهمه فهم علاقة آيات السورة ببعضها ببعض، فماذا عن هذه الرموز؟

الم البقرة: (أ) حرف يدل على الثبات على الأرض ووجود شيء جديد عليها أو ماهية خاصة، ويدل على وجود شيء أو كائن له كيان خاص وماهية مميزة. ول حرف يدل على الاتصال و(م) حرف يدل على الكمال والثبات [١٠٥]؛ فالله له وجود خاص (أ) ويتصل بالكون كله صلة وثيقة، لها جوانب متعددة مثل: الخلق والحفظ والتدبير (ل) وهذه الصلات ثابتة وكاملة (م) [١٢٤]. وحكم الله أي أوامره ونواهيه له وجود خاص (أ) وهو نوع من الصلة بين الله وعباده (ل) وهو ثابت وكامل (م). [١٢٩] وأدم عليه السلام له وجود خاص فهو أول إنسان كرمه الله بأن أسجد له ملائكته، وإبراهيم عليه السلام له وجود خاص فهو مثل لحب الله وإنابة إليه، لم يسبقه أحد فيه. [١٢٨]، والكعبة لها وجود خاص (أ) وزيارتها صلة بين العبد وربّه (ل) وهي ثابتة أبد الدهر (م). [١٢٩]

المص: {الم} تقدم تفسيرها أما ص فترمز إلى الاستغناء أو الإبعاد أو إصلاح شيء بقوة فالأرض من خلق الله لها كيان خاص (أ)، وهي متصلة بربها (ل)، لكن بها آفة هي الكفار، وإهلاكهم إصلاح لها (ص)، وإصلاحها شيء جزئي؛ لأن الله ترك شيئاً من الحرية للبشر، أما الإصلاح في الآخرة فكامل ومطلق. [١٦١]

الر يونس: (ال) تقدم تفسيرها، أما (ر) فهي تدل على التكرار، أو عملية تنفذ على مراحل، ومن الطبيعي أن يكون هذا الرمز واسع الأفق؛ لأنه يشمل معظم الظواهر الطبيعية؛ كدوران الشمس والقمر، وحركة المياه والأنهار، كما أنه يدل على وجود الرسل وحركتهم التي تكون علي إذ مراحل؛ فالناس لا يؤمنون من البداية، ولا يؤمنون إيماناً عميقاً، بل لابد من التدرج في هذا الإيمان.

المز الرعد: تقدم تفسير هذه الرموز، لكن (م) هنا يختلف مكانها عن (م) في سورة البقرة؛ فهي هناك في آخر الرمز، أما هنا فهي داخل الرمز، وهي هنا ترمز إلى الثبات والاستقرار، وهما لا يكونان على أعلى مستوى إلا الله

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْشَى﴾، وعلى مستوى الخلق نجد الذين صبروا، وهؤلاء لهم وجود خاصا لصبر نوع من الثبات على الإيمان والثقة بالله، وأفعالهم لها طابع خاص (أ) وهي تصلهم بربهم (ل) وهي تدل على ثباتهم وطاعتهم لله (م) وهي متكررة (ر). [١٢٠]

كهيعص مريم: (ك) تدل على الوجود على الأرض، والهاء تدل على ضعف أو تعب يليه وهن، والياء يدل على قدرة تحرك الشيء وتجعله يزيد أو يحيا و(ع) تدل على شيء عزيز صعب المنال، والصاد يدل على القوة والصمود والصلابة والصلاح، فهنا الحركة التي بدأت بالياء تصل إلى مرادها فتقوى وتفلح وتصير شيئا صلبا صالحا. [٦٤] تبدأ السورة بدعاء سيدنا زكريا - عليه السلام - وهو يقول ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ويستكي ضعفه إلى الله، وبعد ذلك نجد تحول هذا الضعف إلى بشرى بحياة جديدة، وحينما يتعجب سيدنا زكريا يقول له الحق: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾. [٦٤]

طه: (ط) من الحروف القوية التي تدل على السلطة والجبروت والطغيان والعظمة والعلو، والهاء تدل على الانهيار بعد العلو والقوة، والوهن بعد سلطان وجبروت. وفي السورة أمثال عديدة؛ ففرعون طغي؛ فأمر بذبح الأطفال، واستحياء النساء، وجمع السحرة، ثم توعدهم بأشد العذاب عندما آمنوا برب العالمين، وأتبع موسى عليه السلام في البحر وكاد يدركهم، لكن الله دحره بإغراقه هو وجنوده في الميم. [٦٩]

طسم الشعراء: ط كما سبق يدل على العلو والسلطان، و(س) يدل على اليسر، أما (م) فإذا جاءت في آخر الرمز دلت على شيء تم واكتمل، أو شيء لم أو قفل، أو دمر، وهذا نوع من الإتمام أو القضاء، وهذا الرمز إذا تناولناه على أعلى مستوى يدل على حكم الله أو قضاؤه في عبادته، فهو عال عزيز مقتدر لأراد لحكمه، فهو نهائياً، أما إذا تناولناه على مستوى البشر نجد أن نفحة من

نفحات الله تساعد رسله وتساندهم؛ فسيدنا موسى يحول الله له العصا إلى ثعبان، ويفلق له البحر، ويغرق فرعون وجنوده، وينصر موسى في يسر وسهولة. [٩٨]

طس النمل: (ط) تدل على العلو والسيطرة والسلطان، و(س) تدل على سهولة الحركة ويسرها، وهذا الرمز على أعلى مستوى يدل على عظيم قدرة الله في خلقه، وجمال ما خلق، كما تدل على ذلك الآيات من الستين إلى الرابعة والستين، ويدل على ذلك إجابة المضطر بسهولة ويسر، أما على مستوى البشر فالرمز يشير إلى ما أعطاه الله لسيدنا داود وسليمان؛ فسليمان يفعل ما يشاء بسهولة ويسر؛ بسبب تسخير الجن والإنس والطير له؛ فيأتي له ملك ملكة سبأ، وتأتيه الملكة مسلمة. [٤٠]

يس: (ي) تدل على الحياة والحركة، و(س) تدل على السهولة واليسر، والرمز (يس) يتمثل في قدرة الله كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ فالله يحيي الأرض بعد موتها، ويخرج منها الحب كما يدل على ذلك قوله: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ أَمِيتَةٌ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣] والله ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، والخلق بنفخة في الصور يخرجون إلى ربهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. [١٠٣]

ص: (ص) رمز للقوة والصمود والصبر، وهذا الرمز على أعلى مستوى يتمثل في الله عز وجل؛ فهو الصمد وهو الصبور، أما على مستوى البشر فهو رمز لصبر الأنبياء؛ فسيدنا أيوب مثال للصبر {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا} و{ص} تتكرر كثيرًا في كلمات السورة؛ لتمثل الصمود والصبر على مستوى الكلمات كما هو ممثل على مستوى الرمز. [٥٩]

حم غافر: (ح) تدل على كل شيء حي حاد، أو شعور داخلي، أو عائق،

وكلما وجدنا (ح) علمنا أن شيئاً شديداً موجوداً، و(م) تدل على الكمال والتمام والنهاية أو القفل، وهذا الرمز يشير على أعلى مستوى يشير إلى الله عز وجل؛ فهو الواحد القهار ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وهو الكامل، وحكم الله على عباده شديد كامل ثابت كما يدل على الشدائد، وكان ذلك قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنِ رَيْكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣] وقوله: ﴿فَلَنُحْكِمَنَّ اللَّهُ الْعِلِّيَّ الْكَبِيرَ﴾ [غافر: ١٢]. [٨١]

حم عسق الشورى: (ح) رمز لرحمة الله وقدرته على خلقه، ورمز إلى محاجة الكفار في آيات الله، أما (ع) فترمز إلى شيء عزيز المنال، لكنه ينال بسهولة ويسر، وهذا ما يرمز إليه حرف (س) الذي يتبعه (ق)، وهو إذا جاء بعد (عس) دل على سلك طريقه للبقاء والانتشار، على الرغم من أنه جاء عزيزاً، وهذا الشيء العزيز هو الوحي كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢] بهذه السهولة (س) والقدرة (ق)، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وغير ذلك من آيات السورة. [٨١]

ق: (ق) تشير إلى أشياء كثيرة، منها حركة رفع مستديرة مثل قبة - قمة، كما أنها أحياناً تدل على الحركة نفسها في باطن الأرض، أو إلى الداخل مثل قبو - قناة، فهي حركة مثل حركة القوس في أي اتجاه. وهذه السورة الكريمة تحدثنا عن هذه الحركة في الآفاق البعيدة، كما تحدثنا عنها في داخل الإنسان وفي باطن الأرض؛ فنجد حركات من أعلى الآفاق في السماوات والأرض كما في الآيتين ٦ و ٤، ونجد حركة من سهول الأرض إلى علو مرتفع كما في الآيتين ١٠ و ٧، وننتقل من حركة الكون إلى داخل الإنسان، بل إلى عصب الحياة فيه وهو حبلا الوريد ثم إلى القلب نبض الحياة، وتنتقل الحركة من الحياة الدنيا إلى العالم الآخر كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [٢٠] وقوله ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]. [٦١]

ن: (ن) تدل على حركة هادئة، أو على عدم الحركة، وهي رمز للنعمة والنعمة، فقد أنعم الله على رسوله، ونقم على أصحاب الجنة. وفي السورة نجد الكلمات النونية كثيرة؛ كي يتحقق الرمز على مستوى الكلمات كما تحقق على مستوى الحروف. [٦٢ و ٦٣]

وبعد هذه الإشارات الموجزة، ينبغي التنويه إلى أن هذا الكتاب يعد - من وجهة نظري - فريداً في ربطه بين الحروف المقطعة والصور التي وردت فيها ربطاً خالياً من التأويلات العامة الغريبة على كثير من الحروف المقطعة إلا أنه يؤخذ على صاحبه بعض الملاحظات منها:

* عدم دقتها في الربط بين بعض الحروف وما ترمز إليه؛ فإذا كان لكل حرف من الحروف رمز يرمز إليه، تتضمن بنيته هذا الحرف على أي شكل من الأشكال، فإن هذا ما لا نجده في تفسيرها لحرف الألف، فما العلاقة بين الألف والثبات على الأرض، أو بين الألف والماهية الخاصة؟

* إغفالها بعض الدلالات التي يمكن أن يشير إليها الحرف؛ فإذا كانت الرء رمزا لشيء يتكرر كما سبق بيانه - فإن الإنذار والتبشير من الأمور التي تلازم دعوة الرسل؛ ومن ثم نجد السور التي تبدأ بالرمز (الر) تحرص في بدايتها على ذكر ذلك صراحة أو تضمينا من خلال ذكر قصص الأنبياء والمرسلين؛ فسورة يونس - مثلا - تبدأ الآية الثانية منها بقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾ وتختتم بقوله ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾ [يونس: ١٠٨] وفي سورة مريم نجد الهاء ترمز إلى ما وهبه الله لأنبيائه ورسله - عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات -؛ فزكريا دعا ربه بقوله ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: ٥] فوهبه الله ما طلب،

وجبريل - عليه السلام - يقول لمريم ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] وإبراهيم يقول الله عنه ﴿فَلَمَّا أَغْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [٤٩- ٥٠] ويقول عنه الله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، ونجد الصاد ترمز إلى الصدق والإخلاص؛ فكل من إبراهيم وإدريس ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [٤١] [مريم: ٤١] وموسى ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾ وإسماعيل ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

* ميلها إلى التعميم في الربط بين الحروف وما ترمز إليه؛ فالميم - مثلاً - إذا جاءت في آخر الكلمة ترمز إلى التمام والكمال؛ فأى كمال أو تمام تدل عليه كلمات مثل: نم، هم، غم؟!

* اضطرابها في تفسير بعض الحروف - وهو قليل -؛ فالألف تدل على وجود شيء على الأرض، وكذلك الكاف، فأيهما أحق بالرمز؟ وهل هناك ارتباط بين الحرفين وهذه الدلالة؟!

بدء بعض السور بـ "الحمد لله":

بدئت خمس سور بـ "الحمد لله": هي الفاتحة التي بدئت بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والأنعام التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾ [١] والكهف التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [١] وسبأ التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ]، وفاطر التي بدئت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر].

فما وجه افتتاح السور الخمس بقوله: "الحمد لله"؟ وما وجه تخصيص كل آية منها بما ورد من أوصافه تعالى المتبوع بها حمده؟

الجواب أن أم القرآن هي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت فافتتاحها بحمده تعالى بين؛ فالحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة. أما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنويه ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين إلى ما يرجع إلى هذا وقد بسطت هذا في كتاب البرهان. وإذا كانت هذه السورة مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحها بحمده تعالى بين، وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذكر ذى القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش وذلك مما لم يتكرر في القرآن فافتتحت بحمده تعالى وذلك بين، وأما سورة سبأ فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضاً في غير هذه السورة إلا الإيماء الوارد في قوله في سورة النمل: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل]؛ فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من تسخير الجبال والطير والجن والإلانة الحديد ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها افتتحتها سبحانه بحمده وانفراده بملك السماوات والأرض وما فيهما وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة. وأما سورة فاطر ففيهما التعريف بخلق الملائكة عليهم السلام وجعلهم رسلاً أولى أجنحة إلى خلق السماوات والأرض وامساكهما ان تزولا وانفراده بذلك ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه المقاصد المفردة التي لم ترد في غير هذه السور ما افتتحت به ولا يلزم على هذا اطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها بل جواز ذلك منسحب على الجميع واختصاص هذه السور بذلك واضح لانفرادها بما ذكرناه.

أما عن وجه تخصيص كل سورة منها بما ورد فيها من أوصاف الله تعالى فيقول **الغرناطي** في كتابه "ملاك التأويل": لما كانت أم القرآن أول سورة ومطلع آياته وهو المبين لكل شئ والمعرف بوحدانيتها سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع وملك الدارين؛ ناسب ذلك من أوصافه العلية ما يشير إلى ذلك كله من أنه رب العالمين وأنه الرحمن الرحيم وأنه ملك يوم الدين حتى تنقطع الدعاوى وتظهر الحقائق ويبرز ما كان خبراً إلى العيان وهذا واضح. وأما الوصف الوارد في سورة الأنعام فمن حيث ما وقع فيها من الإشارة إلى من عبد الأنوار وجعل الخير

والشر من الظلمة فافتتحها تعالى بوصفه بأنه خالق السماوات والأرض وهي الأجرام التي عنها الظلمات وفيها الأجرام النيرات وذكر تعالى أنه خالق الأنوار وأعاد سبحانه ذكر ما فيه الدلالة البينة على بطلان مذهب من عبد النيرات أو شيئاً منها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) [الأنعام] الآيات فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ (٧٦) ثم قال عليه السلام على جهة الفرض لإقامة الحجة على قومه: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٧) ثم قال ذلك في الشمس والقمر مستدلاً بتغيرها وتقلبها في الطلوع والغروب على أنها حادثة مربوبة مسخرة طائعة لموجدها المنزه عن سمات التغير والحدوث فقال عليه السلام عند ذلك لقومه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) فأخبر عن حاله قبل هذا الاعتبار وبعده. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩) [آل عمران]، وفي طي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تنزيهه عن عبادة النيران وغيرها مما سواه تعالى، وبأن من هذا كله ما افتتحت به السورة من انفراده تعالى بخلق السماوات والأرض والظلمات والنور فوضح التناسب والتلازم.

وأما سورة الكهف فإنها لما انطوت على التعريف بقصة أصحاب الكهف ولقاء موسى عليه السلام الخضر وما كان من أمرهما وذكر الرجل الطواف وبلوغه مطلع الشمس ومغربها وبنائه سد يأجوج ومأجوج وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل في إدراكه ولا تعرف حقيقته إلا بالوحي والإنباء الصدق الذي لا عوج فيه ولا أمت ولا زيغ ناسب ذلك ذكر افتتاح السورة المعرفة بذلك الوحي المقطوع به قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١) والتناسب في هذا أوضح من أن يتوقف فيه.

وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود وسليمان من تسخير الجبال والطير وإلانة الحديد؛ ناسب ذلك ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقها فهو المسخر لها والمتصرف في الكل بما يشاء فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

وأما سورة فاطر فمناسبة وصفه تعالى باختراع السماوات والأرض لما ذكره من خلق عامري السماوات من الملائكة وجعلهم رسلاً أولى أجنحة وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا، أبين شيء وأوضحه. [١٣ : ١٥]

المناسبة بين الآيات:

المناسبة بين الآيات علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

من شواهد المناسبة بين الآيات:

✽ يقول تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) [البقرة] ما العلاقة بين قصة الذين خرجوا من ديارهم والطلاق؟

الجواب: أن من عادة النظم القرآني أنه يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع ، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد؛ فلما ذكر الله أحكام الطلاق والمراجعة، وكان الطلاق كالموت وكانت المراجعة كالإحياء، وكان كلاهما مما شرعه الله، وكان المتوفى قد يطلق زوجه في مرض موته فراراً من إرثها وقد يخص بعض وارثيه مما يضر به غيره، وقد يحتال على المطلقة ضراراً بما يمنع حقها؛ ناسبه ذكر ما كان من قصة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من قدر الله وهو الموت؛ فكانت النتيجة أن قال: ﴿لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ (٢٤٣)؛ للتأكيد على أن ما قضى الله لا بد من حدوثه، وأنه لا ينفع من قدره حذر، ولا يدفع مراده كيد ولا حيل وإن كثر العدد وجل المدد، ولعل في الآية حُضاً على التفضل بالمراجعة من الطلاق كما تفضل الله على هؤلاء بالإحياء بعد أن أدبهم بالإماتة.

❖ يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٠٥﴾﴾

ما المناسبة بين الأمر بالإنفاق وما ذكر من صفات الألوهية بعده؟

الجواب: لما بين الله أن يوم القيامة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة؛ ناسبه بيان سبب انقطاع الوصل بانبتار الأسباب وانتفاء الشفاعة في ذلك اليوم، إذ كان المألوف من ملوك الدنيا أنهم لا يكادون يتمكنون من أمر من الأمور حق التمكن من كثرة الشفعاء والراغبين من الأصدقاء، إذ كان الملك منهم لا يخلو مجلسه قط عن جمع كل منهم صالح للقيام مقامه، ببيان أن الله هو وحده سبحانه وتعالى المتفرد بالألوهية فلا شريك له ولاند ولا شبيهه المتفرد بالحياة التي لا يطرق عليها نوم ولا موت و المتفرد بالملك و المتفرد بالعلم و المتفرد بالإذن بالشفاعة وأنه هو العلي العظيم بذكر آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن كما قال رسول الله ﷺ .

❖ يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

ما المناسبة بين الآيتين؟

الجواب: لما بين الله أنه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور؛ ناسبه

ذكر الدليل على ذلك بما كان من تأييد الله لإبراهيم - عليه السلام - في محاجة النمرود بأن جعله يقول للنمرود بعد أن ادعى سفسطة أنه يحيي ويميت ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (٢٥٨) وأن جعل النمرود يبهت ولم ينبت عن بنت شفة، فلم يعارضه بقوله: فليأت بها ربك من المغرب؟

✽ يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ ۚ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّئَنَّ قُلُوبُكَ فَخَذَ مِنْهُمَا مِثْلَ طَيْرٍ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾﴾

ما المناسبة بين الآيتين؟

الجواب: لما بين الله تعالى أنه ولي المؤمنين، وذكر ما يدل على ذلك من قصة إبراهيم مع النمرود ومن قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، ومن إنعامه على إبراهيم بأن أراه كيفية إحياء الموتى؛ ناسبه ذكر ولايته لمن ينفقون في سبيله بمضاعفة حسناتهم إلى سبعمئة ضعف بما ضربه من المثل؛ فإذا كانت الحبة وهي مخلوقة لله تنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، فصارت الواحدة سبعمئة؛ فكيف بالله تعالى وهو الخالق القادر الوهاب!!!!

ويمكن أن يقال: إنه لما قال الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤) وذكر بين الآيتين ما يدل على وحدانيته وولايته للمؤمنين وما يدل على قدرته بالإحياء والإماتة؛ ناسبه ذكر ما يرغب في الإنفاق في سبيله وهو أنه يجازي القليل بالكثير، من خلال ما ضربه من المثل، وهو أن الحبة تنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، أي تنبت سبعمئة حبة.

✽ يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ٱلْقَلِيلِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا

الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨١﴾

أي رابط بين أحكام الأهلّة وبين حكم إتيان البيوت؟

قال الزركشي: "الجواب من وجوه:

أحدها: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلّة ونقصانها معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برًا.

الثاني: أنه من باب الاستطراد؛ لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج ففي الحديث أن ناسًا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطًا ولا دارًا ولا فسطاطًا من باب؛ فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلمًا يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء ف قيل لهم ليس البر بتخرجكم من دخول الباب لكن البر بر من اتقى ما حرم الله وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم السؤال عن الأهلّة ونظيره في الزيادة على الجواب قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن المتوضئ بماء البحر فقال: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثّل من يترك بابًا ويدخل من ظهر البيت؛ ف قيل لهم ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البر من اتقى ذلك ثم قال الله سبحانه ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أي باشروا الأمور من وجوها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا والمراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه وأنه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء] فإن في السؤال اتهامًا. "[البرهان ١/٤٠١ و ٤١٤]

✽ يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَةِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَمَا تَيْنَا مُوسَى الْأَكْنَبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي

وَكَيْلًا ﴿٢﴾. أي رابط بين الإسراء و {وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} ؟

الجواب: قال الزركشي: "أنه أسري بمحمد إلى ربه كما أسري بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب"، وما قاله الزركشي فيه نظر؛ لأن الآية ذكرت إيتاء الله موسى الكتاب ولم تذكر الإسراء. [البرهان ٤٢/١]

والأفضل أن يقال: إن آية الإسراء معجزة للنبي محمد - ﷺ - من الله دلالة على صدق رسالته كما أن إيتاء الله موسى الكتاب هداية لبني إسرائيل دلالة على صدق رسالته؛ فلم صدقتم بما أوتي موسى وتكذبون بما أوتي محمد - ﷺ - ؟

✽ يقول تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾.

ما مناسبة هذه الآيات لأول السورة وآخرها؟

ذكر السيوطي أن مناسبة هذه الآيات لأول السورة وآخرها عسر جداً؛ "فإن السورة كلها في أحوال القيامة حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء، وحتى ذهب القفال فيما حكاه الفخر الرازي أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل في قوله: ﴿يَبْئُؤُاَ الْإِنْسَانُ يَوْمَ ذَمَّرَ﴾ ﴿١٣﴾ [القيامة: ١٣] قال: يعرض عليه كتابه فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفاً فأسرع في القراءة فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ إن علينا أن نجمع عملك وأن نقرأ عليك ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿١٨﴾ "فإذا قرأناه" فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته انتهى. وهذا يخالف ما ثبت في الصحيح أنها نزلت في تحريك النبي صلى الله عليه وسلم لسانه حالة نزول الوحي عليه، وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها: أنه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة؛ فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي

وتفهم ما يرد منهوالتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك؛ فأمر بالأبداً إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي؛ فيتبع ما اشتمل عليه ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه فقال: {كلا} وهي كلمة ردع كأنه قال "بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقت من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة".

ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [٤٩] إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الآية.

ومنها: أنه لما نزل أول السورة إلى قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ مَعَاذِرُهُمْ﴾ (١٥) صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته فنزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ﴾ (١٦) إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٧) ثم عاد إلى الكلام إلى تكملة ما ابتدئ به. " [الإتقان ٣/٣٧٦: ٣٨٧]

المناسبة بين الآيات وفواصلها:

تعريف الفاصلة:

قال الزركشي: "الفاصلة هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع. وقال الداني: كلمة آخر الجملة. قال الجعبري: وهو خلاف المصطلح ولا دليل له في تمثيل سيبويه {يوم يأت} و {ما كنا نبغ} وليس رأس أي لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية ويلزم أبا عمرو إمالة {من أعطى} لأبي عمرو. وقال القاضي أبو بكر: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إلهام المعاني. وفرق الإمام أبو عمرو الداني بين الفواصل ورعوس الآية؛ قال أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس وكذلك الفواصل يكن رعوس أي وغيرها وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة تعم

النوعين وتجمع الضربين ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه في تمثيل القوافي ﴿يَوْمَ يَأْتِ (٥٥)﴾ [هود] و﴿مَا كُنَّا نَبْعُ (٤٤)﴾ [الكهف] وهما غير رأس آيتين بإجماع مع ﴿إِذَا يَسِرُّ (٤)﴾ [الفجر] وهو رأس آية باتفاق.

وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان وذلك أن آخر الآية قد فصل بينها وبين ما بعدها ولم يسموها أسجاعاً. فأما مناسبة فواصل فلقوله تعالى: ﴿كَذَّبُ قُضَيْلَتُ أَيَّتَهُ (٣)﴾ [فصلت] وأما تجنب أسجاع؛ فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام أحاد الناس ولأن القرآن من صفات الله عز وجل فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى ثم فرقوا بينهما فقالوا السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه والفاصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها. " [البرهان ١ / ٥٣ و ٥٤].

أنواع الفواصل:

الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع، وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل؛ مثال التماثلة قوله تعالى: ﴿وَالَيْلِ إِذَا يَبْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)﴾ [الليل].

ومثال المتقارب في الحروف قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٣)﴾ [الفاتحة].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق].

وتنقسم الفواصل إلى متواز ومطرف ومتوازن، وأشرفها المتوازي.

والمتوازي: هو أن تتفق الآيتان أو أكثر في الوزن وحروف الفاصلة كقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مُّزْفُوعَةٌ ۖ (١٣) وَأَكْوَابٌ مُّوَضُّوعَةٌ ۖ (١٤)﴾ [الغاشية].

والمطرف: أن تتفق الآيتان أو أكثر في حروف الفاصلة لا في الوزن كقوله تعالى ﴿طه ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ (٢) إِلَّا نَذْكِرَكَ لِمَنْ يَخْشَىٰ ۖ (٣)﴾ [طه].

والمتوازن: أن تتفق الآيتان أو أكثر الوزن فقط كقوله تعالى: ﴿وَاللَّزِزَاتِ غَرَقًا ۖ (١) وَاللَّشِطَاتِ نَشْطًا ۖ (٢) وَالسَّيْحَاتِ سَبًا ۖ (٣)﴾ [النازعات].

من شواهد المناسبة بين الآيات وفواصلها

❖ يقول تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ (٣٢)﴾ ويقول: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۖ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ (١٢٩)﴾ [البقرة].

لم خصت كل آية بما فيها من الفاصلة ؟

الآية الأولى وردت في مقام تعليم الله آدم الأسماء كلها وعدم تعليم الملائكة إياها؛ فلما كان ذلك لحكمة يعلمها الله، ودل ذلك على اختصاص الله بالعلم والحكمة؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ (٣٢)﴾.

أما الآيات الباقية فقد وردت في مقام دعاء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - رب العزة؛ فلما قالوا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ وكان الدعاء قد يكون سرًا، وقد يكون جهرا، مما يناسبه رسوخ صفة السمع والعلم بمن يستحق أن يبيل عمله ومن لا يستحق؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولما دعوا رب العزة بالتوبة، ناسب ذلك اتصاف الله برسوخ التوبة، ولما كانت التوبة لا تكمل إلا برسوخ الرحمة؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ولما طلبا من رب العزة أن يبعث في أمتهم ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

﴿وَيَرْكَبُهُمْ﴾ فلما كانت هذه الأمور لا يفدر عليها إلا من اتصف بقوة راسخة لا تغلب، ولا يعطيها إلا لمن يستحقها؛ أي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

✽ يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦] ويقول ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢] لم خست كل آية بما فيها من الفاصلة؟

الآية الأولى يسبقها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ اسْكِرَىٰ تَقَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، فلما كان ذلك دالا على نصرة بني إسرائيل بعضهم بعضا؛ ناسبه نفي النصرة، بقوله: ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أما الآية الأخرى فيسبقها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فلما كان بين الموت والبعث للحساب والجزاء تراخ قد يتوهم معه تأخر العذاب؛ ناسبه نفي ذلك بقوله: ﴿لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

✽ يقول تعالى: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا يَمْحَىٰ آلِيَّ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] لم خست كل آية بما فيها من الفاصلة؟

وردت الآيتان في سياق خطاب الله بني إسرائيل، فلما رغبهم الله في الوفاء بالعهد بقوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]؛ ناسب هذا ترهيبهم، ولما أريد الجمع بين الأمرين؛ ناسب هذا العطف بالواو؛ فناسب ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] ولما أمرهم الله بأشياء ونهاهم عن أشياء بقوله ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] وكان فعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه من ركائز التقوى، وكان بنو إسرائيل قد دأبوا على

التكذيب والعناد؛ ناسب هذا تأكيد الأمر بالتقوى وقصرها على الله، ولما أريد مطلق الجمع بين ما سبق؛ ناسبه العطف بالواو؛ فناسب ذلك قوله: ﴿وَأِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ (٤١).

✽ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَوْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة] ويقول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَلَّاتٌ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة] ويقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَرَيْنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤْوَا إِلَى الَّذِي أَوْثَقِنَا أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِهِمْ قُلُوبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]. لم خصت كل آية بما فيها من الخبر أو الفاصلة ؟

الآية الأولى تقدم فيها الحديث عن عدة من توفي عنها زوجها، وبيان ما يحل لأولي الأمر من النكاح بالمعروف؛ فلما كانت مدة العدة مما تختص به النساء، وكانت الرغبة في النكاح قد تجعلهن لا ينتظرن حتى انتهاء الأجل؛ ناسبه الترهيب بذكر ما يدل على أن الله هو العالم بكنه الشيء المطلع على حقيقته كالعدة والنكاح وغيرهما من الأعمال، بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق ضرب المثل لمن ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم؛ فلما كان الإخلاص والبعد عن الرياء والنفاق مما خفي ويحتاج العلم به إلى قوة الإدراك والفتنة؛ ناسبه ذكر بصير بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٥).

وأما الآية الثالثة فتقدم فيها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِهِمْ قُلُوبُهُ﴾؛ فلما أريد الترهيب من الكتمان بما يدل على علم الله الظاهر والباطن؛ ناسبه ذكر عليم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

✽ يقول تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤) [إبراهيم] ويقول: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) [النحل] لم خصت كل آية بما فيها من التذليل؟

قال الغرناطي: "الجواب: أن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨)، ثم قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٣٠) ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (٢٢) إلى قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (٢٤)؛ فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار.

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه وعباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه، وما ابتدأهم (به) من نعمة من لدن قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ (٤) ثم توالى آيات الامتنان والإحسان فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ (٥) فذكر تعالى بعضاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) ثم أتبع بقوله سبحانه: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨)، فناسب ختام هذا قوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم". [ملاك التأويل ٥٨٠ و٥٨١].

✽ يقول تعالى في سورة الكهف: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧)، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٢١).

لم خصت كل آية بما فيها من الفاصلة؟

يبين قتادة الفرق بين الآيتين بقوله "والنكر أشد من الإمر"، أي أن قتل الغلام أشد من خرق السفينة؛ لأن خرق السفينة لم يكن معه غرق، وقتل الغلام

كان معه هلاك نفس، ومن ثم خصت الآية الأولى بالإمر وخصت الآية الأخرى بالنكر. وقال مكي بن أبي طالب "قال بعض أهل اللغة: الإمر أشد من النكر؛ لأن الأمر إنما يستعمل في الشيء العظيم. فلما كان هلاك جماعة في خرق السفينة قال: " إمرأ " وقال: هنا "نكرأ " لأنه قتل واحداً، وقتل الجماعة أعظم من قتل واحد".

✽ يقول تعالى في سورة النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) ويقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) لم خصت كل آية بما فيها من الفاصلة؟

قال الغرناطي: "الجواب: أن الآية الأولى لما اتبنت على آية التلاعن، وفيها من الستر على المسلمين ممن امتحن بتلك البلية، ومن إخفاء الحكمة في حكم التلاعن وشرعيته على ما استقر عليه أمره، مما يعجز عن فهمه كل معتبر، أعقت بالصفتين المناسبتين لما ذكرنا مما هو غير خاف فقيل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠)، ولما تقدم قبل الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (١٩)، وجرى بظاهر هذه الآية من الوعيد ما يشتد خوف كل مؤمن منه، أعقب ذلك بصفتين مبيتين رجاء المؤمنين، ومشعرتين بأن هذا العذاب أن نفذ الوعيد به ليسس الخلود في النار، وما لم يكن من فاعل ذلك كفر باعتقاد حلية تلك المعصية أو التكذيب بالعويد أو التلبس بما هو كفر، وأنه إذا لم يكن شيء من هذا فلا قاطع عن التوبة، فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فقد وضح أن ورود كل من هذه الصفات المعطوفة على ما يجب ويناسب، وأن العكس لا يناسب، والله أعلم. [ملاك ٧٤٠ و ٧٤١]

✽ يقول تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨٨) [المائدة] لم خص الختام بالعزیز الحكيم دون الغفور الرحيم؟

قال الزركشي: "قوله: {وإن تغفر لهم} يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم وكذا نقلت عن مصحف أبي رضي الله عنه وبها قرأ ابن شنبوذ، ولكن إذا أمعن النظر علم أنه يجب أن يكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب

إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز لأن العزيز في صفات الله هو الغالب من قولهم عزه يعزه عزا إذا غلبه ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا لأن الحكيم من يضع الشيء في محله فאלله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفي وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك والحكمة فيما فعلته.

وقيل: لا يجوز الغفور الرحيم لأن الله تعالى قطع لهم بالعذاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (٤٨). وقيل: لأنه مقام تبر فلم يذكر الصفة المقتضية استمطار العفو لهم وذكر صفة العدل في ذلك بأنه العزيز الغالب وقوله: ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يعترض عليه إن عفا عن يستحق العقوبة.

وقيل: ليس هو على مسألة الغفران وإنما هو على معنى تسليم الأمر إلى من هو أملك لهم ولو قيل فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة ولا يسوغ الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه لا لنبي ولا لغيره وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وهم عباده عذبهم أو لم يعذبهم فلأن المعنى إن تعذبهم تعذب من العادة أن تحكم عليه وذكر العبودية التي هي سبب القدرة. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة براءة: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) [البرهان ٨٩ و ٩٠]

✽ يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة) ويقول: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران) لم خصت كل آية بما فيها من الختام؟

إن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة وفي آية آل عمران الختم بالعلم لكن إذا أمعن النظر علم أنه يجب أن يكون ما عليه التلاوة في الآيتين وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ مع أن ظاهر

الخطاب ذو عقوبة شديدة وإنما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمة الله تعالى في الاجترار على معصيته، وذلك أبلغ في التهديد ومعناه لا تغتروا بسعة رحمة الله تعالى في الاجترار على معصيته فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم.

✽ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝١﴾ [الإسراء]. ويقول: ﴿فِيمَا يُنذِرُ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ الكهف لم خصت كل آية بما فيها من الفاصلة أو من النعت ؟

الجواب: لما كان الذين آمنوا وعملوا الصالحات في سورة الإسراء قد أكبروا الله وتواضعوا له تواضعاً كبيراً ولم يعجبوا بأنفسهم ولم يعلوا علواً كبيراً كما فعل بنو إسرائيل؛ ناسبه أن يكون لهم أجر كبير. ولما كان الله في سورة الكهف قد جعل ما على الأرض زينة لها ليلبوا الناس أيهم أحسن عملاً، وكان الجزء من جنس؛ ناسبه أن يكون أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات حسناً.

✽ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر] ويقول: ﴿يَس ۝١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝٢﴾ ويقول: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق] لم خصت كل آية بما فيها من النعت أو الفاصلة؟

آية الحجر بدئت بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ﴾؛ فلما عبر الله عن نفسه بضمير العظمة وكان المؤتى وهو القرآن على قدر المؤتي وهو الله؛ ناسبه نعت القرآن بالعظيم؛ مراعاة لذلك وللفاصلة التي تنتهي بالياء والميم. أما آية يس فهي تتعلق بتخصيص الرسول ﷺ من بين جميع الخلق؛ ليكون رسولاً من عند الله؛ لينذر ﴿قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاوَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦﴾؛ فلما كان ذلك دالاً على بليغ حكمة الله الناتج عنها بليغ حكمة القرآن؛ ناسبه نعت القرآن بالحكيم. أما سورة ق فمن أبرز مقاصدها الدلالة على علو ومجد ما خلق الله من السماوات والأرض وما فيهن، ومجد من آمن وعلم معاني القرآن وامتنل أحكامه بدخوله الجنة وذل وهوان من

كذب وكفر بما فيه بدخوله جهنم؛ فناسبه نعت القرآن بالمجيد.

✽ يقول الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، ويقول: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف].

لم خصت كل آية بما فيها من النعت أو الفاصلة؟

لما كان من أبرز مقاصد سورة يونس بيان بليغ حكمة الكتاب الدال على حكمة منزله، وكان أدل دليل على ذلك الوحي إلى الرسول ﷺ دون غيره من العرب، وبيان أن الحكمة من إرساله أن يكون مبشراً ونذيراً؛ ناسبه نعت الكتاب بالحكيم. ولما كانت آيات سورة يوسف أمرها ظاهر في الإعجاز ومعانيها واضحة؛ أي مبينة لمن تدبرها أنها من عند الله، خاصة اليهود الذين قال علمائهم "لكبراء المشركين سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام"؛ ناسبه نعت الكتاب بالمبين.

✽ يقول تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٣﴾ [غافر] ويقول: ﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية].

لم خصت كل آية بما فيها من أسماء الله الحسنی؟

الجواب: لما كان تنزيل الكتاب من السماء إلى الأرض يدل على بليغ عزة الله؛ ناسبه نعت الله بالعزیز أولاً في السورتين، ولما كان السياق في سورة غافر متعلقاً بالتنسرية عن النبي ﷺ ببيان علم الله لما يفعله أعداؤه كما دل على ذلك قوله: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلَادِ ۝٤﴾؛ ناسبه نعت الله بالعزیز ثانياً، ولما كان الله العليم بالأعمال يغفر ذنب من تاب إليه ورجع، ويعاقب من أصر على المعصية أو الكفر عقاباً شديداً، وكان السياق أكثر تعلقاً بالترغيب؛ ناسبه نعت الله بـ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، ولما كان الفضل أكثر من العدل، ودل ذلك على أن الله ذو "الفضل والإنعام والقدرة

والغنى والسعة والمنة" المتفرد بالألوهية؛ ناسبه قوله: ﴿ذِي الْأَطْوَالِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ولما كان مصير الجميع إليه وحده؛ ناسبه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، ولما كان السياق في سورة الجاثية متعلقاً بذكر آيات الله ونعمه والغرض منها، ودل ذلك على بليغ حكمة الله؛ ناسبه نعت الله بالحكيم.

✽ يقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف] ويقول: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنُجَذِلَّهُٗ وَلِيًّا مُّشِيدًا﴾ [الكهف].

لم خصت كل آية بما فيها من الختام ؟

الجواب: أن آية الأعراف يسبقها قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ﴾؛ فلما كان هؤلاء قد بعدوا عن الهدى بعداً كبيراً بترك الآخرة بإقباله على أرباح الدنيا وأعرضها الفانية؛ ناسبه الإشارة إليهم بأداة البعد وما يدل على خسرانهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. أما آية الكهف فيسبقها قوله: ﴿فَأَوْرُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [١٦] وبدئت بقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [١٧] فلما كان ذلك دالا على أن الله هو الولي المرشد لمن هداه؛ ناسبه نفي ذلك عمن أضل بقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنُجَذِلَّهُٗ وَلِيًّا مُّشِيدًا﴾.

المناسبة بين فواتح السور وخواتيمها:

المناسبة بين فواتح السور وخواتيمها علم من علوم المناسبة القرآنية، عني به نفر قليل من المفسرين مثل: الكرمانى والفخر الرازى والأصبهاني والبقاعي، وخصه السيوطي برسالتة: "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"، ولعله الوحيد الذي خص هذا العلم بمؤلف مستقل.

البقرة: وافق آخرها أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ثم الإشارة إلى وصف الكافرين؛ فقد افتتحت بذكر أوصاف المتقين قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ

فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الْآيَاتِ ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ الْآيَاتَانِ. وختمت السورة بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٣٨٥﴾ ففي ذلك بيان لصفات المؤمنين وتعريض بصفات الكافرين الذين فرقوا بين الله ورسله وقالوا: سمعنا وعصينا.

النساء: افتتحت بذكر الخلق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ لَكُمُ مِّنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ ﴿١﴾ وختمت بأحكام الوفاة بقوله: ﴿سَتَقُونَا كَلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنَّ أَمْرًا هَٰكَذَا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ﴿١٧٦﴾ الآية.

التوبة: افتتحت بالبراءة من المشركين وتهديدهم ووعيدهم بقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ وختمت بذكر سبب البراءة منهم وتهديدهم ووعيدهم بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١٢٨﴾.

يوسف: افتتحت بالحديث عن الكتاب بقوله تعالى: ﴿الرَّيَّةُ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ وختمت بالحديث عنه بقوله: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْعَوَمِ ۖ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١١﴾.

إبراهيم: افتتحت بالحديث عن الكتاب ويذكر الحكمة من إنزاله بقوله تعالى: ﴿الرَّكَعَاتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١﴾ وختمت بمثل ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا الْأَلْبَابَ﴾ ﴿٥٤﴾.

النحل: افتتحت بالنهي عن الاستعجال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾ وختمت بالصبر وهو أبرز دواعي عدم الاستعجال بقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾.

المؤمنون: افتتحت بذكر فلاح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾
 الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ الآيات، وختمت بنفي فلاح الكافرون بقوله:
 ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ٣٧﴾.

ص: افتتحت بالحديث عن القرآن بقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾
 وختمت بالحديث عنه بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ٨٨﴾.

الدخان: افتتحت بالحديث عن القرآن بقوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ
 الْمُبِينِ ٢﴾، وختمت بالحديث عنه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِإِسَّاكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ٨٨﴾.

الفتح: افتتحت بالحديث عن النبي بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ١﴾
 الآيات، وختمت بالحديث عنه بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
 بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ٢٩﴾ الآية.

الحجرات: افتتحت بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله وبوصف الله
 بالعلم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾
 وختمت بمثل ذلك وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِيمَا
 تَعْمَلُونَ ٢٨﴾ ففي ذلك أعظم زجر وترهيب لمن قدم بين يدي الله ورسوله ولو
 أن تقدمه في سره. فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فكأنه قيل: لا تقدموا بين
 يديه فإن الله محيط العلم فهو يعلم سركم وجهركم، فقد رجع هذا الآخر إلى
 الأول، والتف به التفاف الأصل بالموصل.

الذاريات: افتتحت بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ٦﴾ وختمت
 بقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ٦٠﴾ وقد انطبق آخرها على
 أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي لك القسم الأكيد - والله أعلم
 بالصواب وإليه المرجع والمآب.

الطور: افتتحت بقوله: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْعٌ ٧﴾

وختمت بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧) وَأَصِيرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾، فقد ختمت السورة بما ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وهو صلاة الصبح محثوئاً عليها مرتين تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها فإن ذلك وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبعده عن الطائع السالم - والله الموفق.

الرحمن: افتتحت باسم الله جل جلاله بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) وختمت باسمه تبارك وتعالى بقوله: ﴿تَبَارَكَ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨).



ملخص الوحدة السادسة

التناسب وجه من وجوه الإعجاز التي تبين أن ترتيب الآيات من عند الله.

- محاور التناسب الأربعة وهي:

- التناسب بين فواتح السور وموضوعاتها.

- التناسب بين الآيات المتجاورة.

- التناسب بين الآيات والفواصل.

- التناسب بين فواتح السور وخواتيمها.

مع ذكر شواهد لكل نوع وبيان وجوه المناسبة في كل شاهد منها.



أسئلة على الوحدة السادسة

س١: وضح التناسب بين فاتحة سورة البقرة وخاتمتها.

س٢: وضح وجه التناسب في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥) [البقرة].

س٣: يقول تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ فَتَرَاهُ يَكُونُ (١٨) ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) [القيامة] بين وجوه المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها وما لحقها.

س٤: يقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِّ فَلَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) [الأعراف] ويقول: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُّرْشِدًا﴾ (١٧) [الكهف] لم خصت كل آية بما فيها من الختام؟

س٥: يعد باب التناسب في القرآن الكريم وجهًا من وجوه الإعجاز. وضح ذلك، مع الاستشهاد.

نموذج إجابة



إجابة السؤال الأول:

الجواب: وافق آخر البقرة أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ثم الإشارة إلى وصف الكافرين؛ فقد افتتحت بذكر أوصاف المتقين قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ الآيات ثم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ الآيتان. وختمت السورة بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ ۖ وَكُتِبَ لَهُم مِّن رَّبِّهِمْ وَأَطَعُوا ۝٣٨٥﴾ ففي ذلك بيان لصفات المؤمنين وتعريض بصفات الكافرين الذين فرقوا بين الله ورسله وقالوا: سمعنا وعصينا.



الوحدة السابعة

بلاغة ترتيب السور في القرآن الكريم

الأهداف:

- بعد دراسة هذه الوحدة؛ ينبغي أن يكون الدارس ملماً بما يلي:
- الإيقاف على أحد وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وهو تلاؤم ترتيب سورته وتناسقها على مستوى الترتيب النزولي، والترتيب المصحفي.
 - التأكيد على أن هذا الترتيب القرآني نزولياً ومصحفياً، ليس في مقدور بشر.
 - تقوية الحس البلاغي لدى الدارس ببيان سر بلاغة الترتيب في عدد من النماذج القرآنية المتنوعة على مستوى الترتيب النزولي، والترتيب المصحفي.

العناصر:

- مقدمة في ترتيب السور.
- عرض آراء بعض المفسرين والبلاغيين القدماء حول الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في ترتيبه.
- ذكر بعض النماذج التي تتجلى فيها بلاغة الترتيب النزولي.
- ذكر بعض النماذج التي تتجلى فيها بلاغة الترتيب المصحفي.

مقدمة في ترتيب السور:

أجمع العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي، وقطعوا بذلك، لكنهم "اختلفوا في ترتيب السور، هل هو بتوقيف من النبي ﷺ أو باجتهاد من الصحابة؟ قال السيوطي: "[ذهب جماعة إلى الثاني؛ منهم: مالك، والقاضي أبو بكر

في أحد قوليه، وجزم به ابن فارس. ومما استدل به لذلك: اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور، فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي، كان أوله: "اقرأ" ثم البواقي على ترتيب نزول المكي، ثم المدني، ثم كان أول مصحف ابن مسعود "البقرة" ثم "النساء" ثم "آل عمران" على اختلاف شديد، وكذا مصحف أبي بن كعب وغيره. وفي المصاحف لابن أشته بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطوال. وذهب جماعة إلى الأول؛ منهم: القاضي أبو بكر في أحد قوليه وخلائق. قال أبو بكر بن الأنباري: أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل، والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال **الكرماني** في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وكان يعرض النبي ﷺ على جبريل ما اجتمع لديه منه، وعرضه ﷺ في السنة التي توفي فيها مرتين، وكذلك قال الطيبي. وقال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي. وقال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتباً سورته وآياته على هذا الترتيب، إلا الأنفال وبراءة للحديث الآتي فيها.

وقال **الحافظ ابن حجر**: ترتيب معظم السور توقيفي؛ لحديث أحمد وأبي داود عن أوس الثقفي قال: كنت في وفد ثقيف، فقال لنا رسول الله ﷺ: "طراً عليّ حزبي من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أفضيه". قال أوس: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل، من "ق" حتى نختم. قال: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد النبي ﷺ.

وقال بعضهم: لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم: الأول: بحسب الحروف؛ كما في الحواميم، وذوات {الر}. الثاني: لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها؛ كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة. الثالث: الوزن في اللفظة كآخر {تَبَّتْ} وأول "الإخلاص". الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى؛ كـ"الضحى" و {أَلَمْ نَشْرَحْ}.

وقال بعضهم: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدت في غاية المناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها، ثم هو يخفى تارة، ويظهر أخرى. وأخرج ابن أشتة عن ربيعة أنه سئل: لِمَ قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا، وألَّفَ القرآن على علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهي إليه، ولا يُسأل عنه". [أسرار ترتيب القرآن- دار الفضيلة ٤١: ٤٦]

ترتيب السور وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

المتأمل في ترتيب السور سواء كان ترتيب نزول أم كان ترتيب المصحف العثماني يجد أنه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ؛ فأيات القرآن وسوره متناسبة متسقة المعاني، منتظمة المباني يرتبط بعضها ببعض، حتى تكون الكلمة الواحدة، وعلى الرغم من هذا قلت عناية المفسرين به كما أشار إلى ذلك فخر الدين الرازي والزرکشي والبقاعي والسيوطي؛ يقول الرازي: "القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر:

الترتيب القرآني ليس في مقدور بشر إنما هو من الله:

من المعلوم أن الترتيب المصحفي للقرآن يختلف اختلافاً بيناً عن ترتيبه

النزولي، ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل جملة أو دفعة واحدة، إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وأن نزوله كان بحسب الوقائع والأحداث التي واجهت مسار الدعوة الإسلامية، وأن لكل سورة موقعاً في ترتيب النزول وموقعاً آخر في ترتيب المصحف، وأنها في كل من الموقعين- وتلك آية الإعجاز الخالدة - قد تسنمت ذروة البلاغة، لمطابقتها - مقامياً - للواقعة أو المناسبة التي نزلت فيها من جهة، ومواءمتها - نصياً أو سياقياً - لموقعها في نسق ترتيبها ولما سبقها أو لحق بها من سور من جهة أخرى يقول الزرقاني مبيناً وجه الإعجاز في اختلاف هذين الترتيبين: "إن القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره؛ فإذا هو محكم السرد؛ دقيق السبك؛ متين الأسلوب؛ قوي الاتصال؛ أخذ بعضه برقاب بعض في سورته وآياته وجملة؛ يجري دم الإعجاز فيه آله من ألفه إلى يائه؛ كأنه سبيكة واحدة؛ ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ الأبصار؛ نظمت حروفه وكلماته؛ ونسقت جملة وآياته؛ وجاء آخره مساوفاً لأوله؛ وبدا أوله موائياً لآخره!!"

يقول الزرقاني في "مناهل العرفان" (طبعة الحلبي): "وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينتزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!"

الجواب: إننا نلمح هنا سرّاً جديداً من أسرار الإعجاز؛ ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية؛ ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء] وإلا فحدثني - بربك - . . كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد؛ متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر؛ وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها؛ ومتحدثاً عن؛ سبباً بعد سبب؛

وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي؛ وتغاير ما بين تلك الأسباب، مع تراخي زمان هذا التأليف؛ وتطاول آماذ هذه النجوم، إلى أكثر من عشرين عاماً؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً؛ نزل مفزاً منجماً، ولكنه تم مترابطاً محكماً، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب؛ ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب؛ ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً؛ ولكن تكامل انسجامة بداية وختاماً!! أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات؛ ومدير الخلق والكائنات؛ وقيوم الأرض والسموات العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون؟! لاحظ فوق ما سبق أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال ضعوها في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري "طبعاً" ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان؛ ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله والرسول - ﷺ بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم؛ وينتظم ويتآخى ويتآلف ويلتئم؛ ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت بل يعجز الخلق طراً عما فيه من انسجام ووحدة وترابط، "[٦٠: ٦٢] ولا غرو فالقرآن ﴿كَتَبْنَا أُحْكَمَتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ [هود] وهو كتاب ﴿عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول:

المناسبة بين البدء بسورة العلق والختم بسورة النصر:

إذا كان بعض العلماء كالنيسابوري والرازي والزرکشي والبقاعي والسيوطي وغيرهم قد عنوا ببيان المناسبة بين سور القرآن حسب ترتيب

المصحف العثماني؛ فإن جل العلماء لم يتعرضوا لبيان المناسبة بين سور القرآن حسب ترتيب النزول، ولعل السبب في ذلك أن هناك خلافاً كبيراً جداً بين العلماء في ترتيب السور حسب النزول. وهذه حقيقة يجب التسليم بها، لكن ذلك لا يمنع من بحث المناسبة بين سور القرآن حسب ترتيب النزول على أرجح الآراء بين الروايات التي وردت في مكة السور أو مدنيتهما، ومن ثم رأيت أن أتحدث عن المناسبة بين بعض السور حسب ترتيب النزول كما ذكر ابن الضريس في كتابه "فضائل القرآن"، وأبو عمرو الداني في كتابه "البيان في عد آيات القرآن"، والزرکشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، والسيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، وما جاء في مصحف مشيخة المقارئ المصرية.

بدأ الوحي على النبي ﷺ بسورة العلق خاصة الآيات الخمس الأولى، وختم بسورة النصر على أرجح الآراء. ولعل سبب البدء بسورة العلق يرجع إلى أن الرسول كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة؛ فأراد الله أن يبشر رسوله ﷺ بأن سيقراً باسم ربه الذي خلق خلق الإنسان من علق؛ فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت أن النبي ﷺ "جاءه الملك في غار حراء فقال: «اقرأ» فقال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني». فقال: «اقرأ» ، فقلت: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني» فقال: «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني» فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ [العلق] ففي بدء القرآن بذلك تنويه قوي بالقراءة والكتابة والعلم، وبالإيمان الذي اختص وحده بالقابلية لهذه النعم، "فكأنما أريد جعل هذه النعم في مقدمة نعم الله التي أنعمها على الإنسان، وفي مقدمة ما يجب على الإنسان أن يشكر الله عليه ويسعى في اكتسابه. والقرآن على هذا الاعتبار أعظم وأقوى، وأول داع ديني إلى العلم والقراءة والكتابة". كما قال دروزة عزت.

أما ختم القرآن بسورة النصر فيرجع إلى تبشير النبي بقرب رحيله عن الدنيا للقاء ربه عز وجل بعد أن أتم نعمته عليه بإكمال الدين وإتمام النعمة ودخول الناس في دين الله أفواجًا. وقد كان الرسول ﷺ أول من التفت إلى هذا المعنى ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر قبل أن يموت من قوله: سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك؛ فقالت له عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها، قال قد جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة، وكان رسول الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده فقالت أم سلمة - رضي الله عنها -: يا رسول الله إنك تكثر من سبحان الله وبحمده. لا تذهب ولا تجيء ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت: سبحان الله وبحمده؟ قال: إني أمرت بها فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة».

المناسبة بين سورة العلق وسورة القلم:

سورة العلق هي السورة الأولى، وسورة القلم هي السورة الثانية فما المناسبة بين السورتين؟

من المعلوم أن العلاقة بين القراءة والكتابة شديدة؛ فلما بدئت سورة العلق بما يتعلق بالقراءة بأمر النبي ﷺ بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١)؛ ناسبه أن يبدأ الحديث في سورة القلم بما يتعلق بالكتابة بقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) {القلم}.

وهناك وجه آخر للمناسبة بين السورتين هو أنه لما ختمت سورة العلق بقوله تعالى: ﴿أَرْأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ (١) إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١١) وكان ذلك ذلك مما يحزن النبي خاصة أنه في بداية الدعوة؛ فقد روي أن أبا جهل قال: واللات والعزى لئن رأيت محمدًا يصلي بين أظهركم لأطأن رقبتة ولأعفرن وجهه في التراب؛ ناسبه بدء سورة القلم بما فيه تثبيت للنبي ﷺ وطمأنة له وثناء عليه وحملة على المكذابين وإنذار لهم بقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لِّكَ لَا تَجْزَاغِرُ مَمْنُونٍ (٢) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) {القلم}.

المناسبة بين سورة القلم وسورة المزمل:

سورة العلق هي السورة الثانية، وسورة القلم هي السورة الثالثة؛ فما المناسبة بين السورتين؟

لما ختمت سورة القلم بقوله: ﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ لَفُوتُكَ بِأَبْصَرِهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ ۝٥١﴾ وكان ذلك مما يحزن النبي ﷺ؛ ناسبه نداؤه ﷺ وأمره بما يلزمه من وظائف عبادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره بأجمل مكالمة وأطف مخاطبة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ﴾ تسليية له وليحصل منه عدم الاكتراث بعناد من قدم عناده وكثر لججه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۝١﴾ ﴿وَأَلَّيْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ يَصْفُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ الآيات.

المناسبة بين سورة المزمل وسورة المدثر:

سورة المدثر وسورة المزمل متتابعتان في ترتيب النزول؛ فالمزمل هي الثالثة والمدثر هي الرابعة، ومتتابعتان في ترتيب المصحف؛ فالمزمل هي الثالثة والسبعون والمدثر هي الرابعة والسبعون، ومناسبة سورة المدثر لسورة المزمل واضحة؛ كما قال ابن الزبير في "البرهان" "فاستفتح السورتين من نمط واحد؛ فقد ابتدئت كل واحدة منهما من جليل بخطابه ﷺ وعظيم تكريمه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ﴾، والأمر فيهما بما يخصه ففي المزمل ﴿وَأَلَّيْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ الآية، وفي المدثر: ﴿قُلْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝٣﴾ وأتبع الأولى بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ۝١٠﴾، وفي الثانية بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ وكل ذلك قصد واحد وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ الآيات، وكذلك في الأخرى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ الآية؛ فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد. [البرهان في ترتيب سور القرآن - تحقيق: محمد شعباني وزارة الأوقاف - المغرب ٣٥٠ و٣٥١]

وأحسن مما قاله ابن الزبير قول البقاعي في نظم الدرر: "لما ختمت «المزمل» بالبشارة لأرباب البصارة بعدما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المتهئي

للقيام بأعباء الدعوة، افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة لأصحاب الخسارة، فقال معبراً بما فيه بشارة بالسعة في المال والرجال والصلاح وحسن الحال في الحال والمآل، ومعرفاً بأن المخاطب في غاية اليقظة بالقلب وإن ستر القلب: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾... والتعبير بالأداة الصالحة للقرب والبعد يراد به غاية القرب بما عليه السياق وإن كان التعبير بالأداة فيه نوع ستر لذلك مناسبة للتدثر، واختير التعبير بها؛ لأنه لا يقال بعدها إلا ما جل وعظم من الأمور، وكان الدثار لم يعم بدنه الشريف بما دل عليه التعبير بالإدغام دون الإظهار الدال على المبالغة لأن المراد إنما كان ستر العين ليجتمع القلب، فيكفي في ذلك ستر الرأس وما قاربه من البدن، والإدغام شديد المناسبة للذثار". [٢٢٠/٨]

المناسبة بين سورة المدثر وسورة المسد:

سورة المدثر هي الرابعة وسورة المسد هي الخامسة؛ فما المناسبة بينهما؟

لما ختمت سورة المدثر بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (١٩) وكان أبو لهب عم النبي من أشد المعرضين عن التذكرة، وكان ممن يقف حجر عثرة أمام دعوته الناس للدخول في الإسلام؛ فحين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا وهتف يا صباحاه؛ فاجتمعوا إليه فقال أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا؛ ناسبه بيان عاقبته بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (الآيات).

المناسبة بين سورة الكافرين وسورة الفيل:

سورة الكافرين هي السابعة عشرة وسورة الفيل هي الثامنة عشرة؛ فما المناسبة بينهما؟

لما ختمت سورة الكافرين بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١) وكان المقصود من ذلك التهديد والوعيد؛ ناسبه ذكر ما يدل على تحقق الوعيد والتهديد بذكر ما حدث لصحاب الفيل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (السورة).

المناسبة بين سورة التين وسورة قريش:

سورة التين هي السابعة والعشرون وسورة القلم الثامنة والعشرون؛ فما المناسبة بينهما؟

لما أقسم الله بمكة في سورة التين بقوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٢﴾ وختم السورة بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لِمُحْكِمِينَ ۝٨﴾؛ ناسبه ذكر طرف من حكمته فيما يتعلق بالبلد الأمين بقوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٌ ۝١﴾ إلفهم رحلة الشتاء والصيف ۝٢ فليعبدوا ربَّ هذا البيت ۝٣ أَلَذَّتْ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤؛ فانه بمنه وكرمه على جعل قريشاً سادة العرب؛ لأنهم سدنة البيت، ويسر لهم رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانوا يجنون منهما أسباب الرخاء والرفاهية، ويسر لهم ببركته الوقاية من الجوع والأمن من الخوف، كل ذلك تأليفاً لقلوبهم كي يعبدوه وحده.

المناسبة بين سورة الجن وسورة يس:

سورة الجن هي التاسعة والثلاثون وسورة يس هي الأربعون؛ فما المناسبة بينهما؟

لما ختمت سورة الجن بقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٣١﴾ إِلَّا مَنْ أَزْغَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٣٢﴾؛ ناسبه ذكر أن الله ارتضى محمداً ﷺ رسولاً، وأقسم على ذلك بقوله: ﴿يَس ۝١﴾ والقرآن الحكيم ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤﴾، وذكر ما يدل على تأييد الله لرسوله محمد حين جعله يخرج من بين أيدي الكفار المتربصين به ويهاجر على المدينة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١﴾.

المناسبة بين السور حسب ترتيب المصحف العثماني:

بين البدء بسورة الفاتحة والختم بسورة الناس:

يبدأ المصحف العثماني بسورة الفاتحة وختم بسورة الناس، وقد افتتح

سبحانه كتابه بسورة الفاتحة؛ لأنها بدئت بشيئين لم تبدأ بهما أي سورة من سور القرآن - على أرجح الأقوال وأصحها - وهما البسملة والحمد لله؛ فالله يريد أن يعلم لعباده أن يبدأوا كل أعمالهم بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ❶؛ لأن كل عمل لم يبدأ بها فهو أبتـر. أو أن يبدأوا بـ ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❷؛ لأن الحمد فاتحة كل خير وتمام كل نعمة.

وافتح سبحانه كتابه بسورة الفاتحة؛ لأنها كما يقول السيوطي: "جمعت مقاصد القرآن، ولذلك كان من أسمائها: أم القرآن، وأم الكتاب، والأساس؛ فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال. قال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتاب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة. وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد، والأمر والنهي، وعلى الوعد والوعيد، وآيات القرآن لا تخلو من هذه الأمور.

وقال الإمام فخر الدين: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر، فقوله: ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❷ يدل على الإلهيات، وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ❸ يدل على نفي الجبر، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ❹ إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله، وعلى النبوات، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة، التي هي المقصد الأعظم من القرآن.

وقال البيضاوي: هي مشتملة على الحكم النظرية، والأحكام العملية، التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على مراتب السعداء، ومنازل الأشقياء.

وقال الطيبي: هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين: أحدها: علم الأصول، ومعاقده معرفة الله عز وجل وصفاته، وإليها الإشارة بقوله: ﴿أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❷ ❸ ❹ ❺ ❻ ❼ ❽ ❾ ❿ ⓫ ⓬ ⓭ ⓮ ⓯ ⓰ ⓱ ⓲ ⓳ ⓴ ⓵ ⓶ ⓷ ⓸ ⓹ ⓺ ⓻ ⓼ ⓽ ⓾ ⓿ ومعرفه

المعاد، وهو الموماً إليه بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ١. وثانيها: علم الفروع، وأُسُّه العبادات، وهو المراد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٢.

وثالثها: علم ما يحصل به الكمال، وهو علم الأخلاق، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية، والالتجاء إلى جناب الفردانية، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٣. أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٤.

ورابعها: علم القصص والإخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية، السعداء منهم والأشقياء، وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعد مسيئهم، وهو المراد بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٥.

قال: وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة؛ فإنها بُنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً؛ فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله؛ ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق.

وقال الغزالي في "خواص القرآن": مقاصد القرآن ستة: ثلاثة مهمة، وثلاثة تنمة: الأول: تعريف المدعو إليه، كما أشير إليه بصدرها. وتعريف الصراط المستقيم، وقد صرح به فيها. وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى، وهو الآخرة، كما أشير إليه بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٦. والآخر: تعريف أحوال المطيعين، كما أشار إليه بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ٧. وحكاية أقوال الجاحدين، وقد أشير إليها بـ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ٨. وتعريف منازل الطريق، كما أشير إليه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٩. [٥٣: ٤٩]

وخُتم القرآن بسورة الناس عملاً بظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ١٠ [النحل]؛ فقد أمر الله كل من يختم القرآن أن يستعِذ بالله من شر الوسواس الذي قد يجعله يغتر بما كسبه من كثرة الحسنات، ومن المعلوم أن الغرور مقدمة الكبر الذي أخرج إبليس من رحمة الله.

وُخِّمَ القرآن بسورة الناس؛ لأنه " لما كمل مقصود الكتاب واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأنانب، وكان ذلك مثيراً لحسد الحاسدين وكيد الكائدين؛ ناسبه الختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذراً، وشر الثقلين؛ فالمطلوب "في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت". كما قال الرازي في [التفسير الكبير- دار إحياء التراث العربي - بيروت ٣٧٨/٣٢]

وقد أخرجت سورة الناس " عن شقيقتها لعموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٢) وإيهام (ما) وتنكير غاسق وحاسد، والعهد فيما استعيز من شره في سورة الناس وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه وأوفى بالمقصود". كما قال ابن الزبير في [البرهان ٣٨٥ و٣٨٦]

المناسبة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة:

قال أبو جعفر بن الزبير في كتابه [البرهان في تناسب سور القرآن]: "لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) قيل له: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) هو مطلوبك وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم"

وقال الخويي: "أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة؛ لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول. ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة، فذكر الذين على هدى من ربهم، وهم المنعم عليهم، والذين اشتروا الضلالة بالهدى، وهم الضالون، والذين باعوا بغضب من الله، وهم المغضوب عليهم".

وذكر السيوطي في "أسرار ترتيب القرآن" ست وجوه لمجيء سورة البقرة بعد الفاتحة هي: الوجه الأول: "سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة؛ فقله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (٢) تفصيله: ما وقع فيها من الأمر بالذكر

في عدة آيات، ومن الدعاء في قوله: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١٨١) الآية، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٨٢) وبالشكر في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٨٣).

وقوله: ﴿رَبِّ الْمَسْلُومِينَ﴾ (٢) تفصيله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦) [البقرة]؛ ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر، وهو أشرف الأنواع من العالمين، وذلك شرح إجمال ﴿رَبِّ الْمَسْلُومِينَ﴾ (٢).

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١) قد أوما إليه بقوله في قصة توبة آدم: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤)، وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (١١٦)، فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ (١١٦)؛ وذلك لكونه رحماناً. وما وقع في قصة بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ (٥٢) إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٣) وذكر آية الدِّينِ إرشاداً للطالبيين من العباد، ورحمة بهم ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر، وما لا طاقة لهم به، وختم بقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (١٨٢) وذلك شرح قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (١) [الفاتحة: ٤] تفصيله: ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع؛ ومنها قوله: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٢٨٤). والدين في الفاتحة الحساب في البقرة. [٥٦: ٥٨]

الوجه الثاني: "أن الحديث والإجماع على تفسير ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، والضالين بالنصاري، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم

في الزمان، فعقب بسورة البقرة، وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة."

الوجه الثالث: أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال؛ ولهذا سميت... "فسطاط القرآن" الذي هو: المدينة الجامعة؛ فناسب تقديمها على جميع سوره.

الوجه الرابع: أنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال؛ فناسب البداء بأطولها.

الوجه الخامس: أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب الابتداء بها؛ فإن للأولية نوعاً من الأولوية.

الوجه السادس: أن سورة الفاتحة لما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً، وخُتمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذه بالخطأ والنسيان، وحمل الإصر، وما لا طاقة لهم به تفصيلاً، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿لَا تَقْرُؤْ بَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع، وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق". [٦٠: ٦٢]

المناسبة بين سورة البقرة وسورة آل عمران:

ذكر ابن الزبير أن اتصال سورة آل عمران بسورة البقرة من جهات:

إحداها: ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.

ثانيتهما: الإشارة في صدر السورة أيضاً إلى أن الصراط المستقيم قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا (الكتاب) جاء مصدقاً لها

﴿زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٣)

[آل عمران] ليبين لأمة محمد ﷺ أن من تقدمهم قد بين لهم:

والثالثة: قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران] كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة على ما لم تكن العرب تعرفه وأنذروا وحذروا، واتبعت أيضا قصة عيسى عليه السلام بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة". [البرهان ١٩٥ و١٩٦]

المناسبة بين سورة يونس وسورة هود وسورة يوسف:

المناسبة بين سورتي يونس وهود ترجع إلى أنه لما ختمت سورة يونس بالحث على اتباع الكتاب ولزومه والصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاوز الخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال؛ ابتدئنا هذه أي هود بوصفه بما يرغب فيه بقوله: ﴿الرَّكَابُ أَحْكَمُ أَيُّنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود].

أما المناسبة بين سورتى هود ويوسف فنرجع إلى أن قوله في مطلع يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ مناسب لقوله في مقطعه هود:

﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وأيضا لما وقع في سورة هود: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧) [هود] وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، وذكر هنا حال يعقوب مع أولاده، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته، فكان كالشرح لإجمال ذلك. وكذلك قال هنا: ﴿وَيُثَبِّتُ يَمِينَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦] فكان ذلك كالمقترن بقوله في هود: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

المناسبة بين سورة مريم وسورة الكهف:

قال ابن الزبير في "البرهان": "لما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف] ثم أورد خبرهم وخبر الرجلين موسى والخضر (عليهما السلام)، وقصة ذي القرنين، أتبع سبحانه ذلك بقصص تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا وأخفى سببا فافتتح سورة مريم ببيحيى بن زكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وقطع الرجاء وعقر الزوج حتى سأل زكريا مستفهما ومتعجبا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) [مريم] فأجابه الله تعالى بأن ذلك عليه هين وأنه يجعل ذلك آية للناس وأمر هذا أعجب من القصص المتقدمة فكان قد قيل: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا نحن نخبرك بخبرهم ونخبرك بما هو أعجب وأغرب وأوضح آية وهو قصة زكريا في ابنه يحيى عليهما السلام، وقصة عيسى (عليه السلام) في كينونته بغير أب ليعلم أن الأسباب في الحقيقة لا يتوقف عليها شيء من مسبباتها إلا بحسب سنة الله، وإنما الفعل له سبحانه لا لسبب وإلى هذا أشار قوله تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٩) [مريم] ثم أتبع سبحانه بشارة زكريا ببيحيى بإتيانه الحكم صبيا ثم بذكر مريم وابنها عليهما السلام وتعلقت الآي بعد إلى انقضاء السورة. [٢٥١ و ٢٥٢]

المناسبة بين سورة طه وسورة مريم:

قال ابن الزبير في "البرهان": "لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨] وكان ظاهر هذا الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه محمد ﷺ ملاطفة المحبوب المقرب المجتبي فقال: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه].

وأيضاً فقد ختمت سورة مريم بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْشِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم] بعد قوله: ﴿وَنُذِرْ بِهِ قَوْمًا لَدَا﴾ [٧٧] [مريم] وقد رأى عليه السلام من تأخر قريش عن الإسلام ولردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له: فلا تحزن عليهم "فكانه عليه الصلاة والسلام ظن أنه يستصعب المقصود من استجابتهم أو يقطع الرجاء من إنابتهم فيطول العناء والمشقة فبشره سبحانه بقوله: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه] فلا عليك من لدن هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله. . . ثم أتبع سبحانه ذلك تعريفاً وتأنيساً بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] إلى أول قصص موسى عليه السلام؛ فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية لم من وفقه لم يصعب أمره، ثم أتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام وما كان منه في إلقائه صغيراً في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول والله أعلم". [٢٥٢ و ٢٥٣]

المناسبة بين الحواميم السبع:

الحواميم السبع وهي: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف متتابعات في ترتيب المصحف فغافر السورة الأربعون والأحقاف هي السورة والأربعون، وهي متتابعات في ترتيب النزول فغافر السورة التاسعة والخمسون والأحقاف هي السورة الخامسة والستون.

ووجه توالي الحواميم السبع كما قال السيوطي في "أسرار ترتيب القرآن": هو: تأخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب، . ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ {حم}، وبذكر الكتاب بعد حم، وأنها مكية؛ بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة واحدة. . . وقال الكرمانلي في "العجائب": ترتيب الحواميم السبع لما بينها من المشاكل الذي خصت به، وهو: أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام. انتهى. قلت: وانظر إلى مناسبة ترتيبها؛ فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر، ومطلع فصلت التي هي ثمانية الحواميم مناسب لمطلع الشورى، ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف. [١٢٩: ١٣١]

أما وجوه المناسبة بين الحواميم السبع:

فترجع إلى أنه لما ختمت غافر بأن الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا، وأنهم عند البأس انسلخوا عنه وتبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم؛ فعلم أن كل علم لم ينفع عند الشدة والبأس فليس بعلم، بل الجهل خير منه، وكان ذلك شاقاً على النبي ﷺ خوفاً من أن يكون آخر أمر أمته الهلاك، مع الإصرار على الكفر إلى مجيء البأس، وأن يكون أغلب أحواله ﷺ النذارة، افتتح سبحانه سورة فصلت بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله قوة توجب له القيام فيما ينفعه، وكرر الوصف بالرحمة في صفة العموم وصفة الخصوص إشارة إلى أن أكثر الأمة مرحوم بقوله: ﴿حَمْدٌ ۝١ نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾.

ولما تضمنت سورة غافر ما تقدم من بيان حالي المعاندين والجاحدين، وأعقبت بسورة السجدة بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمه وإيضاحاً لأنه الكتاب العزيز وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضى عليه تعالى بالكفر، اتبعت السورتان بما اشتملت عليه سورة الشورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سبق في علمه تعالى بحكم الأزلية ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ﴾ ﴿نَهْدِي بِهٖ مِنْ شَأْنٍ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فتأمل هذه وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر، ومحكم ما استجره، وبناء هذه السورة على ذلك ومدار آيها، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها". [ابن الزبير-البرهان ٢٩٨ و٢٩٩]

ولما حفلت سورة الشورى "بتكرار الثناء على الكتاب العربي كقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهٖ مِنْ شَأْنٍ مِنْ عِبَادِنَا﴾ - إلى آخر السورة، أعقب ذلك بالقسم به وعضد الثناء عليه" فقال في بداية الزخرف: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [ابن الزبير-البرهان ٣٠٠].

ولما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، "وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنًا عربيًّا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف] وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا "[ابن الزبير-البرهان ٣٠٣]، فقال تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝٣﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٤﴾.

ولما تضمنت سورة الدخان " إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وأنه شاف كاف وهدى ونور، وكان أمر من كفر من العرب أعظم شيء لانقطاعهم عجزهم وقيام الحجة به عليهم حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما قاموا بادعاء معارضته ولا تشوفوا إلى الإسناد إلى عظيم تلك المعارضة، أتبع ذلك تعالى تنبيهاً لنبيه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواء مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" [ابن الزبير-البرهان ٣٠٣ و ٣٠٤]، لما كان الأمر كذلك؛ ناسبه قوله أول سورة الجاثية: ﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ۖ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

ولما "قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به وجليل بيانه وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة ومع ذلك فلم يجر عليهم إلا التماذي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم وسيء محالهم، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلاً بسوء مرتكبهم وإعلاماً بأليم منقلبهم فقال تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف]. [ابن الزبير-البرهان ٣٠٨].

ملخص الوحدة السابعة



- مقدمة في ترتيب السور.
- ترتيب القرآن الكريم حسب النزول أو حسب ترتيب المصحف وجه من وجوه الإعجاز.
- آراء بعض المفسرين والبلاغيين القدماء حول الإعجاز البلاغي.
- من بلاغة الترتيب النزولي:
- التناسب بين البدء والختام أو بين سورة العلق وسورة النصر.
- التناسب بين سورة العلق وسورة القلم.
- التناسب بين سورة القلم وسورة المزمل.
- التناسب بين سورة المزمل وسورة المدثر.
- التناسب بين سورة المدثر وسورة المسد.
- التناسب بين سورة الكافرين وسورة الفيل.
- التناسب بين سورة التين وسورة قريش.
- التناسب بين سورة الجن وسورة يس.
- من النماذج التي تتجلى فيها بلاغة الترتيب المصحفي:
- التناسب بين البدء والختام أو بين سورة الفاتحة وسورة الناس.
- التناسب بين سورة الفاتحة وسورة البقرة.
- التناسب بين سورة البقرة وسورة آل عمران.
- التناسب بين سورة يونس وسورة هود وسورة يوسف.
- التناسب بين سورة الكهف وسورة مريم.

- التناسب بين سورة مريم وسورة طه.
- التناسب بين الحواميم السبع: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف.



أسئلة على الوحدة السابعة

س١: ما وجوه المناسبة بين سورة البقرة وسورة آل عمران؟

س٢: بين المناسبة بين السور الآتية:

أ - الكافرون والفيل.

ب- الدخان والجاثية.

ج- التين وقريش.

د - مريم وطه

هـ- يونس وهود.

و - الجن ويس.



نموذج إجابة

إجابة السؤال الأول:

الجواب: ذكر أبو جعفر بن الزبير أن اتصال سورة آل عمران بسورة البقرة من ثلاث جهات:

إحداها: ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.

ثانيتهما: الإشارة في صدر السورة أيضاً إلى أن الصراط المستقيم قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا الكتاب جاء مصدقاً لها

﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران) [ليبين لأمة محمد ﷺ أن من تقدمهم قد بين لهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء)].

والثالثة: قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران) كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة على ما لم تكن العرب تعرفه وأنذروا وحذروا، واتبعت أيضاً قصة عيسى عليه السلام بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة".

وقال السيوطي: "من وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) ولم يقل في الجنة: أعدت للمتقين، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً، وقال ذلك في آل عمران في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة".

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

التطبيقات

تطبيقات على الوحدة الأولى وإجاباتها

س ١: اذكر أبرز الوجوه التي ذكرها الخطابي لإعجاز القرآن مبيناً رأيه فيها.

ج ١: وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها الخطابي وبين رأيه فيها :

❖ ذهب قوم إلى أن من وجوه إعجاز القرآن عجز العرب قاطبة وهم الفصحاء البلغاء عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه على الرغم من تحدي النبي ﷺ لهم طوال حياته، وعلى الرغم من مرور تطاول الزمان من بعثة الرسول إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه".

وبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: " وهذا أبينها دلالة وأيسر مؤونة، وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه".

❖ وذكر مذهب الصرفة وهو أن الله صرف الهمم عن معارضة القرآن وإن كان مقدوراً عليها وعلق عليه بقوله: " وهذا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء) فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة؛ فدل على أن المراد غيرها".

❖ وذكر أن طائفة زعمت "أن إعجازه إنما فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ * فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ (الروم) وغيره من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها".

ويبين الخطابي رأيه في هذا الوجه بأن هذا " وما أشبهه من أخبار نوع من أنواع الإعجاز، لكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل الله في صفة كل سورة أن تكون معجزة في نفسها لا يقدر أحد

من الخلق أن يأتي بمثلها؛ فقال ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة) من غير تعيين".

✽ وذكر أن هناك من زعموا "أن إعجازه من جهة البلاغة، وهمم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيتها يعرض الإشكال، وقد جرى عامة أهل هذه المقالة على نوع من التقليد وغلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن قالوا: لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر...، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده... وقالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به".

وبيين الخطابي رأيه في هذا الوجه بقوله: " وهذا لا يُقنع في مثل هذا العلم، ولا يُشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل به على إبهام".

س ٢: أذكر خمسة من الكتب الأولى التي ألفت في إعجاز القرآن.

من أبرز الكتب التي ألفت في إعجاز القرآن :

- كتاب " الاحتجاج لنظم القرآن " للجاحظ (٢٥٥هـ) .
- رسالة " بيان إعجاز القرآن " للخطابي .
- رسالة " النكت في إعجاز القرآن " للرماني .
- القاضي عبد الجبار وكتابه المغني في " أبواب التوحيد والعدل " الجزء السادس عشر.
- الباقلاني وكتابه " إعجاز القرآن ".

س ٣: أذكر أبرز الوجوه التي ذكرها الرماني لإعجاز القرآن ثم تحدث عن إحداها بالتفصيل.

ج ٣: بدأ الرماني كتابه " النكت في إعجاز القرآن " ببيان أن وجوه إعجاز القرآن، تظهر من سبع جهات هي:

- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة- التحدي للكافة- الصرفة-
البلاغة - الأخبار الصادقة عن أمور المستقبل- نقض العادة - قياسه بكل
معجزة.

وبين أن وجوه البلاغة عشرة هي :

- الإيجاز وأنواعه - التشبيه ووظائفه الأربعة - الاستعارة - الاستعارة أبلغ
من الحقيقة - التلاؤم - الفواصل - التجانس- التصريف - التضمين-
المبالغة حسن البيان.

- الحديث بالتفصيل عن إحداها :

١- الإيجاز :

وعرف الإيجاز بأنه: " تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى " وقسمه إلى
نوعين إيجاز حذف وإيجاز قصر؛ **فإيجاز الحذف** معناه إسقاط كلمة من
الكلام للدلالة عليها ابدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام."؛ فمن الحذف
قوله:

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ في الذكر، وما جاء
في القرآن منه كثير كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ
الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ﴾؛ كأنه قيل: لكان هذا القرآن.

و إيجاز القصر: بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ومن
أمثلته ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ومنه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾... وهذا
الضرب من الإيجاز في القرآن كثير.

أو التشبيه :

وعرف التشبيه بأنه العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسن
أو عقل.

ونذكر أن للتشبيه أربعة وظائف هي :

١- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قيل: يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قد رأى لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لان الظمآن أشد حرصا عليه، وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الابد في النار، نعوذ بالله من هذه الحال. وتشبيهه أعمال الكفر بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة "

٢- إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة. وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهداته لذلك أو علمه به، ليطلب الفوز من قبله، ونيل المنافع بطاعته "

٣- إخراج ما لا يعلم بالبدية إلى ما يعلم بها مثل قوله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ففي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الامور، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة.

٤- إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها؛ كقوله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له القوة فيها. وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال أعظم. وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما في ذلك من الانتفاع بها وقطع الاقطار البعيدة فيها "

أو الاستعارة

وعرف الاستعارة: بأنها " تعليق العبارة على غير ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة." وبين أن أجزاء الاستعارة اثنان هما : مستعار له، ومستعار منه. وأن لكل استعارة أصل هو الحقيقة.

ومن أمثلة الاستعارة في القرآن قوله عز وجل ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان) حقيقة قدمنا هنا: عمدنا. وقدمنا أبلغ منه؛ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر؛ لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرأهم على خلاف ما أمرهم. وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال. والمعنى الذى يجمعهما العدل؛ لأن العمد إلى إبطال الفساد عدل. القدوم أبلغ لما بينا. وأما هباء منثورا فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه حاسة إلى ما تقع عليه حاسة ".

ومنها قوله عز وجل ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر) حقيقته: بلغ ما تؤمر به. والاستعارة أبلغ من الحقيقة؛ لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة. والتبليغ قد يضعف حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذى يجمعهما الإيصال، إلا أن الإيصال الذى له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ.

أو التلاؤم

وعرف التلاؤم: بأنه نقيض التنافر، وأنه تعديل الحروف في التأليف. وذكر أن التأليف على ثلاثة أوجه : متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا؛ فالمتنافر كقول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قربَ قبرٍ حربٍ قبرُ

وذكروا أن هذا من أشعار الجن، لانه لا يتهياً لاحد أن ينشده ثلاث مرات فلا

يبتتتع. وإنما السبب في ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف " وذكروا أن هذا من شعر الجن! وحروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده ثلاث مرات إلا ببتتتع فيه!

وأما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى - وهو من أحسنها - كقول الشاعر:

رمتني وسُئِرُ الله بيني وبينها عشيّة آرام الكناس رمي

والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بين لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف، على نحو الفرق بين المتلائم والمتنافر في الطبقة الوسطى. وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من المكسور، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والخلق.

و بين أن السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً " والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليه من حسن الصورة وطريق الدلالة. ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والظرف، وقراءته في أقبح ما يكون من الظرف والخط، فذلك متفاوت في الصورة وإن كانت المعاني واحدة ... والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الاسماع، وتقبله في الطباع. فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات - ظهر الإعجاز للجيد الطباع، البصير بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما .

س٤: اذكر أبرز وجوه إعجاز القرآن عند الجاحظ مع الحديث عن إحداها بالتفصيل.

ج ٤: وجوه الإعجاز عند الجاحظ :

الوجه الأول - عجز العرب عن معارضة القرآن:

بين الجاحظ أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله - ﷺ -

وأنة أعجوبة كأعجوبة إبراء الأكمة والأبرص وفلق البحر بالعصا. ويستدل الجاحظ على إعجاز القرآن الكريم بعجز العرب عن معارضة القرآن الكريم أو الإتيان بمثله، فيشير إلى أن العرب كان الكلام «كلامهم، وهو سيد علمهم، فقد فاض ببيانهم، وجاشت به صدورهم. وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخنافس والجعلان، والحمير والحمام، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب، ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف، كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس، والأسجاع والمنثور». ولما كان العرب على هذا القدر من الكلام أنزل القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلسان عربي مبين ولم يؤمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن فتحداهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتوا بمثل القرآن فقال: «لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء، والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي»؛ فلما تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من اختلاف طبائعهم وشرائعهم، هجوه من كل جانب «وخاصموه في المواسم، وبادروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم أثبت الناس حقاً، وأبعدهم مطلباً، وأذكرهم لخير أو لشر، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوة، ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر». فمحال أن يكون العرب قادرين على المعارضة ثم يتركوا ذلك إلى ما فيه هلاكهم وتبديد أموالهم وقتل أنفسهم. ثم يستدل على كثرة المراجعة بما ورد في القرآن الكريم من قول الله عز وجل ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ (هود: ١٣)، فدل ذلك على عجزهم عن المعارضة مع كثرة المراجعة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن الله عز وجل.

إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه:

يرى الجاحظ أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه حيث يقول: «في كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد. مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به». ومن ثم

ألف الجاحظ كتابه «في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه».

خصائص النظم القرآني :

وشرع يتحدث عن غريب تأليف القرآن وعن بلاغته وعن بعض الخصائص التي اختص بها النظم القرآني عن غيره من سائر الكلام منها :

١- تفرقة الدقيقة بين المترادفات:

فإنه تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث.

٢- جمع الأبصار والسموات وتوحيد السمع والأرض:

ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضيين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضيين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج".

٣- الجمع بين معان لا تفترق :

ففي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرغبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس".

٤- استحالة ترجمة القرآن :

من أبرز خصائص النظم القرآني أنه لا يمكن ترجمته إلى لغات أخرى؛ فإذا كان الشعر العربي "لا يستطيع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب

"لأن" الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم- أي الشاعر- على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقهما، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصارييف ألفاظها، وتأويلات مخرجها، ومثل مؤلف الكتاب وواضعه؛ فإذا كان هذا حال الشعر العربي وهو من وضع المخلوقين؛ فكيف بالقرآن وهو كلام الخالق المعجز "بنظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد،؟!؟ لا شك أن ترجمة القرآن مستحيلة؛ لأن الله ليس كمثل شيء يقول الجاحظ: "وأنت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه، ولحولوه عن وجوهه، وما ظنك بهم إذا ترجموا ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف ٥٥]... ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء ١٦٤] و﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر ٢٢] وقد علم أن مفسري كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة، وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولي الكتاب... فما ظنك باليهود مع غباوتهم وغيهم، وقلة نظرهم وتقليدهم؟ وهذا باب قد غلظت فيه العرب أنفسها، وفصحاء أهل اللغة إذا غلظت قلوبها، وأخطأت عقولها، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها؟".

٥- ومن أبرز خصائص النظم القرآني أنه جاء بكثير من الألفاظ المحدثه التي لم يكن العرب يعرفونها مثل "اسم منافق" لمن راعى بالإسلام واستسرّ بالكفر؛ أخذ ذلك من النافقاء، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمّم. قال الله تعالى ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي تحرّوا ذلك وتوخّوه. وقال ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ فكثّر هذا في الكلام حتى صار التيمّم هو المسح نفسه. وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالبت صحبتهم وملابستهم له. كما سمّوا ربيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر . "

الوجه الثاني - الفنون البلاغية:

يشير الجاحظ إلى وجه آخر من وجوه إعجاز القرآن هو الفنون البلاغية كالإيجاز والاستعارة وغيرهما بقوله: "ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن- يعني كتاب "نظم القرآن"-؛ لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبه لك في باب الإيجاز وترك الفضول؛ فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني. "

ومن أبرز أمثلة الإيجاز التي عرض لها الجاحظ قول الله تبارك وتعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] يوضح الجاحظ ما في هذه الآية من إيجاز بقوله: «وقد يتجه هذا الكلام في وجوه: أحدها أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس... أو يكون الله عز وجل إنما عنى أنه خلق أسباباً ووهب عللاً، وجعل ذلك رفداً لما يظهر لنا ونظاماً، وكان بعض المفسرين يقول من أراد أن يعرف معنى قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فليوقد ناراً في وسط غيضة أو في صحراء برية ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق والحشرات والهمج فإنه سيرى صوراً، ويتعرف خلقاً لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم. ويعلم أن الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواقع الغياض والبحار والجبال، ويعلم أن ما لم يبلغه أكثر وأعجب وما أرد هذا التأويل، وإنه ليدخل عندي في جملة ما تدل عليه الآية ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربه ولم يتفقه في دينه».

فتعبير الجاحظ عما سبق من تفسير بأنه «يدخل في جملة ما تدل عليه الآية» يشير إلى أن الآية موجزة إيجازاً بليغاً أو أنها تحتل كل ما يقال في ذكر مخلوقات الله التي لم يكن يعلمها أحد ورآها الناس، أو علموا بها.

الوجه الثالث - الصرفة مع العناية التامة بإعجاز النظم :

من وجوه الإعجاز عند الجاحظ الصرفة مع العناية التامة بإعجاز النظم القرآني وكونه معجزة للرسول ﷺ؛ فقد ذهب الجاحظ إلى أن الله، وصرف نفوس العرب عن معارضة القرآن، بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه كما صرف سليمان عليه السلام عن موقع ملكة سبأ وأطلع عليه الهدد، وصرف الله يعقوب عن موضع ابنه يوسف، وصرف أوهم بني إسرائيل عن الخروج من التيه، وكان من ملاعبهم ومتنزهاتهم، ولذلك " لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك؛ فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشبه الأعراب، والنساء وأشبه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، وطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال... فكان لله ذلك التدبير، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له. " وصرف الله "أوهم العرب عن محاولة معارضة القرآن؛ فلم يأتوا به مضطرباً ولا ملفقاً ولا مستكراً؛ حتى لا يكون لأهل الشغب متعلق في ذلك."

وقد بين الجاحظ أنه اضطر إلى القول بالصرفة في المواضع التي سبق ذكرها بقوله: " فبهذا وأشباهه من الأمور نحن إلى الإقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية؛ فليس لخصومنا حيلة إلا أن يوافقونا، وينظروا في العلة التي اضطررنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحة فالصحيح لا يوجب إلا الصحيح. وإن كانت سقيمة علمنا أن ما أتينا من تأويلنا".

س٥: اذكر أربعة مما ذكره الخطابي عن الطاعنين في القرآن مع ذكر رده عليها.

ج٥: قام الخطابي بذكر طائفة من اعتراضات الطاعنين في بلاغة القرآن ورد عليها على النحو الآتي :

❖ زعم الطاعنون " أن الغريب المشكل من القرآن بالنسبة إلى الكثير من واضحه قليل، وأن عدد الفقر والغرر من ألفاظه إلى مبادله ومراسيله عدد

يسير؛ فرد عليهم الخطابي بأن ما بينه من أوصاف بلاغة القرآن وما ذكره من شرائطها ما يسقط هذا السؤال، وأن الغرابة ليست مما شرطه في حدود البلاغة، وأنه "يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ولا يعرفون تقطيع الكلام وتزييله والتخير له."

✽ وزعموا أن العبارات الواقعة في القرآن ليست في أفصح وجوه البيان وأحسنها لوجود أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف ١٧) وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً، يقال: افترسه السبع هذا هو المختار الفصيح في معناها.. وكقوله: ﴿وَأَنْطَلَقَ لَمَّا مِنْهُمْ أَنْ آمِسُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ إِلَهِكُمْ﴾ ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن"، وكقوله ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (الحاقة ٢٩) وإنما يستعمل لفظ الإهلاك في الأعيان... وكقوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُ لِحَبِيبٍ آلَخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات ٨) وأنت لا تسمع فصيحاً يقول: أنا شديد الحب لزيد، وإنما وجع الكلام أن يقال: أنا شديد الحب لزيد والمال ونحوه، وكقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون ٤] ولا يقول أحد من الناس: فَعَلَ الزَّكَاةَ؛ إنما يقال: زَكَّى الرجل ماله، وأدَّى زكاة ماله... وكقوله سبحانه ﴿رَدِّقْ لَكُمْ﴾ (النمل ٧٢) إنما هو ردفه يردفه من غير إدخال اللام". (ثلاث رسائل ٣٤)

فرد عليهم الخطابي بقوله "إن وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني الآيات على ما تأولوه...؛ فأما قوله ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾؛ فإن الافتراض معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعو على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه؛ فلم يترك مفصلاً ولا عظماً.. والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى؛ فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل" (ثلاث رسائل ٣٧). وأما قوله ﴿أَنْ آمِسُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ إِلَهِكُمْ﴾ المشي

في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول، وذلك أشبه بالثبات والصبر الأمور به. " (ثلاث رسائل ٣٩ و ٤٠) وأما قوله سبحانه ﴿هَلَكَ عَنِ سُلْطَانِهِ﴾ فإن الهلاك في الأعيان وفي غيرها على سبيل الاستعارة، " وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة " كما في هذه الآية (ثلاث رسائل ٤٠)، " وأما قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فالشديد هاهنا معناه البخيل. ويقال رجل شديد ومتشدد أي بخيل... واللام في قوله سبحانه ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ بمعنى لأجل حب الخير وهو المال لبخيل " (ثلاث رسائل ٤٠ و ٤١). " وأما قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ فمعنى الكلام مراد المبالغة في أداء الزكاة والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم؛ فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم، مضافاً إليهم يُعرفون به، فهم له فاعلون. وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة، فهي إذاً أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى "... وأما قوله سبحانه ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ فإنهما لغتان فصيحتان: ردفه وردف له، كما تقول: نصحته ونصحت له. " (ثلاث رسائل ٤١)

❖ وعابوا ما في القرآن من التكرار المضاعف كقوله في سورة الرحمن ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي سورة المرسلات ﴿وَبَلِّغْهُمْ نَبَأَ الْكَافِرِينَ﴾؛ فرد عليهم الخطابي بأن تكرار الكلام على ضربين: " أحدهما: مذموم: وهو ما كان مُستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع. (ثلاث ٤٨)

والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة ... وإنما يُحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويُخاف بتركه وقوْعُ الغلط والنسيان فيها، والاستهانة بقدرها، وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل: "عجل عجل، وإرم إرم"، كما يكتب في الأمور المهمة

على ظهور الكتب "مهم مهم مهم" ونحوها من الأمور". (ثلاث رسائل ٤٧ و ٤٨)

ويبين الخطابي أن الله أخبر بالسبب الذي من أجله كرر الأفاصيص والأخبار في القرآن بقوله ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (القصص ٥١) وقوله ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُتُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه ١١٣)، وأن التكرار في سورة الرحمن سببه أن الله كلما ذكر نعمة من النعم على الإنس والجن جدد إقرارهم بها واقتضاهم الشكر عليها. وأن التكرار في سورة المرسلات سببه أن الله كلما ذكر حالا من أحوال يوم القيامة وأهوالها جدد الوعيد عنده؛ ليكون أبلغ وأؤكد لإقامة الحجة والإعذار.

✽ وزعموا أن سور القرآن لو رتب حسب الأبواب والموضوعات؛ فتكون أخبار الأمم وأفاصيصهم في سورة، والمواعظ والأمثال في سورة، والأحكام في سورة لكان ذلك أحسن في الترتيب، وأعون على الحفظ وأدل على المراد؛ فيرد عليهم الخطابي بقوله: "إنما أنزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء كثيرة مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائده وأعم، ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظًا وأجدى نفعًا من التمييز والتفريد.. وقد أحب الله أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم في جمع المتفرق منه وفي تنزيله وترتيبه، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أوتوا العلم درجات". (ثلاث رسائل ٤٩ و ٥٠)

✽ وزعموا أن العرب لم يعارضوا القرآن؛ لأنهم كرهوا التطويل وأرادوا معاجلة النبي ﷺ بالهلاك، وقالوا كيف يتوهم العجز عليهم وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام، فلو كانوا أرادوه لسهل عليهم؛ فيرد عليهم الخطابي بأن القوم لم يعارضوه؛ لأنه ليس في مقدورهم ولا وسعهم، ولو كان في وسعهم ما تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل؛ فهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب؛ فقد كاع القوم

وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد يؤودهم ويتصعدهم منه؛ لأنهم كانوا بطباعهم يتبينون مواضع إعجاز القرآن وهي أنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني، ويعرفون ما يلزمهم من شروط المعارضة ومن العُهدَة فيها، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها، فتركوها لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة بجهلهم». ولما عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه أو معارضته صاروا يقولون عن القرآن مرة إنه شعر لما رأوه كلاماً منظوماً، ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ولذا قال قائلهم : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ (الفرقان ٥) مع علمهم أن صاحبه أُمِّي وليس بحضرته من يملئ أو يكتب، وقد حكى الله عن بعض مردتهم وشياطينهم - الوليد بن المغيرة - أنه لما طال فكره في أمر القرآن وكثر ضجره منه وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس لم يقدر على أكثر من قوله ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر ٢٥) عناداً للحق وجهلاً به، وذهاباً عن الحجة وانقطاعاً دونها. وقد وصف ذلك من حاله وشدة حيرته؛ فقال سبحانه ﴿إِنَّهُ فَعَرَ وَفَدَرَ * فَقِيلَ كَيْفَ فَدَرَ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَفَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ *﴾ (المدثر).

ثم يبين الخطابي أن جميع البشر يتعذر عليهم الإتيان بمثل القرآن لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبألفاظها التي هي ظروف تلك المعاني والحوامل لها، ولا تُدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون انتلافها وارتباط بعضها ببعض؛ فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله". (ثلاث ٢٦ و ٢٧)

✽ وعابوا ما في القرآن من الإيجاز ووصفوه بأنه مشكل مثل قوله

تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾؛ فيرد عليهم الخطابي بان الإيجاز في موضعه وحذف ما يستغنى عنه من الكلام من أنواع البلاغة؛ فقد حُذف الجواب لأن المذكور يدل عليه؛ فالمراد لكان هذا القرآن أو مثل هذا القرآن ونحوه، وأن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب في الحذف كل مبلغ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الذكر.

س٦: ما أسباب التأليف في إعجاز القرآن.

أدرك سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم أجمعين - إعجاز القرآن، فقد كانوا عرباً خُلصاً، وكان البيان لهم طبعاً، ولم يشغلوا أنفسهم بمعرفة وجوهه وملامحه، فقد بهرهم إعجاز القرآن، ومن ثم لم يؤلفوا الرسائل بله الكتب للحديث عنه، إنما نشأت الحاجة إلى معرفة وجوه الإعجاز حين ظهر الزنادقة والملاحدة وأهل الضلال ممن ينسبون إلى الإسلام من أمثال النظام وهشام الفوطي وعباد بن سليمان؛ الذين طعنوا في نظم القرآن وزعموا أنه نظم عادي وليس بحجة للرسول ﷺ، حينئذ شمر العلماء عن ساعد الجد بتأليف الكتب والرسائل للرد على هؤلاء جميعاً وليبين أن القرآن معجز وأنه حجة للنبي ﷺ ودلالة على نبوته، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الجاحظ وابن قتيبة والخطابي و القاضي عبد الجبار والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

تطبيقات على الوحدة الثانية وإجاباتها

س ١: تحدث عن مصطلح النظم لدي العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني.

ج ١: المنتبغ لثرائنا البلاغي يجد أن مصطلح النظم من الصطلحات التي شاعت في القرن الثالث والرابع الهجريين خاصة عند علماء الكلام؛ ويجد أن هذا المصطلح جاء في عناوين عدة كتب منها : " الاحتجاج لنظم القرآن" للجاحظ، و" نظم القرآن" لعبد الله السجستاني، و" إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه " لمحمد بن يزيد الواسطي، وكتاب " نظم القرآن" لكل من ابن أبي داود وابن الأخشيد وأبي زيد البلخي.

ويجد أن مصطلح النظم قد ورد عند كل من : ابن قتيبة، والخطابي وأبي هلال العسكري، والباقلاني، والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر البغدادي.

وإذا كان مصطلح النظم فيما يتعلق بالقرآن قد شاع قبل عبد القاهر شيوعاً كبيراً فإن القليل من العلماء جداً من عرض لببيان المراد منه، ومن أوائل هؤلاء الرماني حين قال في رسالته " النكت " : " دلالة الأسماء والصفات متناهية ، أما دلالة التأليف = النظم فليس لها نهاية ولهذا صح التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة- أي معجزة القرآن-، ولو قال قائل : قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن لأحد أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قبل - لكان ذلك باطلاً؛ لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يقف عندها".

ومنهم الخطابي الذي بين حين قال في رسالته "بيان إعجاز القرآن" أن الكلام يقوم " بأشياء ثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم " وقال " وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني، فبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه مع بعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان " فالنظم هو الرباط الذي يربط بين الألفاظ والمعاني.

ومنهم القاضي عبد الجبار الذي بين في كتابه المغني ج ١٦ أن النظم هو الطريقة التي يؤلف بها الكلام بقوله : "وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، ومختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة".

وحين قال : " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها. "

س ٢: الفصاحة ليست في اللفظة المفردة إنما هي في النظم. ما الأدلة التي ذكرها عبد القاهر لبيان ذلك؟

١- أن الكلم المفردة لا قيمة لها في ذاتها : فالفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة "، فقولهم "بالضم"، لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنييهما؛ لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة، لكان ينبغي إذا قيل: "ضحك، خرج" أن يحدث في ضم "خرج" إلى "ضحك" فصاحة! وإذا بطل ذلك، لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توحي معنى من معاني النحو فيما بينهما. وقولهم : "على طريقة مخصوصة" يوجب ذلك أيضاً؛ وذلك أنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى. " ويبين

عبد القاهر أن "الألفاظ المفردة التي هو أوضاع اللغة، لم توضح لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد. وهذا علم شريف، وأصل عظيم."

ويستدل على ذلك بقوله: "هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحببتها على ما هي موسومة به، حتى يقال إن "رجلا" أدل على معناه من "فرس" على ما سمي به وحتى يتصور في الاسمين يوضعان لشيء واحد، أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفاً عن صورته من الآخر، فيكون "الليث" مثلاً أدل على السبع المعلوم من "الأسد" وحتى إننا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية، ساغ لنا أن نجعل لفظة "رجل" أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية؟

وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: "هذه اللفظة فصيحة"، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"

ويؤكد عبد القاهر وجهة نظره بقوله: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتونسك في موضع، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة:

تلفت نحو الحي حتى وجدتي وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتری:

وإني وإن بلغني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهر قوم من أخدعك فقد أضجبت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التبغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة. " ثم يقول: " فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحققت المزية والشرف استحققت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت غما أن تحسن أبدا، ولا تحسن أبدا. "

ويستدل على أن الكلمة لا توصف بالفصاحة في نفسها بأنه لا يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبته على ما هي موسومة به، حتى يقال إن "رجلا" أدل على معناه من "فرس" على ما سمي به وحتى يتصور في الاسمين يوضعان لشيء واحد، أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر، فيكون "الليث" مثلا أدل على السبع المعلوم من "الأسد" وحتى إننا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية، ساغ لنا أن نجعل لفظة "رجل" أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية؟

٢- أن "الفصاحة" لا تخلو من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب. فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة، لأنها لو كانت كذلك، لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً. وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة، فإننا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس، إلا دلالاته على معنى، وإذا كان كذلك، لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة، وصف له من جهة معناه، لا من جهة نفسه، وهذا ما لا

يبقى لعاقل معه عذر في الشك" وقوله : " وهو أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم ٤) فإنه لا يجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره؛ فلو كانت "الفصاحة" صفة للفظ "اشتعل"، لكان ينبغي أن يحسها القارئ فيه حال نطقه به. فمحال أن تكون للشيء صفة، ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه. ومن ذا رأى صفة يعرى موصوفها عنها في حال وجوده، حتى إذا عدم صارت موجودة فيه؟ وهل سمع السامعون، في قديم الدهر وحديثه، بصفة شرط حصولها لموصوفها أن يعدم الموصوف؟ فإن قالوا: إن الفصاحة التي ادعينها للفظ "اشتعل" تكون فيه في حال نطقنا به، إلا أنا لا نعلم في تلك الحال أنها فيه، فإذا بلغنا آخر الكلام علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين نطقنا به. قبل: هذا فن آخر من العجب، وهو أن تكون ههنا صفة موجودة في شيء، ثم لا يكون في الإمكان ولا يسع في الجواز، أن يعلم وجود تلك الصفة في ذلك الشيء إلا من بعد أن يعدم، ويكون العلم بها وبكونها فيه محجوبا عنها حتى يعدم، فإذا عدم علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين كان."

س ٣: رفض عبد القاهر أن يكون إعجاز القرآن في غير النظم؛ فما الوجوه التي ذكرها وما أسباب رفضه لها .

ج ٣: أكد عبد القاهر على أن الوصف الذي تحدى به الرسول ﷺ العرب لا يجوز أن يكون إلا في النظم، ورفض عبد القاهر أن يكون إعجاز القرآن في غير النظم :

١- فالإعجاز لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في مذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن، لتكون تلك

الأوصاف فيها أقبل السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن."

٢- ولا يجوز أن يكون الإعجاز في "معاني الكلم المفردة"، "التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى "الحمد" و"الرب"، ومعنى "العالمين" و"الملك" و"اليوم" و"الذين"، وهكذا، وصف لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا ما لو كان ههنا شيء أبعد من الحال وأشنع لكان إياه. ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في "ترتيب الحركات والسكنات"، حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به: القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من حماقة في: "إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر"، "والطاحنات طحناً".

٣- ولا يجوز أن يكون الإعجاز في المقاطع والفواصل؛ "لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن. وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو، فلو لم يكن التحدي إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي، لم يعوزهم ذلك، ولم يتعذر عليهم. وقد خيل إلى بعضهم إن كانت الحكاية صحيحة شيء من هذا، حتى وضع على ما زعموا فصول كلام أواخرها كأواخر الآي، مثل "يعلمون" و "يؤمنون" وأشباه ذلك." ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللسان." ولا يمكن أن تجعل "الاستعارة" الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة.

٤- ولا يجوز أن يكون الإعجاز في غريب اللغة؛ لأنه "لا يخلو إذا وقع التحدي به من أن يتحدى من له علم بأمثاله من الغريب، أو من لا علم له بذلك. فلو تحدى به من يعلم أمثاله، لم يتعذر عليه أن يعارضه بمثله. ألا ترى أنه لا يتعذر عليك إذا أنت عرفت ما جاء من الغريب في معنى "الطويل" أن تعارض من يقول: "الشوقب"، بأن تقول أنت "الشوذب"، وإذا قال: "الأمق" أن تقول "الأشق"؟. وعلى هذا السبيل. ولو تحدى به من لا علم له بأمثال ما فيه من الغريب، كان ذلك بمنزلة أن يتحدى العرب إلى أن يتكلموا بلسان الترك".

س٤: بين المقصود بمصطلح النظم لدى عبد القاهر مع التمثيل لما تقول.

ج٤: بين عبد القاهر المقصود بالنظم بقوله: "اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها". وبقوله: "واعلم.. أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس".

والمقصود بمعاني النحو عند عبد القاهر هو ما يسميه علماء اللغة المعاصرون المعاني الوظيفية؛ فمعاني النحو تشمل المعاني أو الوظائف النحوية والمعاني أو الوظائف الصرفية؛ أي وظائف الصيغ أو الأدوات أو ما إلى ذلك. وبين عبد القاهر أبوابه النظم أو مباحث علم المعاني بقوله: "وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و "زيد ينطلق"، و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد"، و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" و "زيد هو المنطلق"، وزيد هو منطلق". وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج" و "إن خرجت خرجت" و "إن تخرج فأنا خارج" و

"أنا خارج إن خرجت" و " أنا إن خرجت خارج". وفي "الحال" إلى الوجوه التي تراها في قولك: "جاءني زيد مسرعاً"، وجاءني يسرع"، و "جاءني وهو مسرع" أو "وهو يسرع" و "جاءني قد أسرع" و "جاءني وقد أسرع". فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاماً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في "الجملة" التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء"، وموضع "الفاء" ومن موضع "ثم"، وموضع "أو" من موضع "أم"، وموضع "لكن" من موضع "بل". ويتصرف في التعريف والتذكير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

س ٥ : اختلاف النظم يؤدي إلى اختلاف المعاني والأغراض.

أشرح هذه العبارة مع التمثيل لما تقول.

ج ٥ : ذهب عبد القاهر إلى أن اختلاف النظم يؤدي إلى اختلاف المعاني والأغراض وأن قول الناس: "قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه"، فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول، حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشنفين ففي غاية الإحالة، وظن يفضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة، وهي أن تكون الألفاظ مختلفة المعاني إذا فرقت، ومتفقتا إذا جمعت وألف منها كلام. وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو "قعد"

و "جلس"، ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر، نحو أن تنتظر في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ (البقرة ١٧٩).

ومن أبرز المباحث التي يتضح فيها ما قاله عبد القاهر الفصل الذي عقده لبيان الفرق بين الخبر الذي هو جزء من الجملة، والخبر الذي ليس بجزء من الجملة، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له، كالحال والصفة. والفصل الذي عقده لبيان الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل، والفصل الذي عقده لبيان الفرق بين الخبر إذا كان صفة مشبهة، وإذا كان فعلا، والفصل الذي عقده لبيان الفرق بين الخبر إذا كان فعلا، وبينه إذا كان اسماً. والفصل الذي عقده لبيان الفروق بين الحال، والفصل الذي عقده لبيان الفرق بين إنما وما وإلا، والفصل الذي وازن فيه بين العبارات المتشابهة في مبحث القصر.

يقول عبد القاهر في بيان الفرق بين الخبر إذا كان بالاسم، وإذا كان بالفعل: "موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد شيئاً بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء". فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و "عمرو قصير": فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويزجيه. وإذا أردت أن تعتبره حيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّبَهُمْ بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨)، فإن أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه"، لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في

الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وترجية فعل، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً. ولا فرق بين " وكلبهم باسط "، وبين أن يقول: " وكلبهم واحد" مثلاً، في أنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئاً، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب."

ويبين عبد القاهر الفرق بين "زيد منطلق" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد"، بقوله: "اعلم أنك إذا قلت: "زيد منطلق"، كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيد ذلك ابتداء. وإذا قلت: "زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان، إما من زيد وإما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره. والنكتة أنك تثبت في الأول الذي هو قولك: "زيد منطلق" فعلا لم يعلم السامع من أصله أنه كان، وتثبت في الثاني الذي هو "زيد المنطلق" فعلا قد علم السامع أنه كان، ولكنه لم يعلمه لزيد، فأفدته ذلك. فقد وافق الأول في المعنى الذي له كان الخبر خبراً، وهو إثبات المعنى للشيء. وليس يقدر في ذلك أنك كنت قد علمت أن انطلاقا كان من أحد الرجلين، لأنك إذا لم تصل إلى القطع على أنه كان من زيد دون عمرو، وكان حالك في الحاجة إلى من يثبت لزيد، كحالك إذا لم تعلم أنه كان من أصله." (١٧٧)

ويبين عبد القاهر الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨) وما إذا قيل: إنما يخشى العلماء الله، بقوله: "في تقديم اسم الله عز وجل معنى خلاف ما يكون لو آخر، وإنما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في "ما" و "إلا"، وحصلت الفرق بين أن تقول: "ما ضرب زيدا إلا عمرو"، وبين قولك: "ما ضرب عمرو إلا زيدا". والفرق بينهما أنك إذا قلت: "ما ضرب زيدا إلا عمرو"، فقدمت المنصوب، كان الغرض بيان الضارب من هو، والإخبار بأنه عمرو خاصة دون غيره وإذا قلت: "ما ضرب عمرو إلا زيدا"، فقدمت المرفوع، كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه "زيد" خاصة

دون غيره. وإذا قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية، وإذا اعتبرت بها علمت أن تقدير اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخر ذكر اسم الله وقدم "العلماء" فقليل: "إنما يخشى العلماء الله"، لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى.

ويروي عبد القاهر عن ابن الأنباري "أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي وضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: "عبد الله قائم"، ثم يقولون "إن عبد الله قائم"، ثم يقولون: "إن عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعنى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل وقوله: "إن عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحرار المتفلسف جواباً. وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض، فما ظنك بالعامه، ومن هو في عداد العامة، ممن لا يخطر شبه هذا بباله؟"

س ٦: يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَلْعَلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود). بين تحليل عبد القاهر لهذه الآية في ضوء نظرية النظم.

ج ٦: معلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء ب"يا" دون "أي"، نحو "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة

"الماء" إلى "الكاف"، بأن يقال: "ابلعي ماءك"، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يخصها، ثم أن قيل: ﴿وَوَيْضَ الْمَاءِ﴾ فجاء الفعل على صيغة "فعل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر أمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم إضمار "السفينة" قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أفتري لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟ فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلاقها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ."

تطبيقات على الوحدة الثالثة وإجاباتها

س١: بين سر مناسبة كلمة (تستأنسوا) في مكانها من قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ٢٧)

ج١: وردت كلمة تستأنسوا في قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ٢٧)

ونلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحمل من المعاني والظلال المناسبة لهذا السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو - على الأصح - مقاربة لها، مثل : (تستأذنوا) التي فسر بها جمع من المفسرين .

" قال بعضهم : تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا."

وقال الألوسي : " ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها "

وقال مجاهد: " ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قال: تنحنوا - أو تنخموا."

غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكلا الكلمتين (تستأنسوا- تستأذنوا) - أو الكلمات الأخرى التي فسرت بها الكلمة باعتبارها من لوازم الاستئناس - تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دونها .

قال الزمخشري : "﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال

عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٣) وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن .

والثاني: أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً ، أي : تعرفت واستعلمت ..

وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: قلنا : يا رسول الله، ما الاستئناس؟ قال: " يتكلم الرجل بالتنسيح والتكبير والتحميدة ويتنحج : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول: السلام عليكم ، أَدْخَلَ؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلا رجع " .

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالاً كثيرة، وأنها لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحج والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأُنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت ، وأنها تحقق الأُنس والانتناس بين الطرفين (الزائر والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢٨)

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له ارجع .

" إن الاستئناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه ، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله ، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلاً : (استأنس الشرطي ، أو جابي الضرائب ، أو الدائن)

إنما هو الاستئذان ، ليس منه حسُّ إيناس ، كما لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق ، أو سماع هزيم رعد ، وزئير وحش .

س٢: بين سر اختيار كلمة العرف في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ج٢: كلمة العرف في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

هي من جوامع الكلم التي لا نستطيع أن نفاضل بينها وبين غيرها من الكلم ، ولا نجد كلمة تسد مسدها في عموم معانيها ؛ وذلك لأنها تتواطأ وتتوارد على كثير من المعاني ؛ فهي من المتواطئ الذي يحمل على العديد من المعاني ؛ ولذا قال أبو جعفر بعد تعداد طائفة من تفسير العلماء لبعض ما تشتمل عليه من المعاني:

" والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بالعرف - وهو المعروف في كلام العرب- مصدر في معنى: " المعروف " .

يقال: " أوليته عُرْفاً، وعارقاً، وعارفةً " كل ذلك بمعنى: " المعروف " .

فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو نذب إليه، فهو من العرف. ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض."

س٣- بين الفارق بين : الضَّعْف والضعف والوهن والاستكانة .

ج ٣ - يقول أبو هلال العسكري في الفروق :

" الفرق بين الضعف والضعف: أن الضعف بالضم يكون في الجسد خاصة وهو من قوله تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ﴾ (الروم: ٥٤) والضعف بالفتح يكون

في الجسد والرأي والعقل يقال في رأيه ضعف ولا يقال فيه ضعف كما يقال في جسمه ضعف وضعف.

الفرق بين الضعف والوهن: أن الضعف ضد القوة وهو من فعل الله تعالى كما أن القوة من فعل الله تقول خلقه الله ضعيفا أو خلقه قويا، وفي القرآن ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨) والوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف تقول وهن في الأمر يهن وهنا وهو واهن إذا أخذ فيه أخذ الضعيف، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٩) أي لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوىاء على ما تطلبونه بتدليل الله إياه لكم، ويدل على صحة ما قلنا أنه لا يقال خلقه الله واهنا كما يقال خلقه الله ضعيفا، وقد يستعمل الضعف مكان الوهن مجازا في مثل قوله تعالى ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ (آل عمران: ١٤٦) أي لم يفعلوا فعل الضعيف، ويجوز أن يقال إن الوهن هو انكسار الحد والخوف ونحوه، والضعف نقصان القوة.

وأما الاستكانة فقليل هي إظهار الضعف قال الله تعالى ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ أي لم يضعفوا بنقصان القوة ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة، قال الخليل: إن الوهن: الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم ونحوه

ومن خلال ما سبق نقله عن أبي هلال نتبين أن الضعف يكون في الجسد والعقل والرأي، أما الضعف بالضم فلا يكون إلا في الجسد، ومن هنا جاءت القراءات بالفتح والضم (خلقكم من ضعف) (وضُعف).

أما الوهن فيفهم من كلام أبي هلال في قوله يفعل فعل الضعيف وأنه انكسار الحد والخوف ونحوه؛ فهذا يدلنا على أن الوهن إنما يراد به ضعف العزم لا ضعف الجسد، فهو انكسار في النفس يتبعه ضعف في الهمة والعمل.

أما الاستكانة: فهي إظهار الضعف والركون إليه والميل إلى الدعة والتخاذل.

ومن ثم نستطيع أن ندرك الفروق بين هذه الألفاظ القرآنية في قوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

كما نستطيع أن نفهم كذلك بلاغة القرآن في نظم هذه الألفاظ وترتيبها ؛ حيث بدأ بنفي الوهن وهو ما يرجع إلى ضعف النفس والعزيمة ، ويتسبب عنه الضعف عن العمل ، ثم أتبعه نفي الضعف وهو ضعف الجسد الظاهر عن العمل الناتج عن وهن العزائم ، ثم أتبعه نفي الاستكانة والمراد منه بيان قوة التحمل وعدم إظهار ما ألم بهم من أذى العدو مما يسبب ضعف قوتهم فتحاملوا على أنفسهم ولم يبدوا شيئا من أمارات الضعف أو الوهن ، ولا ركنوا لما نزل بهم من الهزيمة ولا رضوا به ولا استكانوا إليه ؛ بل أظهروا خلاف ذلك قوة وجلدا وصبرا في النزال والقتال ؛ فاستحقوا لذلك محبة الله والله يحب الصابرين.

س٤- بين الخصوصية التعبيرية لكل من (سبل - فجاج) في سياقاتهما، مع بيان سر التقديم والتأخير لإحداهما على الأخرى، فيما وردت فيه.

ج٤ : قال تعالى : ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَرَا وَسَلًّا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَّمَتِ بِالْجَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ *﴾ (النحل: ١٥- ١٦)
وقال أيضا ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّاهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)

وقال أيضا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ١٠)

وقال أيضا : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٩- ٢٠)

وقال أيضا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (طه: ٥٣-٥٤).

قوله : سُبُلًا تدل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ، أي أسلك فيها سبلاً ، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض ، أي داخلة فيها ، أي متخللة . وذلك كناية عن كثرتها في جهات الأرض .

والمراد بالسبيل: كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال ، أو كان من أثر فعل الناس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابع الناس السير فيها " (٩)

قال القرطبي: "السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين." (١٠)

والسبل جمع سبيل وهي طريق ممتد ممهد وهو مظنة اهتداء السالك له إلى حيث يقصد إذا قصد إلى سواء السبيل ولم يتعوج يمينا وشمالا ، وهي حيث وردت مفردة في القرآن وردت في سياق مظنة الهدى فهي كثيرا ما تضاف إلى الله تعالى في القرآن فيقال : سبيل الله .

ويرشح لما قلنا ويؤكد اقترانها بالهداية في المواضع السابقة كما في الآيات الثلاثة الأولى.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَّمَتِ بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)

﴿فَجَا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ١٠).

فالأيات الثلاثة الأولى ترشح إلى أن السبيل حينما يتعين للشخص يكون مظنة الاهتداء، ولا يكون الضلال إلا حينما يقف على عدة سبل متحيرة أيها يسلك، أو يسلك هذه تارة وتلك تارة أخرى، ولذا أمر الله تعالى في سورة الأنعام باتباع سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم ، ونهى عن اتباع السبل المتفرقة ؛ قل تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

فالأيات الثلاثة الأولى تعطي مظنة الاهتداء بها ، والآيتان بعدها تعطيان مظنة تهيئتها لسلوك الناس عليها وانتفاعهم واهتدائهم بها ، ويفهم ذلك من قوله :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٩ - ٢٠)

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (طه: ٥٣)

فامتنانه تعالى بأنه قد سلك في الأرض هذه السبل يشير إلى تمهيده إياها وتهيئتها لانتفاع الناس بها.

أما الفجاج ، فهي وإن اشتركت مع السبل في معنى الطريق فإنها تختص دونها بسمعة الاتساع ؛ ومن ثم يختص السبيل بالتمهد والاستواء ، وتختص الفجاج بالاتساع.

وبهذا تجتمع المعاني، وتظهر النكتة في تقديم السبل تارة في مقام دعوة نوح قومه ممتنا عليهم بنعمة تمهيدها وتهيئتها حتى صارت كالبساط لهم ؛ فحيث ذكر وصف الأرض بالبساط الدال على تمام التمهيد أتبعه بذكر السبل التي تكون ممهدة مهيئة، ثم أتبع ذلك بنعمة كونها فجاجا متسعة من باب التتميم للنعم.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١)

فقدم الفجاج وهي من صفة الأرض ؛حيث السياق هنا سياق بيان عجائب الخلق، وما أودع في الأرض من الجبال الرواسي والفجاج الواسعة وغير ذلك؛، ثم أتبع ذلك بنعمة كونها سبلا ممهدة يهتدى بها من باب التتميم للنعم.

والذي يراجع سياق السورة يتبين له ذلك ^(١٢).

س٥: بين سر اختيار كلمة (عسعس) في قوله تعالى : ﴿وَأَلِيلَ إِذَا عَسَعَسَ﴾ (التكوير: ١٧)

ج٥: كلمة (عسعس) في قوله تعالى : ﴿وَأَلِيلَ إِذَا عَسَعَسَ﴾ (التكوير: ١٧) تأتي بمعنى الإقبال والإدبار، "عن مجاهد قوله : ﴿وَأَلِيلَ إِذَا عَسَعَسَ﴾ قال: إقباله، ويقال: إدباره" ^(١٣).

ولا شك أن كلا من إقبال الليل وإدباره ساعتان شريفتان ، وآيتان عظيمتان دالتان على قدرة الله تعالى ؛ فلذا فقد أقسم الله بهما تنويعاً بشأنهما، وتعظيم للنبي - صلى الله عليه وسلم - لهاتين الساعتين بالذكر والصلاة والتسبيح ثابت بنصوص كثيرة ليس هنا محل ذكرها ؛ لذا فلا يبعد أن يراد بالقسم كلا من هاتين الساعتين الشريفتين ، وسياق الكلام يساعده ولا يعارضه.

س٦: بين سر اختيار كلمة (قسورة) في قوله تعالى : ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المذثر: ٥١).

ج٦: لفظ (قسورة) في قوله تعالى : ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المذثر: ٥١)

ذكر ابن جرير الاختلاف فيها ؛ فمنهم من قال: الرماة ومنهم من قال هو الأسد ^(١٤).

والسياق لا ينفي أحد المعنيين بل يحتملها جميعا ؛ فالحمر بلا شك تفر من الرماة كما تفر من الأسد ؛ فقد أثبت لها الفرار من كل من يشمله اسم القسورة ، ويؤيد ذلك مجيء قسورة منكراً .

ولا شك أن ذلك مما يزداد به المعنى جمالا وقوة فهذه الحمر المضروبة مثلا للكافر المعرض تفر من كل من تعرض لها أشد الفرار ؛ إذ تستشعر فيه خطرا داهما عليها ؛ وكذلك هؤلاء الكافرون المعرضون يحسبون كل متعرض لهم بالدعوة إلى الله خطرا داهما ، وشرًّا محدقا ، وذلك لكون ما يأتي به من الهدى معارضا أهواءهم أتم المعارضة .

وسواء بدا ذلك الداعي لهم شديدا كالأسد ، أم تطف لأخذهم للهداية - كما يتلطف الصائد الرامي لصيده - فإن ذلك كله لا يجدي معهم شيئا .

س٧: بين خصوصية كل من (كلمتي: ريع - آية) في قوله تعالى:
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (الشعراء: ١٢٨).

ج٧: (كلمتي: ريع - آية) في قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً

تَعْبَثُونَ ﴾ (الشعراء: ١٢٨)

عن مجاهد : " قال : " شرف ومنظر " ... وعن قتادة .. قال : " بكلّ طريق " (١٥).

فعلى ذلك فكلمة (ريع) من المشترك اللفظي ؛ إذ تعني الطريق أو الشرف وهو الموضع العالي أو المنظر، ولا مانع من اجتماع تلك المعاني جميعا ؛ حيث لا يأبأها السياق، وهذه هي العادة في اتخاذ الآيات التي يتباهى بها أصحاب الحضارات؛ إذ يتخيرون لها موقعا مستشرفا للأعين ، ذا منظر حسن، في طريق الناس حتى تقع الأعين على تلك الآية التي يتباهون بها .

وكذلك كلمة { آيَةً } قيل : " أي: معلما بناء مشهورا "

وقيل : " الآية هي الدلالة والعلامة " (١٦).

فعلى ذلك فهي من المشترك اللفظي كذلك ، والسياق محتمل لهذه المعاني جميعها؛ فهم يتخذون ذلك الأثر لكي يكون دلالة على قوتهم، وعلامة على

حضارتهم ، أو على مدينتهم ؛ بحيث تعرف به وتعلم به وتشهر به ، فيجتمع فيه كلُّ هذه المعاني أنه معلم وبناء مشهور ودلالة وعلامة .

وفي هذا كلُّه تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم ، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني بوسائل وطرق شتى .

س٨ : بين المعاني التي تحتملها كلمة : الثياب في قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤).

ج ٨ : كلمة : الثياب في قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤).

من المفسرين من حملها على الحقيقة ومنهم من حملها على المجاز ، ومنهم من جوز الجمع بينهما :

فقد رجح أبو حيان الحقيقة رغم حكايته للأقوال المرجحة للمجاز^(٢١).

واختار أبو حيان أن "الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي"^(٢٢).

ومال الألوسي إلى المجاز فقال: "﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤) تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذر به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه....

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة. وقيل كني بها عن الجسم كما في قول ليلى وقد ذكرت إبلاً ركبها قوم وذهبوا بها :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى لها شبيهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدم . ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه.

وقيل على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة العملية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه ،وقيل إنه أمر له بالتخلق بالأخلاق الحسنة وقيل الثياب كناية عن النساء "(٢٣)

ومع ميل الألوسي للمجاز فإن ظاهر كلامه في الآية التالية عدم استبعاد الحقيقة وكأنه يجوز الجمع بينهما قال : "والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجرجاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المذثر: ٤)

حيث حمل ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ على تطهير الظاهر ، ولا شك أن أول ما يدخل فيه تطهير الثياب .

أما ابن كثير فقد حكى الأقوال السابقة ثم رجح الجمع بين الحقيقة والمجاز، فذكر من ذهب إلى المجاز كقول القائل : " لا تلبسها على معصية ولا على غُدرَة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ لَبَسْتُ وَلَا مِنْ غُدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وقال الشاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَذْنُسْ مِنَ اللُّؤْمِ فَكُلَّ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وقال العوفي ، عن ابن عباس: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية...

ثم ذكر قول من ذهب إلى الحقيقة فقال :

"وقال محمد بن سيرين: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه.

وهذا القول اختاره ابن جرير.

ثم قال : " وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أَفَاطَمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ هَجْرِي
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنْي خَلِيقَةٌ فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ

وقال سعيد بن جبیر: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) وقلبك ونيتك فطهر.

والذي نراه أن السياق في هذه السورة الكريمة لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازاً ؛ وذلك لأن الداعي إلى الله ؛ بله أكرم الرسل ينبغي أن يجتمع له صلاح الظاهر والباطن المشتمل على حسن المظهر والمخبر ، فيجمع بين حسن السمات المشتمل على أكمل الهيات التي ترغب في الإقبال عليه وتحول دون النفرة منه ، مع صلاح الباطن واستقامة الخلق بحيث لا يعثر له على هفوة تكون حجة عليه وعلى دعوته .

ومجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكر مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز ، وكونه من لدن حكيم حميد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩)

حيث جعل الزاد جنساً يشمل كلا النوعين الحقيقي الحسي المعهود، أو المجازي المعنوي وهو تقوى الله تعالى ؛ فحمل الزاد على معنويه الحقيقي والمجازي لما في ذلك من اتساع في المعنى يقتضيه السياق والمقام ؛ فإن المقصود هو الاعتدال في الجمع بين الدنيا والآخرة .

س ٩: المعاني التي تحتملها كلمة : الزكاة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

ج ٩: ذهب ابن كثير كذلك في أكثر من موضع إلى جواز الجمع بين المعنى اللغوي العام والمعنى الشرعي الخاص ما دام السياق محتملاً لهما ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٤) قال: "الأكثر على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال (أي: المعنى الشرعي)، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١) وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا (المعنى اللغوي العام) وهو: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩ - ١٠)، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يَتُوبُونَ الزَّكَاةَ﴾ (فصلت: ٦ - ٧)، على أحد القولين في تفسيرها."

فقد حكى أقوال المفسرين هنا في معنى الزكاة ، وهي لا تخرج عن معنيين:

المعنى الشرعي: وهو الزكاة الشرعية (بمعنى إخراج قدر محدود من المال إلى مستحقيها بشروطها)، وهي إما المفروضة على القول المرجوح؛ لعدم فرضيتها في زمان نزول النص ، وإما بمعنى الصدقة وقد كانت مشروعة آن ذاك .

المعنى اللغوي: وهو يرجع في أصله إلى معان منها الطهر والنماء والصلاح ، فكأن المقصود هنا هو تطهير النفس وإصلاحها وتنمية جوانب الخير فيها، على نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى: ١٤). وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس : ٩)

وبعد حكايته للقولين الواردين في هذا الموضع قرر مذهبه في جواز الجمع بين كلا المعنيين اللغوي والشرعي بشرط احتمال السياق لهما فقال :

" وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم. (الأعلى: ١٤)

وقد حكى نحو هذين القولين في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ *﴾ (فصلت: ٩ - ٧)

والذي ذهب إليه ابن كثير في هذا الموضع من جواز الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي لا غبار عليه ؛ إذ السياق يؤيده لاحتماله كلا المعنيين ؛ وذلك لأن السياق سياق ذكر لجملة من الخصال الحميدة التي اتصف بها المؤمنون ، واستحقوا بها المدح والثناء من الله تعالى، ووعدهم عليها بالفلاح في مطلع تعداد تلك الصفات حيث بدأ الله تعالى السياق بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١).

ولا شك أن كلا الصفتين هما من صفات المؤمنين اللتين لا يتحقق فلاحهم إلا بهما ؛ بل إن المتأمل لهاتين الصفتين يلحظ تكاملهما وترابطهما بحيث لا يتصور إحداهما دون الأخرى ؛ وإلا فكيف يتصف بزكاة النفس وصلاحها وطهرها من قسا قلبه فلا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وكيف يرق القلب لإنفاق المال وبذله للغير دون مقابل دنيوي ما لم يكن قلباً زاكياً صالحاً؟!!

ولذا فقد ذم الله تعالى المشركين في الآية الأخرى وتوعدهم بالويل بسبب أنهم ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وقد سوغ ابن كثير حملها على المعنيين كذلك ، وهو صحيح لما ذكرناه ؛ فإذا كان المعنيان المذكوران هما سبب فلاح المؤمنين فلا جرم يكونان سبب خسران المشركين والكافرين كذلك ، وقد جمع الله تعالى

في وصفهم بين هاتين الصفتين (زكاة النفس وبذل الصدقة) وبين ترابطهما فقال : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْتِهِ * وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (الماعون: ١ - ٣).

ومما يستشهد به في هذا المقام كذلك لجواز الحمل على المعنيين اللغوي والشرعي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ (الإسراء: ١١٠)

فقد أورد ابن جرير الأقوال في معنى الآية وحاصلها :

- قسم حمل الصلاة على المعنى اللغوي وهو الدعاء.
- وقسم حملها على المعنى الشرعي المعروف بما تشتمل عليه من قراءة وذكر.
- وقسم حملها على بعض أجزاء المعنى الشرعي وهو القراءة؛ فكأنه جعلها من المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية .^(٢٤)

تطبيقات على الوحدة الرابعة وإجاباتها

س ١: عرّف بظاهرة التنويع الأسلوبي .

ج ١: تعد هذه الظاهرة من أهم وأكثر الظواهر البارزة في بلاغة النظم القرآني.

ويقصد بالتنويع الأسلوبي: أن تتنوع اختيارات المبدع بين البدائل اللغوية المشتركة في أداء أصل المعنى طلباً للتعبير الأكثر ملاءمة للسياق والمقام. ولننظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبُضْنَ﴾ (الملك: ١٩). نجد أن لفظتي (صافات - ويقبضن) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة مثل: (صافات قابضات) أو (يصفن ويقبضن) فالنمط الأول: (صافات قابضات) تكرر فيه اسم الفاعل. والنمط الثاني: (يصفن ويقبضن) تكرر فيه الفعل المضارع. وأي من النمطين جاء على أسلوب واحد هو صيغة اسم الفاعل في الأول، وصيغة الفعل المضارع في الثاني دون تنويع في الأسلوب.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل الدال على الثبات للتعبير عن الحدث في اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع الدال على الحدوث والتجدد للتعبير عن الحدث في اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم قيل (ويقبضن، ولم يقل قابضات) (قلت) لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به (أي الاستعانة) على التحرك فجاء بما هو طارئ غير

أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح" (١).

فكان الآية قد رمزت بذلك - فضلا عن إثبات حدثي الصف والقبض - إلى أن الصف هو غالب فعل الطير في جو السماء وأن القبض يكون عارضا، وهذا المعنى وإن لم يكن مقصودا بالأصالة من الكلام، فإن اختيار الآية لهاتين الصيغتين قد شمل هاتين الداليتين دون أن يزيد في لفظ الكلام بل عبر عن المعنى بهيئة اللفظ نفسه وليس بلفظ آخر، ولو خولفت تلك الصياغة، وأريد التعبير عن تلك المعاني، لقل (يصفن غالبا ويقبضن أحيانا) وفيه من الركاقة والتطويل ما فيه، فضلا عن أن المعنى الذي أضافته هاتان الصيغتان في الآية ليس مقصودا من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة وتمام الحكمة، فكان تضمينه في هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظ جديد يخصه.

والمقصد هنا أن نبين أن أصل المعنى يمكن الدلالة عليه بأكثر من صيغة. فأصل المعنى في الآية لفت الأنظار إلى قدرة الله في حفظ الطير وتسخيره في جو السماء في حالتى القبض والبسط، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل أو المضارع لكن الآية قد اختارت للمعنى الأول اسم الفاعل، وللثاني صيغة المضارع من باب التنويع الأسلوبى للدلالة على معنى أخص وأدق من أصل المعنى وهو مجرد التعبير عن الصف والقبض.

س٢: هات مثالا للتنويع الأسلوبى بين اسم الفاعل والمضارع.

ج٢: من أمثلة التنويع الأسلوبى بين اسم الفاعل والمضارع : ما علق به عبد القاهر على قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣).

فلو قيل "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد (٣) وذلك أن المقصود في الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك المعنى الأصلي باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن

فى التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيدته التعبير باسم الفاعل.

س٣: هات مثالا للتنوع بين صيغة الماضي وصيغة اسم الفاعل.

ج٣: من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَتُهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبى ﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبى ﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ﷺ لمتابعة الكتاب ، وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَبْدٌ مَّا عَبْدْتُمْ﴾^(٤) ولذا قل الألوسى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَتُهُمْ﴾ أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشري "وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم^(٥) هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء^(٦).

وقد استشف صاحب الظلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبر عنها فى عبارة واحدة فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه هذا الأمر^(٧).

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

س ٤ : هات مثالا للتنويع بين صيغة الماضي وصيغة اسم الفاعل.

ج ٤ : من أمثلة التنويع بين صيغة الماضي وصيغة اسم الفاعل:

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبى ﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيًا لينفى عن النبى ﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيًا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ﷺ لمتابعة الكتاب، وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْعَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ﴾^(٤) ولذا قال الألوسى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشري" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم^(٥) هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدًا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء^(٦).

وقد استشف صاحب الضلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبّر عنها فى عبارة واحدة فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه هذا الأمر^(٧).

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتبئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

س ٥ : هات مثالا للتنويع الأسلوبى بين الاسم وفعل الأمر.

ج ٥ : أمثلة التنويع الأسلوبى بين الاسم وفعل الأمر:

عرض ابن الأثير أمثلة هذا النوع من التنويع: "كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿(الأعراف : ٢٩) وكان تقدير الكلام: أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل

مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قال ﷺ "الأعمال بالنيات"^(٨).

س٦: هات مثالا للتنويع الأسلوبي بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة.

ج٦: التنويع الأسلوبي بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة:

ومن أمثلة ذلك ما ورد في سورة الشعراء في قصة موسى على لسان فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ *﴾ (الشعراء: ٣٤-٣٧)

حيث جاء التعبير بصيغة المبالغة سَحَابٍ عَلِيمٍ في هذا الموضع دالا على مقابلة المَلَأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيد على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم (بسحره) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكل سحار عليم يفوق سحره سحر موسى.

وتتضح هذه النكتة حينما نقف على سياق القصة المشابهة في سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى على لسان المَلَأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ *﴾ (الأعراف: ١٠٩-١١٢).

وقد علل بعضهم مجيء صيغة المبالغة في الشعراء دون الأعراف بأن المبالغة في الشعراء مناسبة لقول فرعون ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾^(٩).

ولكن يضعف من هذا التعليل أن المَلَأ قد وصف موسى كذلك في الشعراء بأنه (ساحر عليم) وأرى أنه لم تأت المبالغة (سحار) في سورة الأعراف؛ لأنه لم ينص على أن المحذور - وهو إخراج موسى لهم من أرضهم - إنما يقع (بسحره) فلم تذكر هذه الكلمة في سورة الأعراف، ومن ثم لم تقابل بصيغة

المبالغة (سحر) في وصف السحرة، فكأن الملاء في هذا الموضع لم يتصور أن ما جاء به موسى - وهو ما وصفوه بكونه سحرا - يكون له من القوة والتأثير أن يخرجهم من أرضهم، فمن ثم لا يحتاج إبطال سحره إلى الإتيان بمهرة السحرة. أما في سورة الشعراء فإن الكلام فيها على لسان فرعون - لا الملاء - وهو يؤكد لهم أن معجزة موسى - عليه السلام - والتي سماها فرعون سحرا - تبلغ من القوة والتأثير أن يخرجهم موسى من أرضهم بها. ومن ثم بالغوا له في وصف السحرة الذين يؤتى بهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام. ويمكن أن يقال إنه لما كان الواصف لموسى عليه السلام في هذا الموضع بالسحر هو فرعون؛ لذا "جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيّبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه" (١٠).

س٧: هات مثالا للتنويع الأسلوبى بين التنويع في صيغ المصدر:
بين (الحياة - الحيوان).

ج٧ : التنويع في صيغ المصدر: بين (الحياة - الحيوان)

فمن ذلك ما جاء فى قوله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ * (العنكبوت: ٦٤).

حيث جاء اختيار المصدر (الحياة) للتعبير عن الحياة فى الدنيا، وجاء اختيار المصدر (الحيوان) على صيغة (الفاعل) للتعبير عن الحياة فى الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك فى مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

ولذا قال الزمخشري " وفى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء الحياة وهى ما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهيان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيؤه على بناء

دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة^(١١).

س ٨ : هات مثالا للتنويع الأسلوبي بين التنويع بين المصدر واسم المرة.

ج ٨: التنويع بين المصدر واسم المرة :

وذلك كما في قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ (الأعراف: ٦٠ - ٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول في الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة).

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملاء من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بأن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له في ضلال مبين بما يفيد لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (في) من معنى الإحاطة والانغماس في الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح في نفى هذا الاتهام مسلکا أكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعها نكرة في سياق النفي لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفي أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بي شيء من الضلال)^(١٢) أو (ليس بي نوع من الضلال البتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب)^(١٣) وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفي الأدنى من نفى الأكثر^(١٤) (فيرجع حاصل المعنى ليس بي أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين)^(١٥)، ولذا قال الطيبي: (أى ضلالة نكرة)^(١٦) ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة في سياق النفي فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

س ٩ : هات مثالا للتنويع الأسلوبى بين صيغة (فعل - افتعل).

ج ٩: التنويع الأسلوبى بين صيغة (فعل - افتعل):

يأتى التعبير بصيغة افتعل لأغراض ومعان فنية، منها من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) حيث نلاحظ أن الآية اختارت (كسبت) على وزن (فعل) فى الدلالة على فعل الخير، بينما آثرت (اكتسبت) على (كسبت) فى الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل على صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتى لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة فى معنى الفعل^(١٧).

قال سيبويه "وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"^(١٨) ومن ثم فقد عدلت الآية فى التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف والاجتهاد والتعمل والاضطراب والتصرف لأجل تحصيل المعصية ويناسب ذلك ما فى المعصية من مخالفة للأعراف والإفطر السليمة، مما يدعو العاصى إلى الاحتيال فيها. قال جماعة من العلماء "افتعل يدل على شدة الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"^(١٩) وقال الزمخشري "فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمرة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن فى باب الخير كذلك وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"^(٢٠).

فالتفت الزمخشري هنا إلى ما تدل عليه الصيغة من المبالغة فى الفعل ومناسبة ذلك لغلبة الشر على الطباع، واجتهاد الإنسان فيما فيه هواه، ومضيه قدما فى سبيل الفجور، كما قال تعالى ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (القيامة: ٥) قال الطبرى "يريد أن يمضى أمامه قدما فى معاصى الله لا يثنيه عنها شئ" وقال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يريد من

الحسنات ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يريد من السيئات، قاله السدى وجماعة من المفسرين لا خلاف فى ذلك والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة فى الحسنات بـ (لها) من حيث هى مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت فى السيئات بـ (عليها) من حيث هى أوزار وأثقال ومتحولات صعبة... وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام. كما قال: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤْيَا﴾ (الطلاق: ١٧) هذا وجه.

والذى يظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كاسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه إليها فيحسن فى الآية مجيء التصريفين إحرازا لهذا المعنى.

س ١٠: هات مثالا للتنويع الأسلوبى بين التنويع بين صيغتي الأفراد

والجمع :

ج ١٠: التنويع بين صيغتي الأفراد والجمع :

من الأمثلة البليغة التى تحققت فيها المزاوجة بين صيغتي الأفراد والجمع: قول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *﴾ (النساء: ١٣- ١٤) فقد جمع "خالدين" فى وصف ثواب الطائعين، وأفردته فى وصف عقاب "العاصين" (٢٥) وهنا لا يكاد يشك صاحب الذوق الرفيع أن لإفراد العاصى هنا فيه من معانى الإذلال والتعذيب بالوحشة والانفراد ما فيه.

وقد التفت إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود حيث قال "ولعل إثبات الأفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيدان بأن

الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجنب للأنس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة^(٢٦)."

وجدير بالذكر أن هذه المزاوجة المذكورة فى هذا الموضع هى طريقة القرآن ونهجه فى التعبير عن عذاب الكافر، ونعيم المتقين، حيث يطرد الأفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه فى المثال التلى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *﴾ (الدخان: ٤٣-٤٩) حيث نلمح فى هذه الآيات أفراد الأثيم فى مقابل جمع المتقين فى الآيات التالية فى المشهد التالى من السورة نفسها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ *﴾ (الدخان: ٥١-٥٥) وهنا تؤدى صيغة الفرد دورها فى إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم فى مقابل ائتناس المؤمن بصحبته ورفاقه فى جنات النعيم، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف. وبهذا تؤدى صيغة المفرد فى مثل هذا السياق معنى الوحشة والوحدة ومعاناة ألم الغربة والافتراق.

س ١١ : هات مثالا للعدول من صيغة الجمع إلى المفرد.

ج ١١ : من أمثلة العدول إلى المفرد:

من الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ * فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا *﴾ (الجن: ٨-٩) فالحرص والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشري: " والحرص اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقليل شِدَادًا، والرصد مثل

الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله^(٢٧).

وقال الطيبي " وقوله تعالى (شهابا رسدا) نزل الواحد وهو الموصوف منزلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... " ومعى جياع " جعل كل مكان من أمكنة المعامل بمنزلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع^(٢٨).

وقد ذهب الزمخشري وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا^(٢٩). والسر فى هذا العدول - فى رأى - يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن أفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعده. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رسدا مفعولا لأجله.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعاً فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (الأنعام: ١) وقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١).

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صورته فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ففى هذا الموضع يتضح للقارئ والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفراداً وجمعاً، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالالتفات إلى سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣) قال أبو حيان "جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد" (٣٠).

"وقال الألوسى" أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال" (٣١)

وقال ابن القيم "والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شىء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات" (٣٢).

ويلمح الألوسى وجهاً فى إفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق "أو أن الأول (أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة" (٣٣).

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن مواضع العدول إلى المفرد لتحقيق غرض بلاغي، ما جاء في القرآن الكريم من إفراد لفظ النعمة في سياقات عديدة، أريد التعبير فيها عن كثرة النعم؛ ومع ذلك فقد جاءت الصيغة مفردة في تلك المواضع؛ حتى بلغ عددها سبعة وأربعين موضعاً، ولم ترد مجموعة إلا في مواضع ثلاثة.

س ١٢ : هات مثالا للتنوع الأسلوبي في مجال الضمائر.

ج ١٢ : التنوع الأسلوبي في مجال الضمائر:

وقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥). فيه ما يعرف في البلاغة بالالتفات^(٣٥)

وذلك أن الخطاب في سورة الفاتحة قد بدأ بصيغة الغائب ثم تحول إلى الخطاب ؛ حيث جاء الحديث عنه سبحانه بصيغة الغائب ؛ فقل : الحمد لله على أنه غائب عن العبد، ولم يقل الحمد لك يا رب على الخطاب ، واستمر على ذلك في الآيات بعدها على الغيبة ، ثم التفت أي انتقل إلى صيغة أخرى هي صيغة الخطاب ، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)

والسر في ذلك هو مراعاة حال العبد ؛ حيث يكون غافلاً في أول القراءة فكأن الله غائب عنه – بالنسبة له ، وهو لا يزال يتعرف عليه شيئاً فشيئاً ، فيقرأ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيعرفه بربوبيته العامة الشاملة لجميع خلقه ، ثم يقرأ : ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، فيعرفه برحمته العامة والخاصة في الدنيا والآخرة ، ثم يقرأ : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، فيعرف أن إليه المرجع والمصير ، وبيده الجزاء وحده ، فيتعلق قلبه به رغبة ورهبة ، فلا يملك إلا أن يتوجه إليه مخاطباً إياه مقراً بعبوديته ووحدانيته مفرداً إياه بالاستعانة حيث لا ملجأ منه إلا إليه ؛ فيقول داعياً إياه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *

وفي قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وفي اختيار الضمائر الدالة على الجمع في : نعبد ، واهدنا : لمحة تدل على قيمة الجماعة ، وهضم الذات أمام الملك ، وأن العبد لا يغتر بسعيه ، بل يتوجه إلى مولاه مستشفعا بمن هو معهم من زمرة الصالحين – لا سيما إن كان في صلاة الجماعة .

ومما جاء من التنويع في الضمائر كذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ وَمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ * إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * ﴿هود: ٥٤﴾؛ فإنه إنما قال " أشهد الله واشهدوا " ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له لأن إشهداه الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهداهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: " اشهد على أنى أحبك " تهكما به واستهانة بحاله^(٣٦)

فالعَدول هنا في كلام ابن الأثير قد وظف توظيفاً صحيحاً لأنه عدول عن الأصل السياقي؛ وذلك لأن السياق يقتضى (وأشهدكم) بصيغة المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقي للنكتة التي بينها ابن الأثير.

س ١٣ : هات مثالا للتنويع الأسلوبى في مجال الأدوات.

ج ١٣ : من أمثله التنويع في حروف التوكيد :

من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ * مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُم لَمُرْسَلُونَ * ﴿١٣﴾

فإن هؤلاء الرسل حين ووجهوا بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا: (إنا إليكم مرسلون) وهو أسلوب خبرى فيه من وسائل التوكيد (إن) واسمية الجملة، فلما

بالغ أصحاب القرية فى التكذيب، ولجؤا فى الإنكار كرر عليهم الرسل الخبر الأول مضافاً إليه ألواناً جديدة من التوكيد حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فجاء الأسلوب كما ترى مؤكداً بالقسم فى صدره و(إن) واللام واسمية الجملة، فضلاً عن التكرار الذى هو فى حد ذاته وسيلة أخرى من وسائل التوكيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ * أكد إثبات الموت تأكديين – وإن كان مما لا ينكر – لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت، لتماديهما فى الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون "تموتون" ... وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً – وإن كان مما ينكر – لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن ينكر، بل إما يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبين منزلة المترددين، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته، وحثاً على النظرة فيها، ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل "وينقل الطيبي ذلك الكلام السابق للقروينى فى التبيان مع تصرف يسير فيه، ثم يتبعه بقوله: هذا الذى يقتضيه النظم الأنيق، وتكرير كلمة التراخى فى الرتبة المستدعية للترقى فى الأطوار من لدن قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أن تحمل إن على مجرد التوكيد بسطاً، فعل المؤمن فى جواره: (ربنا آمنا) ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يصاب منه بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أكد ذلك التوكيد، وضم مع كلمة التراخى لفظة بعد ذلك.

وكذلك فى قول المنافقين: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى

الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعد على إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهراى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: "ربنا إنا آمنة"، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد".

وعلق الطيبي على قول الزمخشري السابق فى حاشيته على الكشف فقال: "قوله: ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ربنا إنا آمنة استئناف، وحاصله أن معنى التوكيد الذى تعطيه (إن) هاهنا ليس راجعاً إلى المخاطب فى إزالة تردده أو نفى شكه بل إلى المتكلم فى إظهار نشاطه، ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق بالإطناب، وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلاماً بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى إليه".

وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف: ١٣)

ذكر يعقوب - عليه السلام - سببين يمنعانه من إرسال أخيهم معهم؛ حزنه لفراقه، وخوفه عليه من أكل الذئب له، وكأنه لا يسلم لهم بالسبب الذى ذكروه؛ وهو أنه لا يأمنهم عليه، وإن كان لم ينكر ذلك صراحة؛ فحاله حال نبي يريد ألا يكذب، ويريد فى الوقت ذاته أن يصرفهم بلطف عما ذهبوا إليه؛ فعدد لهم ما يدفعه إلى منعه عنهم. وهو بالطبع قد راعى حالهم؛ فلم يصارحهم بالسبب

الرئيسى، محاولاً التخفيف من تأجج نار الحقد والغل والحسد ليوסף عليه السلام، ولكن جاء الكلام مع ذلك دالاً على حاله كاشفاً عنه.

فالتوكيد فى قوله: **"إنى ليحزننى"** توكيد بان واللام ليس مقصوداً به المخاطب بلا شك، فأبناؤه متيقنون من شدة محبته ليوסף وأنه لا يصبر على فراقه طرفة عين، ولولا ذلك لما أقدموا على ما هم مقدمون عليه، ورعاية حال المخاطب تقتضى من هذا النبى الحكيم ألا يؤكد ذلك الأمر وألا يظهره لأبنائه لكيلا يزيد اشتعال الحقد فى قلوبهم، ولا يزكى نار العداوة فيها، ولكن جاء هذا التوكيد فلتة من فلتات لسانه كتعبير شعور تلقائى يفيض به قلبه الذى يكاد ينفطر لمجرد تصور الفراق ولو لساعة يسيرة، فيأتى هذا الكلام المؤكد بأكثر من وسيلة من وسائل التوكيد كاشفاً عن تلك الحال ومبيناً لها أتم التبيين.

ويدل لذلك أيضاً تعبيره بالفعل دون الاسم فعبر بـ **"أن تذهبوا به"** بدلاً من **"ذهبكم به"** فأتى الكلام كاشفاً عن حال المتكلم بذلك، وهو أن الحزن المؤكد يلم به لمجرد وجود فعل الذهاب ومجرد تصور الحدث، بله ما تحدثه نفسه به – وهو صاحب النفس الملهمة- من ذهاب بلا رجعة مريية، فلذلك جاء التعبير بالفعل الدال على مجرد الحدث دون الاسم الدال على الثبوت والدوام.

تطبيقات على الوحدة الخامسة وإجاباتها

س ١: وضح مفهوم التصوير الفني.

ج ١: مفهوم التصوير الفني:

التصوير الفني في أدق معانيه وأوضحها هو ذلك النوع من التعبير الذي تستثار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقاتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبر عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس والرؤى بطريقة تصويرية بارعة تتألق فيها الألفاظ والتراكيب لتقرب تلك المعاني والأفكار والمشاعر إلى النفس بعرضها في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها، ويطيل الوقوف إزاءها ليتأمل مدى المطابقة بينها وبين الواقع متقاربة منه، أو متسامية عليه محلقة في آفاق من الخيال والجمال.

س ٢: اذكر أمثلة للتفريق بين التصوير الفني وبين التصوير البياني المعهود.

ج ٢: التفريق بين التصوير الفني وبين التصوير البياني المعهود:

وإذا كان البلاغيون قد حصروا التصوير البياني في حدود الصور البيانية المعهودة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز فالحق أن التصوير الفني أوسع من أن يحد بحدٍّ أو صور بيانية بعينها؛ بل تتميز نماذجه بروعة التصوير وجماله سواء كان على مستوى الحقيقة أو المجاز.

ولك أن تتأمل - على سبيل المثال روعة التصوير لحال المنافقين وما انطبعت عليه نفوسهم من الجبن والخوف والهلع في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَكًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلَ لَوْلَاءِ إِلَيْهِ وَهُمْ يَحْمَحُونَ﴾ (التوبة: ٥٧).

حيث تعجب لدقة التصوير الفني والجمالي في مثل هذا الموضع - من خلال استثمار طاقات الألفاظ والتراكيب على مستوى الحقيقة دون الاستعانة

بشيء من المجاز أو التصوير البياني - على اختلاف فنونه وتنوعها - فتعجب كيف صوّر هذه الصورة المتحركة التي لا تصوّر المشاهد الظاهرة فحسب؛ بل تصوّر كذلك دواخل هؤلاء المنافقين وما انطبعوا عليه من الجبن والخوف والهلع وشدة الحرص على الحياة والتعلق بها؛ فتراهم يبحثون عن أي ملاذ لهم معبرا عن شدة حرصهم على الحياة وتمنيهم لها بأداة الشرط (لو) وبالمضارع الدال على استمرارية هذا التمني وتجدد منه (يجدون) مع ما في دلالاته المعجمية على معنى البحث والتفقد، ثم التعبير بصيغة المكان (ملجأ) والإتيان بها منكرة في سياق الشرط لإفادة العموم؛ فهم يتمنون أي ملجأ يحتمون به ولو كان حقيرا دنيئا، ثم في التعبير بـ(أو) التي تفيد التخيير والتنويع لتدل هنا على استواء تلك الملاجئ لديهم؛ لأن ما يغلب على تفكيرهم، ويهجم على نفوسهم هو محاولة اللجوء والاحتماء بأي سبب من الأسباب، ثم في جمع (المغارات) مع ما في دلالاتها المعجمية من معاني الغور والبعد والاختفاء، ثم لك أن تتأمل جمال التعبير في صيغة اسم المكان (مدّخلا) المأخوذة من الفعل (يدّخل) - على صيغة (يفتعل) التي تأتي لتكلف الشيء ومحاولته ليصوّر لك شخصا يحاول أن يحشر نفسه في مكان ضيق حشرا بنوع من التكلف والمحاولة والمبالغة في الفعل، ثم في التعبير بلام التوكيد في (لؤلؤا) مع التعبير بالتوّلّي وما فيه من معنى الهروب والفرار والجبن والتخاذل والهلع وغير ذلك من المعاني التي تأتي محمولة على اللفظ، ولا يقوم بها لفظ دونه، ثم التعبير بـ(إلى) التي تفيد التوجه والقصد إلى تلك الأماكن على بعد المسافة عنها مسارعة في اللجوء إليها والاحتماء بها، ثم في التعبير بتلك الجملة الحالية التي تصور حالهم وما صاروا إليه من الخوف والهلع الذي صورته القرآن من خلال جموح البصر وجحوظه وثباته نحو تلك الملاجئ لا يحول عنها ولا يزول، وذلك من خلال دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام على تلك الصفة.

ولك أن تتصور كذلك براعة التصوير وجماله في هذه الصورة الكلية الحقيقية التي يرسمها رب العزة - جلّ وعلا للكون بعد إهلاك الكافرين من قوم نوح بالطوفان، وإنجاء نوح والمؤمنين معه في سفينة النجاة في قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أِبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤)

"وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أِبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قتل لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع! أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟ وهكذا، إلى أن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل تتأج ما بينها، وحصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ (يا) دون (أي) نحو: يا أيتها الأرض. ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، ونداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها. ثم أن قيل: وغيض الماء. فجاء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر أمر وقدرة قادر. ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: (وَقُضِيَ الْأَمْرُ). ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ). ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن. ثم مقابلة قيل في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة، وتحضر ك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من

حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟^(١).

ففي هذا النص السابق يبين لنا عبد القاهر الجرجاني أن اتساق المعاني- في هذا النص وغيره - لم يكن إلا لاتساق الألفاظ وحسن تركيبها وتناسقها، وهو أمر تتضافر في تحقيقه علوم البلاغة وفنون القول جميعها في القديم والحديث؛ وذلك أنه لا ينكر ذو ذوق روعة التصوير لهذا الحدث الجلل في الآية السابقة، ولا يستطيع عالم كذلك من علماء البلاغة نسبة تلك الروعة، أو تفسير مظاهر الجمال في هذه الآية في ضوء فنون البيان المعهودة المحدودة فقط؛ إذ ليس في الآية تشبيه ولا كناية ولا شيء من المجاز المعهود إلا بضرب من التكلف والتمحل في القول بشيء منها؛ اللهم إلا في استعارة البلع للأرض - وإن كان ذلك أيضا مما يجري مجرى الحقيقة - أترك تتجاهل كل ما بين لك من مظاهر الجمال في الآية النابع من تناسق ألفاظها وانسجام حروفها ثم تبحث بعد ذلك كله عن صورة جزئية تنسب لها الفضل كتلك الاستعارة.

وماذا عسى أن تكون تلك الاستعارة في تلك الصورة المتلاحمة الأجزاء؛ حيث كل كلمة فيها؛ بل كل حركة إنما هي جزء لا يتجزأ من نسيج تلك الصورة الرائعة، ومما يزيد تلك الصورة روعة ما نشاهده فيها من الحركة والحياة؛ فثمة أمر إلهي للأرض فإذا هي تستجيب على الفور فتبلع ماءها فكأنما هي قد انقلبت حوتا عظيما يبلع تلك المياه العظيمة، وفي الوقت نفسه تؤمر السماء فتقلع عن هطولها؛ فتري المطر ينقطع، وتري السحاب ينقشع، وتري صفحة السماء وقد صارت صافية ناصعة، وتتنظر إلى الماء فتراه يغيض وينقص حتى يتلاشى في لمح العين؛ إنها صورة تفيض بالحركة، وتظهر فيها يد القدرة تحرك هذا الكون، وتتحكم في مقاديره.

س٣: اذكر بعض أمثلة التشبيه التمثيلي في القرآن.

ج٣: بعض أمثلة التشبيه التمثيلي في القرآن:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة).

"هذا مثل ضربه الله لليهود، وهو أنه شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بها فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة: بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي ف تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرّفوا وبدّلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم.

ووجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح الله تعالى هذا في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦) فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به....

كالعيس في البئداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والذي يظهر والله تعالى أعلم، أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتباً نافعة، والحامل حمار لا علاقة له بها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج آية: ٣١). هذا تشبيه لحال المشرك الذي سقط من نظر الله، وسقطت مكانته عنده؛ فهو متنكس بضلالته، لا شأن له، يشبه من خرّ من السماء، لا شيء يحميه، أو ينقذه من الخطر الذي يحيط به، وهو لا بدّ واقع في المهالك والمهاوي المردية، تخطفه الطير فتقطّعه بمخالبها، وتمزقه إرباً إرباً، أو ستهوي به الريح في مكان سحيق، جزاء وفاقاً إنها صورة التمزق والضياح التي يعيشها المشرك بالله، الكافر بنعمه، حينما يعرض عن طاعة ربه، وهي صورة مرعبة مخيفة، تمثل سوء العاقبة، وهول النهاية، وقد وردت على شكل التشبيه التمثيلي: فالمشرك في انخلاعه من حماية الله، وتركه المرفأ الأمين، كالساقط من السماء والأخطار تحقّق به من كلّ مكان، "إنه مشهد الهويّ

من شاهق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ أو تقذف به الريح بعيداً بعيداً عن الأنظار: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ في هوة ليس لها قرار!

والملاحظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ «بالفاء» وفي المنظر بسرعة الاختفاء،، على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه؛ فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأهوام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه،^(٤).

٣- ومثاله أيضا قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ (البقرة: ٢٦١) فالمشبه: حال من ينفق قليلا في سبيل الله، والمشبه به: حال من بذر حبة فأنبتت سبع سنابل، ووجه الشبه: هو صورة من يعمل قليلا فيجني من ثمار عمله كثيرا، وهو منتزع من أمور شتى: (حبة، وإنباتها سبع سنابل، وكون مائة حبة في كل سنبل).

٤- ومن الأمثلة أيضا: قل تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم: ١٨).

فيه : تصوير لأعمال الكفار في عدم نفعها وأنها لا أثر لها يوم القيامة، ولا يعتمد عليها في نجاة صاحبها من النار، حيث يلتمسها وهو في أشد الحاجة إليها فلا يجدها كحالة الرماد الذي يتطاير في يوم عاصف فلا يقدر صاحبه عليه، فهنا تشبيه هيئة بهيئة، وليس تشبيه مفرد بمفرد.

س٤: اعرض واحدا من النماذج الكلية للتصوير الفني والبياني في القرآن الكريم.

ج٤: من أمثلة النماذج الكلية للتصوير الفني والبياني في القرآن الكريم

التصوير الفني والبياني لدعوة نوح قومه.

قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ بِقَوْمٍ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۚ إِذَا نِيتُهم وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا *﴾ (نوح : ١ - ٢٠)

سبق أن بينا أن التصوير الفني هو ذلك النوع من التعبير الذي تستثار فيه جميع إمكانات اللغة وطاقتها على جميع مستوياتها التعبيرية لتعبر عن الصور والمعاني بطريقة تصويرية بارعة تتألق فيها الألفاظ والتراكيب لتقرب تلك المعاني والصور في صورة ملموسة يسهل تصورها، ويستعذب الخيال تأملها.

ونستطيع أن نستعرض هنا - في دعوة نوح عليه السلام قومه - عددا من الصور الكلية والمشاهد الواقعية التي استثمرت فيها إمكانات اللغة بجميع مستوياتها اللغوية لعرض تلك المشاهد وتصويرها تصويرا فنيا رائعا يعاين المرء فيها تلك الصور والمشاهد وكأنه حاضر فيها مشاهد لها، فمن ذلك مشاهد نوح عليه السلام في دعوته قومه ليلا ونهارا، خفية وجهارا، إعلانا وإسرارا، ترغيبا وترهيبا، دعوة متنوعة بوسائل عديدة منها القلبية الوجدانية، ومنها العقلية

التأملية، وتستطيع أن تتأمل ملامح هذه الصورة واللوحة الفنية البارعة ونوح عليه السلام يدعو قومه، وهم معرضون عنه، وقد جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً.

وفي هذه الصور والمشاهد تتلاحم الصور البيانية الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مع الصور الكلية التي تسهم في تشكيلها جميع أدوات اللغة الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية مما سنقف على ملامحه في هذا العرض الموجز لتلك المشاهد.

تبدأ الآيات بمشهد عرض نوح عليه السلام دعوته على قومه ببيان واضح قوامه الترغيب والتبشير بمغفرة الله ورحمته، وإن كانت لا تخلو في الوقت نفسه من نبرة الترهيب والتلويع بعذاب الله تعالى وشدة أخذه وعقابه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح: ٣-٤)

ومع أن الحوار هو - كما وقفنا على تعريفه - عبارة عن مراجعة الكلام بين طرفين؛ فإننا نلاحظ أن الحوار هنا بين نوح وقومه يكاد يكون من طرف واحد - هو نوح عليه السلام - والحوار من الطرف الآخر يكاد يكون سلبيًا، أو بأساليب إشارية غير كلامية تدل على النفور والإعراض والصدّ بصور شتى (فِرَارًا - جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ - اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ - أَصْرُوا - اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

كما نلاحظ في هذه السورة الكريمة تنوع أساليب الدعوة بين الخطاب الوجداني المتنوع بين الترغيب والترهيب، والخطاب البرهاني العقلي التأملي الاستدلالي.

فالخطاب الوجداني يخاطب فيه نوح عليه السلام قلوب قومه، ويبعث فيهم الرغبة والرغبة، فيرغبهم في مغفرة الله ورحمته، ويذكرهم بالآله ونعمته، والخطاب العقلي التأملي يعرض لهم فيه أدلة ربوبيته ووحدانيته سبحانه في

دعوة للتأمل والنظر في آلاء الله تعالى في الكون ومظاهر قدرته فيه، فاجتمعت في هذه الآيات طريقتا الخطاب القلبية الوجدانية بنوعيتها من حيث الترغيب والترهيب، والعقلية التأملية بأنواعها من حيث التأمل والبديهة، وذلك في قوله عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَبَثَّرَ بِمُؤْمِلٍ وَيَنِينَ * وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَرًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا * وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِيَسْأَلُكُمُ مِنْهَا سُبُلًا * فِجَاجًا *﴾ (نوح: ١٠ - ٢٠).

ف نجد أسلوب الترغيب واضحا فيما وعدهم به إن استغفروا الله تعالى وتابوا إليه من إرسال السماء بالخير العميم مع كثرة أموالهم وأولادهم وتفجير الأنهار والجنات من تحتهم، إلخ.

ثم لما لم ينجح ذلك الأسلوب معهم لقسوة قلوبهم وإعراضهم نحنا نحو زجرهم وتأنيبهم وتقريعهم فسلك مسلكا حسنا من مسالك الترهيب حيث قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ثم عمد إلى طريقة الخطاب العقلي بدعوتهم إلى النظر والتأمل في مخلوقات الله تعالى للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته وسائر صفات ربوبيته وألوهيته سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا...﴾. وهو في ذلك يجمع بين دعوتهم إلى النظر والتأمل في صفحة الكون، والاستدلال ببدييات العقول وأقيستها المستقيمة المتفقة مع الفطرة السليمة.

وتتضافر في هذه الآيات الوسائل التعبيرية المختلفة على جميع المستويات اللغوية لتصوير هذا الحوار الدعوي الموجه من نوح إلى قومه.

س٥: يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار. وضّح ذلك على المستوى المعجمي.

ج٥: يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار:

على المستوى المعجمي:

نجد توظيف الكلمات ذات الدلالة المعجمية المتناغمة مع الحوار السابق كما في الكلمات:

(مِذْرَارًا - يُمِدِّدُكُمْ - أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - نُورًا - سِرَاجًا - أَنْبَتُكُمْ - نَبَاتًا - وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا - بِسَاطًا - سُبُلًا - فِجَاجًا)

(مِذْرَارًا) المذرار هي السماء التي تدرّ المطر أي تصبّه صبّا شديداً، يقال: "دَرَّ اللَّبَنُ يَدْرُ دَرًّا، وكذلك النَّاقَةُ. وَدَرَّتْ عُرُوقُهَا: اِمْتَلَأَتْ دَمًا. وَدَرَّتِ السَّمَاءُ: كَثُرَ الْمَطَرُ. وَسَحَابَةٌ مِذْرَارٌ. وَنَاقَةٌ دَرُورٌ...." (٥).

ويقال " للسحاب دِرَّةٌ: أي صَبٌّ. والجمع دِرَرٌ....أي ذات دِرَرٍ. وَسَمَاءٌ مِذْرَارٌ، أي تَدْرُ بالمطر." (٦).

وهذا يدلُّ على مدى مناسبة الكلمة لمعاني: درّ المطر، ونزول الخير والبركة من السماء؛ فهذا من معاني الدر؛ ولذا قالوا في الدعاء على الشخص: (لا درّ درّه) أي لا كثر خيرُهُ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)

(يُمِدِّدُكُمْ): أثر التعبير بـ (يُمِدِّدُكُمْ) على غيرها مثل (يعطيكم) لما فيها من معاني المدد وهو العطاء المشتمل على الزيادة الممتدة بالعون والرّفد والنصرة،

"حكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثر شئ شيئاً بنفسه مده، وإذا كثره بغيره قيل أمده، نحو " يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ". ويدل ذلك على أن هذا الإمداد بالخير لا يكون إلا من رب البرية المتكفل بأرزاق العباد^(٧).

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رُبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَىٰ إِنَّ تَصَبُّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَّكُمْ وَلِتُزِيلَ قُلُوبُكُم بِهِ. وَمَا لَنتَصَرُّ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *﴾ (آل عمران: ١٢٤-١٢٦)

(أَمْوَالٍ): تطلق الأموال على كل ما يتمول أي يمتلكه المرء من النقد والعرض والماشية والعقار والثياب والجملة تطلق على كل ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها.

وفي لسان العرب: " (مول) المال معروف ما مَلَكَته من جميع. والجمع أموال وفي الحديث: " نهى عن إضاعة المال " قيل أراد به الحيوان أي يُحَسِّن إليه ولا يهمل وقيل إضاعته إنفاقه في الحرام والمعاصي وما لا يحبه الله وقيل أراد به التبذير والإسراف وإن كان في حلال مُباح، قال ابن الأثير المال في الأصل ما يُمْلِك من الذهب والفضة ثم أُطْلِق على كل ما يُقْتَنَى ويمْلِك من الأعيان " (٨).

(أَطْوَارًا): " الطَّوْر: الحدّ بين الشَّيْئَيْنِ، والجمع أطوار،...والطَّوْر أيضاً: فعلك الشَّيْءَ بعد الشَّيْءِ، فعلتُ الشَّيْءَ طَوْرًا بعد طَوْرٍ، أي مرة بعد مرّة، وفي التنزيل: " خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا "، فَسَّرَ نُطْفَةً ثم عَاقَةً ثم مضغَةً، فهذا طَوْر بعد طَوْر، والله أعلم بكتابه. " (٩).

فدلت هذه الكلمة بما لها من دلالة معجمية على قدرة الله وإعجازه في خلق الإنسان، ولا نكاد نجد كلمة تسدّ مسدها في الدلالة على أطوار الخلق ومراحل

المختلفة التي تختلف فيه كلّ مرحلة عن التي تليها والتي بعدها؛ كأن ثمة حدًّا فاصلا بينهما، وما هي إلا القدرة الإلهية.

كما نلاحظ وجه الإعجاز كذلك في التفرقة بين (نورًا- سراجًا) هي وصف القمر بالنور، وتشبيه الشمس بالسراج تشبيه بليغ يدل على هذه الحقيقة العلمية الدالة على أن القمر إنما يستمد نوره من الشمس التي هي بمثابة السراج المنير؛ أما القمر فنوره مستمد من هذا السراج.

كما نلمح المناسبة التامة في هذه الاستعارة المكنية في وصف الخلق بالإنبات (أَنْبَتَكُمْ - نَبَاتًا-)؛ حيث وصف خلق الإنسان بالإنبات "بناءً على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نوح: ١٧).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ناسب التعبير عن البعث وإعادة الخلق؛ لأن حقيقته إخراج من الأرض كإخراج النبات كما دلّت عليه النصوص فعبّر بالإخراج دون البعث والإحياء للدلالة على المشابهة والمساواة بين الحالين، فكما لا يستغرب إخراج النبات من الأرض ينبغي ألا يستغرب البعث لأنه إخراج الأجساد من الأرض، وإنبات أصلها المتبقي وإخراجه بالماء من الأرض كإنبات البقل سواء بسواء.

قال البخاري: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (النبأ: ١٨) بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بين النفختين أربعون". قالوا: أربعون يومًا؟ قال: "أبيت". قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: "أبيت". قالوا: أربعون سنة؟ قال: "أبيت". قال: "ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتُون كما ينبتُ البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١٠).

" فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجب، كذلك الخروج على هذه الوتيرة وبهذه

السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري، ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب. وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب" (١١).

وفي كلمة (بَسَاطًا) تشبيهه بليغ يبين كيف أنه "جعل الأرض ممهودة مسهلة للسير والجلوس والاضطجاع بحيث لا نُتَوَّء فيها إلا نادراً يمكن تجنبه" (١٢).

أما قوله: سُبُلًا فتدل على كل سبيل متخلل في الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي أسلك فيها سبلاً، أي جعل سبلاً سالكة في الأرض، أي داخلة فيها، أي متخللة، وذلك (كناية) عن كثرتها في جهات الأرض.

والمراد بالسبل: كل سبيل يمكن السير فيه سواء كان من أصل خلقة الأرض كالسهول والرمال، أو كان من أثر فعل الناس مثل الثنايا التي تكرر السير فيها فتعبدت وصارت طرقاً يتابع الناس السير فيها" (١٣).

قال القرطبي: "السبل : الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين." (١٤).

قال الزمخشري في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان: ١٠) [فجاجاً] الفج: الطريق الواسع، فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح : ٢٠) قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً كقوله:

لِعَزَّةٍ مُوحِشًا طَلًّا قَدِيمًا.. فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة، والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة" (١٥).

جعلوا أصابعهم: المراد أناملهم؛ ومن ثم فهو (مجاز مرسل) علاقته الكلية، وإنما عبر بالأصابع على سبيل المبالغة في بيان مدى ما هم عليه من الإعراض والصد.

س٦: يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار. وضَّح ذلك على المستوى الصرفي.

ج٥: يظهر التوظيف الأسلوبي للغة على كافة مستوياتها لتتضافر الدلالات اللغوية المختلفة في مناسبة هذا الحوار:

على المستوى الصرفي.

نجد جمال التوظيف الفني للصيغ الصرفية المختلفة لتحقيق التناسب التام بين هذه الصيغ والمعاني التي تعبر الآيات عنها.

نجد ذلك على سبيل المثال في صيغ الكلمات التالية: (أَصَابِعُهُمْ- آذَانِهِمْ- وَاسْتَعْشَوْا- اسْتَكْبَرُوا- اسْتَكْبَارًا- مَذَرًا- يُمْدِدْكُمْ- أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - أَنْبَتَكُمْ- نَبَاتًا- وَيُخْرِجُكُمْ - إِخْرَاجًا- بِسَاطًا- سُبُلًا - فَجَاجًا).

يُمددكم : جاءت بصيغة المضارع لتدل على التجدد والاستمرارية فهو ردف وعطاء ونصرة وعون يتجدد بتجدد الأحوال والحاجة إليه.

ونلاحظ توظيف الآيات لصيغ الجمع نحو: (أَصَابِعُهُمْ- آذَانِهِمْ- أَمْوَالٍ - أَطْوَارًا - سُبُلًا - فَجَاجًا).

فاختار الجمع أَصَابِعُهُمْ وهم لا يضعون إلا إصبعاً واحدة للمبالغة والتهويل في عرض السورة ولبيان مدى ما هم عليه من المبالغة في الإعراض والصد حتى أنهم لو استطاعوا وضع جميع أصابعهم لفعلوا.

وكذلك جمع آذَانِهِمْ رغم أنهم لا يضعون الإصبع إلى في أذن واحدة وليس لهم إلا أذنان فقط؛ فجمع ذلك للغرض السابق نفسه.

أموال: " تطلق على كل ما يُقْتَنَى ويمْلِك من الأعيان "(١٦).

ومن ثم تشمل النقد والعرض والماشية والعقار والثياب، وبالجمله تطلق على كل ما له قيمة؛ ففي هذه الكلمة إذا من عموم إيصال الخير والنفع ما ليس في غيرها، والنكته في جمعها أن تشمل جميع صنوف المال وأنواعه، وتدل على تعدد وتنوع الخير الذي يصل إليهم - إن أطاعوا الله تعالى - ؛ فلا يقتصر على تصور أصل المال فقط عند الإطلاق، وهو الذهب والفضة " قال ابن الأثير المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ثم أُطلق على كل ما يُقْتَنَى ويمْلِك من الأعيان "(١٧).

كذلك فإن الجمع أطوارًا جاء مناسبًا لتعدد أطوار خلق الإنسان (نطفة فعلة فمضغة فعظاما فكسى العظام لحما، ثم يخرج طفلا، ثم يبلغه أشده، ثم يصيره كهلا فشيخا).

كما جمع (سُبُلًا - فِجَاجًا) كذلك للدلالة على الكثرة والتعدد.

وقوله تعالى : (لو كنتم تعلمون) " جمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على استمرار النفي المفهوم من لو".

تطبيقات على الوحدة السادسة وإجاباتها

س ١: وضح التناسب بين فاتحة سورة البقرة وخاتمتها.

ج ١: وافق آخر البقرة أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ثم الإشارة إلى وصف الكافرين؛ فقد افتتحت بذكر أوصاف المتقين قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية ثم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. وختمت السورة بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ففي ذلك بيان لصفات المؤمنين وتعريض بصفات الكافرين الذين فرقوا بين الله ورسله وقالوا سمعنا وعصينا.

س ٢: وضح وجه التناسب في قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ * الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * (البقرة).

ج ٢: المناسبة بين الأمر بالإنفاق وما ذكر من صفات الألوهية بعده هو أنه لما بين الله أن يوم القيامة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة؛ ناسبه بيان سبب انقطاع الوصل بانبتار الأسباب وانتفاء الشفاعة في ذلك اليوم، إذ كان المؤلف من ملوك الدنيا أنهم لا يكادون يتمكنون من أمر من الأمور حق التمكن من كثرة الشفعاء والراغبين من الأصدقاء، إذ كان الملك منهم لا يخلو مجلسه قط عن جمع كل منهم صالح للقيام مقامه، ببيان أن الله هو وحده سبحانه وتعالى المتفرد بالألوهية فلا شريك له ولا ند ولا شبهه المتفرد بالحياة التي لا يطرق غلبها نوم

ولا موت و المتفرد بالملك و المتفرد بالعلم و المتفرد بالإذن بالشفاعة وأنه هو العلى العظيم بذكر آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن كما قال رسول الله ﷺ.

س ٣ : يقول تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *﴾ (القيامة) بين وجوه المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها وما لحقها.

ج ٣: ذكر السيوطي أن مناسبة هذه الآيات لأول السورة وآخرها يكمن في عدة وجوه: منها : أنه تعالى لما ذكر القيامة، وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة، وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة؛ فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه، وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يرد منهوالتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك؛ فأمر بالألّا يبادر إلى التحفظ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي؛ فيتبع ما اشتمل عليه ثم لما انقضت الجملة المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبتدأ بذكره ومن هو من جنسه فقال: {كلا} وهي كلمة ردع كأنه قال "بل أنتم يا بني آدم لكونكم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة"

ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركاً كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ (٤٩) إلى أن قل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٤٩) إلى أن قل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الآية.

ومنها : أنه لما نزل أول السورة إلى قوله ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِرَهُ﴾ صادف أنه ﷺ في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل وحرك به لسانه من عجلته خشية من تفلته

فنزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم عاد إلى الكلام إلى تكملة ما ابتدئ به.

س ٤: يقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف) ويقول ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجْدَلَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (الكهف) لم خصت كل آية بما فيها من الختام.

ج ٤: أن آية الأعراف يسبقها قوله: ﴿مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾؛ فلما كان هؤلاء قد بعدوا عن الهدى بعداً كبيراً بترك الآخرة بإقباله على أرباح الدنيا وأعرضها الفانية؛ ناسبه الإشارة إليهم بأداة البعد وما يدل على خسرانهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أما آية الكهف فيسبقها قوله: ﴿فَأَوْرُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ وبدئت بقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فلما كان ذلك دالاً على أن الله هو الولي المرشد لمن هداه؛ ناسبه نفي ذلك عن من أضل بقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجْدَلَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

تطبيقات على الوحدة السابعة وإجاباتها

س ١: ما وجوه المناسبة بين سورة البقرة وسورة آل عمران.

ج ١: ذكر أبو جعفر بن الزبير أن اتصال سورة آل عمران بسورة البقرة من ثلاث جهات:

إحداها: ما تبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضمن في سورة البقرة بأسرها.

ثانيها: الإشارة في صدر السورة أيضاً إلى أن الصراط المستقيم قد بين شأنه لمن تقدم في كتبهم، وأن هذا الكتاب جاء مصدقاً لها ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكَتَبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران) ليبين لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن من تقدمهم قد بين لهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء).

والثالثة: قصة عيسى عليه السلام، وابتداء أمره من غير أب والاعتبار به نظير الاعتبار بآدم عليه السلام، ولهذا أشار قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران) كما اتبعت قصة آدم بذكر بني إسرائيل لوقوفهم من تلك القصة على ما لم تكن العرب تعرفه وأنذروا وحذروا، واتبعت أيضاً قصة عيسى عليه السلام بذكر الحواريين وأمر النصارى إلى آية المباهلة.

وقال السيوطي: "من وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل في الجنة: أعدت للمتقين، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً، وقال ذلك في آل عمران في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة."

س٢: بين المناسبة بين السور الآتية مبيناً ترتيب النزول أو ترتيب المصحف.

أ- الكافرون والفيل.

ب - الدخان والجاثية.

ج- التين وقريش.

د - مريم وطه .

هـ - يونس وهود.

و- الجن ويس.

ج ٢: المناسبة بين سورتي : الكافرون والفيل.

أ-نزول

سورة الكافرين هي السابعة عشرة وسورة الفيل هي الثامنة عشرة في ترتيب النزول، والمناسبة بينهما أنه لما ختمت سورة الكافرين بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وكان المقصود من ذلك التهديد والوعيد؛ ناسبه ذكر ما يدل على تحقق الوعيد والتهديد بذكر ما حدث لأصحاب الفيل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ السورة.

ب- المناسبة بين سورتي : الدخان والجاثية: نزول ومصحف

سورتا الدخان والجاثية متابعتان في ترتيب النزول وفي ترتيب المصحف؛ فسورة الدخان رقم ٦٣ وسورة الجاثية ٦٤ في ترتيب النزول، وسورة الدخان رقم ٤٤ وسورة الجاثية ٤٥ في ترتيب المصحف، والمناسبة بينهما أنه لما تضمنت سورة الدخان "إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه وبيان أنه شاف كاف وهدى ونور، وكان أمر من كفر من العرب أعجب شيء لانقطاع عجزهم وقيام الحجة به عليهم

حتى رضوا بالقتل والخزي العاجل وما قاموا بادعاء معارضته ولا تشوفوا إلى الإسناد إلى عظيم تلك المعارضة، أتبع ذلك تعالى تنبيهاً لنبيه والمؤمنين إلى ما قد نصبه من الدلائل سواء مما صد المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله" لما كان الأمر كذلك؛ ناسبه بدء سورة الجاثية بتمجيد الكتاب بقوله تعالى: ﴿حَمْدُ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. والتنبيه على ما يتضمنه من الآيات الدالة على صدقه وعلى وحدانية الله بقوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ج - المناسبة بين سورتي : التين وقريش . نزول

سورة التين هي السابعة والعشرون وسورة القلم الثامنة والعشرون في ترتيب النزول، والمناسبة بينهما أنه لما أقسم الله بمكة في سورة التين بقوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وختم السورة بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؛ ناسبه ذكر طرف من حكمته فيما يتعلق بالبلد الأمين بقوله تعالى ﴿لَا يَلْفُ قَرِيشٌ * إِذْ لَفِهُمُ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾؛ فالله بمنه وكرمه على جعل قريشاً سادة العرب؛ لأنهم سدنة البيت، ويسر لهم رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانوا يجنون منهما أسباب الرخاء والرفاهية، ويسر لهم ببركته الوقاية من الجوع والأمن من الخوف، كل ذلك تأليفاً لقلوبهم كي يعبدوه وحده.

د - المناسبة بين سورتي : مريم وطه : نزول ومصحف

السورتان متتابعتان في ترتيب المصحف؛ فسورة مريم رقم ١٩ وسورة طه رقم ٢٠، والمناسبة بينهما أنه لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ (مريم: ٥٨) وكان ظاهر هذا الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ

غِيَاً [مريم] كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ملاطفة المحبوب المقرب المجتبي فقال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه).

وهناك وجه آخر للمناسبة بين سورتي : مريم وطه هو أنه لما ختمت سورة مريم بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم) بعد قوله : ﴿وَتُنذِرِيَهُ قَوْمًا لَّدَا﴾ (مريم) وقد رأى عليه السلام من تأخر قریش عن الإسلام ولردها ما أوجب إشفاقه وخوفه عليهم ولا شك أنه عليه السلام يحزنه تأخر إيمانهم ولذلك قيل له : فلا تحزن عليهم "فكانه عليه الصلاة والسلام ظن أنه يستصعب المقصود من استجابتهم أو ينقطع الرجاء من إنابتهم فيطول العناء والمشقة، لما كان الأمر كذلك؛ ناسبه تطف الله سبحانه مع نبيه ﷺ بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه) فلا عليك من لدد هؤلاء وتوقفهم فسيستجيب من انطوى على الخشية إذا ذكر وحرك إلى النظر في آيات الله... ثم إتباع ذلك تأنيسه ﷺ بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إلى أول قصص موسى عليه السلام؛ فأعلم سبحانه أن الكل خلقه وملكه وتحت قهره وقبضته لا يشذ شيء عن ملكه، فإذا شاء هداية لم من وفقه لم يصعب أمره، ثم أتبع ذلك بقصة موسى عليه السلام وما كان منه في إلقائه صغيراً في اليم، وما جرى بعد ذلك من عجيب الصنع وهلاك فرعون وظهور بني إسرائيل، وكل هذا مما يؤكد القصد المتقدم، وهذا الوجه الثاني أولى من الأول والله أعلم."

هـ - المناسبة بين سورتي : يونس وهود : نزول ومصحف

سورة يونس وسورة هود متتابعتان في ترتيب النزول وفي ترتيب المصحف، فسورة يونس رقم : ١٠ وسورة هود رقم ١١، وسورة يونس رقم ٥٠ وسورة هود ٥١ في ترتيب النزول، والمناسبة بينهما أنه لما ختمت سورة يونس بالحث على اتباع الكتاب ولزوم الصبر على ما يتعقب ذلك من مرائر الضير المؤدية إلى مفاز الخير اعتماداً على المتصف بالجلال والكبرياء والكمال؛

ابتدئت هذه أي هود بوصفه بما يرغب فيه بقوله: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود).

و- المناسبة بين سورتي : الجن ويس : نزول

سورة الجن هي التاسعة والثلاثون وسورة يس هي الأربعون، والمناسبة بينهما أنه لما ختمت سورة الجن بقوله تعالى ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *﴾؛ ناسبه ذكر أن الله ارتضى محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسولاً، وأقسم على ذلك بقوله: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾، وذكر ما يدل على تأييد الله لرسوله محمد حين جعله يخرج من بين أيدي الكفار المتربصين به ويهاجر على المدينة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .

س ٣: ترتيب السور وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. اشرح هذه العبارة شرحاً تفصيلياً.

ج ٣: المتأمل في ترتيب السور سواء كان ترتيب نزول أم كان ترتيب المصحف العثماني يجد أنه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ فأيات القرآن وسوره متناسبة متسقة المعاني، منتظمة المباني يرتبط بعضها ببعض، حتى تكون الكلمة الواحدة، وعلى الرغم من هذا قلت عناية المفسرين به كما أشار إلى ذلك فخر الدين الرازي والزرکشي والبقاعي والسيوطي؛ يقول الرازي "القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

الترتيب القرآني ليس في مقدور بشر إنما هو من الله :

من المعلوم أن الترتيب المصحفي للقرآن يختلف اختلافاً بيّناً عن ترتيبه النزولي، ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل جملة أو دفعة واحدة، إنما نزل منجّماً في ثلاث وعشرين سنة، وأن نزوله كان بحسب الوقائع والأحداث التي واجهت مسار الدعوة الإسلامية، وأن لكل سورة موقعاً في ترتيب النزول وموقعاً آخر في ترتيب المصحف، وأنها في كل من الموقعين- وتلك آية الإعجاز الخالدة - قد تسنّمت ذروة البلاغة، لمطابقتها -مقامياً -للواقعة أو المناسبة التي نزلت فيها من جهة، ومواءمتها - نصياً أو سياقياً - لموقعها في نسق ترتيبها ولما سبقها أو لحق بها من سور من جهة أخرى يقول الزرقاني مبيناً وجه الإعجاز في اختلاف هذين الترتيبين :**"إن القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره؛ فإذا هو محكم السرد؛ دقيق السبك؛ متين الأسلوب؛ قوي الاتصال؛ أخذ بعضه برقاب بعض في سور وآياته وجمله؛ يجري دم الإعجاز فيه آله من ألفه إلى يائه؛ كأنه سبيكة واحدة؛ ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ الأبصار؛ نظمت حروفه وكلماته؛ ونسقت جملة وآياته؛ وجاء آخره مساوفاً لأوله؛ وبدا أوله مواتياً لآخره!!"**

يقول الزرقاني في "مناهل العرفان" (طبعة الحلبي): "وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحادًا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عامًا!!

الجواب : إننا نلمح هنا سرًا جديدًا من أسرار الإعجاز؛ ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية؛ ونقرأ دليلاً ساطعًا على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء) وإلا فحدثني - بربك -...كيف يستطيع الخلق جميعًا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسيج والسردي؛ متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه

في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر؛ وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها؛ ومتحدثاً عن؛ سبباً بعد سبب؛ وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي؛ وتغاير ما بين تلك الأسباب، مع تراخي زمان هذا التأليف؛ وتطاول آماذ هذه النجوم، إلى أكثر من عشرين عاماً؟ لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذلك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام.

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً؛ نزل مفزاً منجماً، ولكنه تم مترابطاً محكماً، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب؛ ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب؛ ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً؛ ولكن تكامل انسجامه بداية وختاماً!! أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات؛ ومدبر الخلق والكائنات؛ وقيوم الأرض والسموات العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شئون؟! لاحظ فوق ما سبق أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال ضعوها في مكان كذا من سورة كذا"، وهو بشر لا يدري "طبعاً" ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان؛ ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كله والرسول- صلى الله عليه وسلم- بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم؛ وينتظم ويتأخى ويتألف ويلتئم؛ ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت بل يعجز الخلق طراً عما فيه من انسجام ووحدة وترابط، "[٦٠: ٦٢] ولا غرو فالقرآن ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود) وهو كتاب ﴿عَزِيزٌ * لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت).